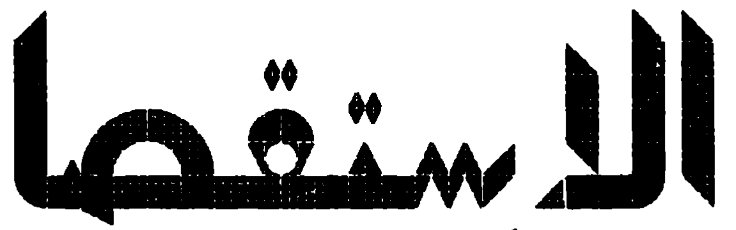
الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



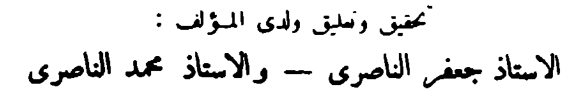
لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة العلوية

الجزء السابع

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى



دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٦

الدولة العلوية

الخبر عن دولة الاشراف السجلماسيين من آل علي الشريف وذكر نسبهم واوليتهم

اعلم ان نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الانساب ، وسببها المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم من أمتن الاسباب ، واول ملوكها كما سياتي هو المولى محمد بن الشريف بن علي الشريف المراكشي ابن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي ابن الحسن بن محمد بن حسن الداخل ابن قاسم بن محمد بن محمد بن أبي القاسم ابن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة ابن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن احمد بن اسمعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا ذكر هذا النسب ، الذي هو حقيق بأن يسمى سلسلة الذهب ، جماعة من العلماء كالشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي ، والشيخ أبي عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسي ، والعلامة الشريف أبي محمد عبد السلام القادري في كتابه : «الدر السني فيما بفاس من النسب الحسني» وغيرهم .

وقد تقدم في اخبار السعديين أن الصواب أن يزاد في عمود هذا النسب الشريف بعد قاسم الآخر ما نصه : ابن الحسن بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية الى آخر ما مر

قال ابو عبد الله الفاسي في المرآة : «ان الشرفاء الذين لا يشك في

شرفهم بالمغرب كثيرون كالجوطيين من الحسنيين الادريسيين ، وكشرفاء تافيلالت من الحسنيين أيضا المحمديين ، وكالصقليين والعراقيين وكلاهما من الحسينيين بالياء الساكنة بين السين والنون ، فان شرف جميعهم لا يختلف فيه اثنان من اهل بلادهم ومن يعرفهم من غيرهم» اه

وعن شيخ الجماعة الامام أبى محمد عبد القادر الفاسى رحمه الله أنه قسم شرفاء المغرب بحسب القوة والضعف الى خمسة أقسام ومثل للقسم الاول المتفق على صحته باصناف منهم هؤلاء السادة السجلماسيون . وقال الشيخ أبو على اليوسى رحمه الله : «شرف السادة السجلماسيين مقطوع بصحته كالشمس الضاحية فى رابعة النهار .» وعن الشيخ أبى العباس أحمد ابن عبد الله بن معن الاندلسى أنه كان يقول : «ما ولى المغرب بعد الادارسة أصح نسبا من شرفاء تافيلالت .

وبالجملة فان شرف هؤلاء السادة السجلماسيين مما لا نزاع فى صراحته ، ولا خلاف فى صحته عند أهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر بمرا تـرضى الله عنهم ونفعنا بهم وبأسلافهم آمين .

دخول المولى حسن بن قاسم الى المغرب واستيطانه بسجلماسة والسبب فى ذلك

قالوا : ان أصل سلف هؤلاء السادة رضى الله عنهم من ينبع النخل من أرض الحجاز . قالوا : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقطع جدهم على بن أبى طالب أرض ينبع فاستقرت ذريته به وتناسلت الى هذا العهد ، وكان اول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم ، فحكى عن الفقيه العالم أبى عبد الله محمد بن سعيد المرغيثى صاحب الرجز المسمى : بالمقنع قال « أخبرنى الشيخ الامام المولى أبو محمد عبد الله بن

علي بن طاهر الحسني أن جده الداخل الى المغرب هو المولى حسن بن قاسم قال : « وكان دخوله اليه في أواخر المائة السابعة وكان يومئذ من أبناء الستين ونحو ذلك وتوفي رحمه الله قبل انقضاء المائة المذكورة » اه

وخبر ابن طاهر هذا هو أصح ما ينقل في كيفية الدخول ووقته . وذكر بعضهم عنه أن دخوله كان سنة أربع وستين وستمائة . وقال الشيخ أبو اسحق ابراهيم بن هلال : ان دخوله كان في أوائل الدولة المرينية ، ذكر ذلك في منسكه فعلى هذا يكون دخوله في دولة السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني ، وقد أشرنا الى ذلك في محله فيما سلف . وقال العلامة أبو سالم العياشي في رحلته : «ان المولى حسن بن قاسم دخل المغرب في المائة السابعة وكان سكناه من ينبع النخل بمدشر يعرف بمدشر بني ابراهيم. فهؤلاء كلهم اتفقوا على ان الدخول كان في المائة السابعة وهو الصحيح الصواب ان شاء الله . وزعم بعضهم أن ذلك كان في المائة السادسة وهو بعيد.

واختلفوا في السبب الداعي الى دخول هذا السيد الى المغرب . فذكر صاحب كتاب ، «الانوار السنية فيما بسجلماسة من النسبة الحسنية» أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربي كان يتوارد على الاشراف هنالك وكان شيخ الركب في بعض القدمات رجلا من أهل سجلماسة يظن أنه السيد أبو ابراهيم ، فلما حج اجتمع بالموسم بالسيد حسن المذكور ، وكانت سجلماسة وأعمالها يومئذ شاغرة من سكنى الاشراف فلم يزل أبو ابراهيم يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماسة حتى استماله فاجمع السير مع الركب ، وقدم به أبو ابراهيم فاستوطن ببلدهم سجلماسة . وقال حافده المولى أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر فيما قيد عنه : « وكان الذي أتوا به من أهل سجلماسة أولاد البشير وأولاد المنزاري وأولاد المعتصم وأولاد ابن عاقلة وصاهره منهم أولاد المنزاري » اه

وذكر صاحب الارجوزة : أن الشيخ أبا ابراهيم الذي جاء به من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال بعضهم : ان أهل سجلماسة لم تكن تصلح الثمار ببلدهم فذهبوا الى الحجاز بقصد أن يأتوا برجل من أهل البيت

تبركا به فأتوا بالمولى حسن المذكور فحقق الله رجاءهم وأصلح ثمارهم حتى عادت بلادهم هي حجر المغرب . وقال غيره : ان سبب اتيانهم به أن الاشراف من آل ادريس رضى الله عنه كانوا قد تفرقوا ببلاد المغرب وانتثر نظامهم واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء مكناسة وغيرهم فقل الشرف بالمغرب وأنكره كثير من أهله حقنا لدمائهم ، فلما طلع نجم الدولة المرينية بالمغرب أكبروا الاشراف ورفعوا أقدارهم واحترموهم ، ولم يكن ببلد سجلماسة أحد من آل البيت الكريم فأجمع رأى كبرائهم وأعيانهم أن يأتوا بمن يتبركون به من أهل ذلك النسب الشريف فقيل : ان الذهب يطلب من معدنه ، والياقوت يجلب من موطنه ، أن بلاد الحجاز هي مقر الاشراف ، ولذلك الجوهر النفيس من أجل الاصداف ، فذهبوا الى الحجاز وجاءوا بالمولى حسن على ما ذكرنا فأشرقت شمس البيت النبوى على سجلماسة وأضاءت أرجاؤها ، وظللتها من الشجرة الطيبة ظلالها وأفياؤها ، حتى قيل : ان مقبرة أهل سجلماسة هي بقيع المغرب وكفاها هذا شرفا وفخرا ومزية وذخرا ، وذكر بعضهم : أن أهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد أن يبعث معهم أحد أولاده وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة اختبر من أولاده من يصلح لذلك ، وكان له على ما قيل ثمانية من الولد ، فكان يسأل الواحد منهم بعد الواحد ويقول له : « من فعل معك الخير فما تفعل معه أنت ؟» فيقول : « الخير » «ومن فعل معك الشر ؟» فيقول : «الشر» فيقول : «اجلس» الى أن انتهى الى المولى حسن الداخل فقال له كما قال لاخوته فقال : «من فعل معى الشر أفعل معه الخير» قال : «فيعود ذلك بالشر» قال : «فأعود له بالخير الى أن يغلب خيرى على شره» فاستنار وجه المولى قاسم وداخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفى عقبه فأجاب الله دعوته .

وكان المولى حسن الداخل رجلا صالحا ناسكا له مشاركة فى العلوم خصوصا علم البيان فانه كانت له فيه اليد الطولى ، ولما استقر بسجلماسة واطمأنت به الدار زوجه الشيخ أبو ابراهيم ابنته وسكن على ما قيل بموضع يقال له : المصلح ، ولما توفى تنازع أهل سجلماسة فى موضع دفنه حتى

كادت نار الحرب تشب بينهم فأجمع رأيهم أن يدفنوه بمحل وسط هم فيه سواء ،فمسحوا أرض سجلماسة بالحبال وقسموها أرباعا ودفنوه بمكان سوى يتوسط جميع النواحى ، ولم يحفظ تاريخ وفاته ، وما استنبطه اليفرنى فى ذلك فمبنى على غير أساس . والله تعالى أعلم .

ذكر ذرية المولى حسن بن قاسم وتناسلها بالمغرب والالمام بشىء من مناقب المولى على الشريف

لما توفى المولى حسن بن قاسم رحمه الله لم يخلف الا ولدا واحدا ، وهوالمولى محمد،ثم خلف المولى محمد هذا ولدا واحدا أيضا،وهو المولى الحسن يسمى باسم جده ، وهو المدفون حول المدينة الكبرى بازاء الشيخ أبى عبد الله الخراز من أرض سجلماسة ، وخلف المولى الحسن المذكور ولدين . أحدهما : المولى عبد الرحمن المكنى بابى البركات ، وهو أكبرهما ، ومن ذريته أولاد أبى حميد بالتصغير القاطنون بوادى الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماسة . ومنهم أيضا الشرفاء النازلون بنى زروال ، وثانيهما : المولى على المعروف بالشريف ومنه تفرعت فروع المحمديين وتكاثرت وكان رحمه الله رجلا صالحا مجاب الدعوة كثير الاوقاف والصدقات حاجا مجاهدا ذا همة سنية وأحوال مرضية .

رحل فى بعض الاوقات الى فاس واستوطنها مدة طويلة . وكان سكناه منها بالحومة المعروفة بجزاء ابن عامر من عدوة القرويين ، وترك هنالك دارا ثم أقام مدة بقرية صفرو خلف بها عقارا وآثارا هى بها الى الآن ، وأقام مدة أخرى ببلد جرس التى على مرحلتين ونصف من سجلماسة ، وترك بها مثل ذلك . ودخل عدوة الاندلس برسم الجهاد مرارا وأقام بها مدة طويلة ثم عاد الى سجلماسة ، فكاتبه أهل الاندلس يطلبون منه العود اليهم ويحضونه

على الاعتناء بأمور الجهاد ، ويشكون اليه ضعف أهل الاندلس عن مقاومة العدو ، وأنها شاغرة ممن تجتمع عليه القلوب ، وقد كانوا راودوه ، وهو مقيم عندهم ، على أن يبايعوه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعا وزهدا وعزوفا عن الدنيا وزهراتها ، قال اليفرني رحمه الله : وقد وقفت على رسائل عديدة بعث بها اليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز اليهم واستنفار المجاهدين الى حماية بيضتهم ويذكرون له ان كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالا كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب ، وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه : «الى الهمام الضرغام قطب دائرة فرسان الاسلام الشجاع المقدام ، الهصور الفاتك ، الوقور الناسك ، طليعة جيش الجهاد ، وعين أعيان الانجاد ، المؤيد بالفتح في هذه البلاد ، المسارع الى مرضات رب العباد ، مولانا أبي الحسن على الشريف » اه نص التحلية . وكتبوا مع ذلك الى علماء فاس يلتمسون منهم ان يحضوا المولى عليا على العبور الى العدوة فكتب اليه أعلام فاس بمثل ذلك وحثوه على المسارعة الى اغاثتهم ، وذكروا له فضل الجهاد وانه من أفضل اعمال البر، وكان من موجبات تخلفه عن اغاثة أهل غرناطة أنه كان قد عزم على الذهاب الى الحج فقالوا له في بعض تلك الرسائل : وعوضوا هذه الوجهة الحجية التى أجمع رأيكم عليها ، وتوفر عزمكم لديها بالعبور الى الجهاد فان الجهاد ، أصلحكم الله في حق أهل المغرب ، أفضل من الحج كما أفتى به الامام ابن رشد رحمه الله حين سئل عن ذلك ، وقد بسط الكلام عليه في أجوبته ووجه ما ذهب اليه من ذلك اه . وكان ممن كتب اليه من علماء غرناطة جماعة منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن سراج شيخ المواق وقاضي الجماعة بها . ومن شيوخ فاس الذين كتبوا اليه الفقيه أبو عبد الله العكرمي شيخ شيوخ الامام ابن غازى ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ماواس ، وابو زيد عبد الرحمن الرقعي صاحب الرجز المشهور وغيرهم .

ومما ضمنه أهل الاندلس في رسائلهم القصيدة الآتية في مدح المولى علي وصاحبه الفاضل أبي عبد الله محمد بن ابراهيم العمري وحثهما على اجابتهم وهي من انشاء الفقيه أبي فارس بن الربيع الغرناطي يقول فيها :

أياراكبا يطوى المفاوز والقفرا ... رشدت ولقيت السلامة والخيرا
ترحل وجد السير يوما وليلة ... وسافر تجدها في مطالعها زهرا
تحمل رعاك الله مني الى الحما ... تحية مشتاق تهيجه الذكرا
وأم ديار الحي من سجلماسة ... فتلك ديار تجمع العز والفخرا
وسلم على تلك الديار وأهلها ... سلام محب لم يطق عنهم صبرا
فعندي لهم حب جرى في مفاصلي ... ومازج مني العظم والدم والشعرا
فتلك بقاع الدين والخير والهدى ... فكم من تقي في سماها سما بدرا
هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم ... بضوع عبير الزهر من بينهم نشرا
وقل ياأهيل القبلة السادة الاولى ... اذا مادعوا في حادث أسرعوا النفرا
وخص سليل الهاشمي ابن صهره ... على الذي يعلو على زحل قدرا
أبا الحسن المولى الشريف الذي به ... على الغرب شمس النصر طبقت الصحرا
ولاحت بآفاق القلوب عجائب ... بها سلب الالباب تحسبها سحرا
هو الصقر مهما اهتز كل مجلجل ... هزبر اذا ما انشب الناب والظفرا
هو الغوث ان دارت رحى الحرب للقا ... وغيث اذما المزن ما أرسلت قطرا
أغار على الاعلاج فاجتاح جمعهم ... وجد لهم قتلا وشددهم أسرا
بطنجة قد طاب الممات لزمرة ... بنصرتها ترجو من الملك الاجرا
دعاها بأقصى السوس قوم فأسرجوا ... من الصافنات الجرد لم يأخذوا الحذرا
فهبت ركاب القوم والشمس أشرقت ... وأرهق جيش الله أعداءه خسرا
ولا عجب ان الالى هو منهم ... ليوث الشرى قد أوسعوا مرحبا شرا
أجر جارك اللهفان من غمراته ... أبا حسن وانصر جزيرتك الخضرا
وناد أبا عبد الاله خليلكم ... به تجلب السراء في حادث الضرا
سليل أبي اسحق أكرم به أبا ... لقد خلف الفرع الزكي الرضي البرا
أليس الذي لبى نداء أهل طنجة ... وجمع أهل الغرب من حينه طرا

وأوقع بالكفار أى وقيعة   فمن لم يمت بالسيف مات له ذعرا

وأصبح ثغر الدين أشنب باسما   وأرهق وجه الكفر من حزن قترا

ونال من الله السعادة والرضى   وجنات عدن فى المعاد له ذخرا

وقل أيها العدل الذى اتخذ التقى   شعارا وسامى فهى منازلها الشعرا

أرى كل ما فى الغرب أصبح قانطا   لاندلس يرجو بطلعتكم نصرا

وغرناطة الغراء نادتكما اتهلا   وبالراية البيضاء كى تنصر الحمرا

فساكنها وقف عليكم رجاؤه   كبيرهم والطفل والكاعب العذرا

فجئنا بمن فى أرضكم حاميا لهم   رجالا وفرسانا غطارفة غرا

حماة أباة الضيم من كل ماجد   كريم يبارى الغيث والسيل والبحرا

فدونكما الكفار تعنى طغاتها   وتشبع من قتلاهم الوحش والطيرا

لقد طمع الكفار ملك رقابنا   واهلاكهم فى ارضنا الحرث والثمرا

منازلنا من كل حصن وقرية   تناديكما غوثا لخطب أتى إمرا

فكم من ضعيف لا حراك بجسمه   وشيخ بها أربى على مائة عشرا

وبيض وسمر من اوانس كالدما   وصبية مهد لا تع النفع والضرا

ومنبر جمع للخطابة والدعا   ومسجد دين للصلاة وللاقرا

وكرسى علم مقعد لمهذب   تصدر يملى ما يضىء لنا الصدرا

وأجداث أبناء الصحابة فوقها   وكل ولى أشعث لابس طمرا

تناديكما غوثا من الله سرعة   فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا البرا

فحثوا لنا بالسير بعدا وقربة   أجيراننا من كيد من أضمر الجؤرا

وعزما بأخرى مثل تلك التى مضت   ليبصر هذا الفنش مثلكم كبرا

وانتم بحمد الله تدرون ما أتى   عن المصطفى فى الغزو من خبر خبرا

فلله ما أسنى وددت لو أننى   قتلت فأحيى ثم اقتل مذ مرا

وما فى كتاب الله من آية أتت   كشمس الضحى فى الصحو سافرة غرا

خذاها بحمد الله عذرا جبينها   يضوع شذى تهدى لمغناكما عطرا

وتبلغ عنى للكرام تحية   من أندلس للغرب قدعبروا البحرا

فعونا رجال الله عونا لعدوة   أحاطت بها البأساء واشتدت الضرا

فأنتم لنا الجند القوى ونحوكم تشوفنا فاستعجلوا نحونا السيرا
ونثنى على خير البرية ذى الهدى محمد المبعوث بالملة اليسرا
وآل وصحب ثم تال لنهجهم ومن لذوى الاسلام قد قصد النصرا

وبهذه الرسائل العذبة الالفاظ المستوقفة الالحاظ يعلم أن المولى عليا الشريف رحمه الله كان مشهورا فى عصره ، متقدما على كافة أهل مصره، وانه كان ملحوظا بالاجلال عندهم والاكبار ، وان هذه الدار العالية البناء والاسوار معظمة من لدن قديم ، مشهود لها بالخير والتقديم ، وأظن أن وقعة طنجة المشار اليها فى هذه القصيدة هى وقعة سنة احدى وأربعين وثمانمائة ، وقد تقدمت الاشارة اليها فى محلها .

وقد كان للمولى على المذكور جهاد فى ناحية أكدج من بلاد السودان ورزق الظفر والفتح كما ذكره مبسوطا فى «النزهة» فلينظر هناك .

وذكر صاحب كتاب الانوار السنية ان المولى عليا مكث أربع عشرة سنة لا يولد له ثم ولد له بعد ذلك ولدان : أحدهما المولى محمد بفتح الميم ، والثانى أبو المحاسن يوسف وهو أصغرهما ، أما المولى محمد فخلف أربعة أولاد وهم : السيد الحسن والسيد عبد الله والسيد على والسيد قاسم وهم على هذا الترتيب فى السن ، ويقال لسائرهم : أولاد محمد نسبة الى هذا الجد وفروعهم كثيرة يطول تتبعها . وأما المولى يوسف فانه ولى زاوية أبيه وأجمع الناس على انه المتأهل لها دون غيره لرزانته ووفور عقله فتولاها بعد نزاع ورسم توليته لها لم يزل موجودا عند بعض حفدته . وكان ذلك كله فى دولة بنى مرين .

وقال صاحب كتاب الانوار : وقد قيل انه لم يكن له ولد حتى بلغ ثمانين سنة فولد له تسعة من الولد خمسة منهم اشقاء ، وامهم حليمة من ذرية بعض المرابطين بسجلماسة ، وهم السيد على وهو جد الملوك أبقى الله فضلهم ، والسيد أحمد ، والسيد عبد الواحد ، والسيد الطيب ، والسيد عبد الواحد المكنى : بأبى الغيث جد الاشراف البلغيثيين ، وانما كنى بذلك لكثرة ما نزل من الغيث عند ولادته ، وكان الناس قبله فى جدب شديد .

وهم على هذا الترتيب في السن . وأربعـة أشقاء أمهم طاهـرة من ذريـة بعض المرابطين أيضا وهم :السيد الحسن بالتكبير والسيد الحسين بالتصغير والسيد عبد الرحمن والسيد محمد ، ومن منازل هؤلاء الاشقاء اليـوم الموضـع المعروف بأخنوس .

وتفصيل انساب هؤلاء الاولاد الثمانية يطول فلنقتصر على ذكـر المولى على المثنى لانه الغرض المقصود فنقول : ولد للمولى على المذكور ثلاثـة من الولد وهم : السيد محمد والسيد محـرز والسيد هاشم جـد الاشراف المرانيين أهل زاوية اللمراني . وكلهم قد عقبوا فاما المولى محمد فولد لـه المولى على الشريف المراكشي وهو المثلث مع عدة اولاد سواه ، والمولى على هو جد الملوك أيضا وتوفى بمراكش وبنى عليه حافده أمير المؤمنـين المولى الرشيد قبة بديعة تلقاء ضريح القاضي عياض رحمه الله . وولد للمولى على الشريف المذكور تسعة من الولد المولى الشريف اسما وكانت ولادته سنـة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك . والمولى الحفيد ، والمولى حجـاج والمولى محرز والمولى حرون والمولى فضيل والمولى أبو زكرياء والمولى مبارك والمولى سعيد ، فهؤلاء هم أولاد المولى على الشريف ، وكان المولى الشريف أفضلهم وأشرفهم وله رحمة الله عدة أولاد كلهم نجوم زاهرة ذوو همـم باهرة ، منهم المولى محمد بفتح الميم وهو أكبرهم والمولى الرشيد والمـولى اسمعيل ، وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بالمغرب على هذا الترتيب ومنهم المـولى الحران وسياتى ، والمولى محرز والمولى يوسف والمولى أحمد والمولى الكبير والمولى حمادة والمولى عباس والمولى سعيد والمولى هاشم والمولى على والمولى مهدى وهو شقيق اسمعيل من بينهم . هذا ما تيسر ذكـره من نسب هـذه الدولة الشريفة ، ذات الظلال الوريفة ، وبالله التوفيق .

الخبر عن رياسة المولى الشريف بن على وما دار بينه وبين ابى حسون السملالى المعروف بابى دميعة

■

قد قدمنا أن ظهور أبى حسون السملالى كان فى أيام السلطان زيدان ابن المنصور السعدى وانه استولى على القطر السوسى أولا ثم تناول درعه وسجلماسة ثانيا ، قالوا : وكان استيلاؤه على سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف باستدعاء المولى الشريف بن على له واستصراخه اياه على بنى الزبير أهل حصن تابوعصامت أعدائه ، كذا فى البستان ، فقدمها أبو حسون واستولى عليها وولى عليها عاملا من قبله ورجع الى مقره من أرض السوس .

وقال اليفرنى فى «النزهة» كان أبو الاملاك المولى الشريف بن على وجيها عند أهل سجلماسة وسائر المغرب يقصدونه فى المهمات ويستشفعون به فى الازمات ، ويهرعون اليه فيما جل وقل ، قال : وكان قد مر ذات يوم وهو صبى ، على الامام المولى أبى محمد عبد الله بن على بن طاهر الحسنى فسأل عنه اذ لم يكن يعرفه قبل ذلك ، فقيل له : هو ابن المولى على الشريف ففرح به أبو محمد ومسح على ظهره وقال : ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين ، فعلم الناس أن ذلك كائن لا محالة لما يعلمون من صحة كشف أبى محمد وصدق فراسته ، فكان المولى الشريف بعد أن كبر وولد له الاولاد يشيع أن هذا الامر لابد أن يصير الى بيته ويكون لهم شأن عظيم اعتمادا على فراسة أبى محمد بن طاهر رحمه الله .

ثم كان بين المولى الشريف المذكور وبين أهل تابوعصامت ، وهى حصن منيع من حصون سجلماسة ، عداوة تامة ، فاستصرخ عليهم أبا حسون السملالى صاحب السوس لصداقة كانت بينهما ، واستصرخ أهل تابوعصامت أهل زاوية الدلاء ، فأغاث كل منهما من استصرخه ، والتقى العسكران معا بسجلماسة لكنهما انفصلا على غير قتال حقنا لدماء المسلمين ، وكان ذلك سنة

ثلاث وأربعين وألف ، ولما رأى أهل تابوعصامت ما بين المولى الشريف وأبى حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم الى أبى حسون وخدموه بأنفسهم وأولادهم وأظهروا له النصح وصدق المحبة طمعا فى استفساده على المولى الشريف اذ كان ظاهرا عليهم به ، فلم يزالوا يسعون فى ذلك الى أن أظلم الجو بينهما واستحكمت العداوة وتوفرت دواعيها ، ولما رأى ابنه المولى محمد بن الشريف ذلك اهتبل الغرة فى أهل تابوعصامت ، وخرج ليلا فى نحو مائتين من الخيل مظهرا أنه قاصد لبعض النواحى ثم كبسهم على حين غفلة وتسور عليهم حصنهم فما راع أهل تابوعصامت الا المولى محمد فى جماعة قد وضعوا السيف فيهم وحكموه فى رقابهم ، فلم يكن عندهم دفاع ، واستمكن منهم واستولى على ذخائرهم ، وشفى صدر أبيه مما كان يجده عليهم . ولما انتهى الخبر بذلك الى أبى حسون حمى أنفه واشتد غضبه ، وكتب الى عامله بسجلماسة ، واسمه أبو بكر ، يأمره أن يحتال على المولى الشريف حتى يقبض عليه ويبعث اليه به حبيسا ، فامتثل أمره وقبض على المولى الشريف غدرا بأن تمارض ثم استدعاه لعيادته والتبرك به ، ثم قبض عليه وبعث به الى السوس فاعتقله أبو حسون فى قلعة هنالك مدة الى أن افتكه ولده المولى محمد بمال جزيل ، وعاد المولى الشريف الى سجلماسة فى خبر طويل وكان ذلك كله فى حدود سنة سبع وأربعين وألف .

قال فى البستان : وأعطى أبو حسون المولى الشريف وهو معتقل عنده جارية مولدة من سبى المغافرة كانت تخدمه قال : «وهى أم المولى اسمعيل وأخيه المولى مهدى» اه .

ولست أدرى ما مراده بهذا ، فان كانت الجارية نسية فى المغافرة فهى حرة فيكون المولى الشريف قد وطئها بعقد النكاح وهذا هو الذى يغلب على الظن بدليل أن السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله لما عزم على جمع جيش الودايا قال لهم : «أنتم أخوالى» اشارة الى هذا الصهر كما سيأتى . وان كانت مملوكة لهم ثم صارت الى أبى حسون فالوطء حينئذ كان بملك اليمين . والله تعالى أعلم . وصاحب «البستان» كثيرا ما يجازف

في النقل ويتساهل فيه فلا ينبغي أن يعتمد على ما ينفرد به من ذلك وبالله التوفيق

الخبر عن امارة المولى محمد بن الشريف وبيعته بسجلماسة والسبب في ذلك

لما قبض أبو حسون على المولى الشريف وسجنه عنده كان ولده المولى محمد «بفتح الميم» مجمعا على اهلاك من بقي من أهل تابوعصامت واستئصال شأفتهم، وكان قد تقوى عضده بعض الشيء بما أخذ من أموالهم في الوقعة السالفة فاتخذ بعد تغريب أبيه الى السوس جيشا لا بأس به ، وانضم اليه جمع من أهل سجلماسة وأعمالها ، وذلك سنة خمس وأربعين وألف . وكان أصحاب أبي حسون قد أساءوا السيرة بسجلماسة ونصبوا حبالة الطمع في الناس حتى ملتهم القلوب وزرعوا بغض الملكة السوسية في قلوب الخاصة والعامة ، ومن عسفهم أنهم كانوا قد ضربوا الخراج بسجلماسة وأعمالها على كل شيء حتى على من يجدونه في الشمس زمن الشتاء ! وفي الظل زمن الصيف ! وضيقوا على الناس حتى ازدرتهم العيون وملتهم النفوس ، فلما قام المولى محمد واجتمع عليه من ذكرناه آنفا دعاهم الى الايقاع باهل السوس فأجابوه، ووجد فيهم داعية لذلك ، فاعصوصبوا عليه وصرفوا عزمهم الى محو دعوة أبي حسون من بلادهم ، فثاروا بعماله للحين وأخرجوهم عنها صاغرين بعد قتال شديد ، ثم أجمع رأيهم على بيعة المولى محمد فبايعوه سنة خمسين وألف في حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة فاستتب أمره واستحكمت بيعته ووافقه المقدر، وساعده السعد وافتتح من ملك المغرب بابه ، واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

استيلاء المولى محمد بن الشريف على درعة وطرده ابا حسون السملالى عنها

لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وجمع الله سبحانه شملـه بأبيه كما مر شمر لمضايقة أبى حسون السملالى وأهل السوس ببلاد درعـة اذ كانت تحت ولايته كما قلنا فنهض اليه فى جمـع كثيف ، ووقعت بينهما حروب فظيعة يشيب لها الوليد ، ثـم انقشع سحاب تلك الفتنة عن انتصار المولى محمد وانهزام أبى حسون وفراره الى مسقط رأسه من أرض السوس فاستولى المولى محمد على درعة وأعمالها ، واتسعت ايالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار فى بلاد المغرب صيته وكان من أمره ما نذكره .

وقعة القاعة بين المولى محمد بن الشريف واهل زاوية الدلاء وما نشأ عنها

لما صفا للمولى محمد بن الشريف قطـر سجلماسة ودرعة حدثتـه نفسه بالاستيلاء على الغرب اذ هو يومئذ مقر الرياسة ومتبوأ الخلافة فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال ، وصاحبه نـاسج على غير منوال وكان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائى يومئذ مستوليا على فـاس ومكناسة وأعمالهما وامتدت ولايته بعد مهلك أبى عبد الله العياشى الى سلا وأعمالها ، فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكتـه خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وعبر اليه نهر ملوية وكان الدلائى أشد قوة من الشريف وأكثر جمعا ، فضايقه باقليم الصحراء وقصد سجلماسة مرارا ، وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعـة ضحى يـوم السبت الثانى عشر من ربيع النبوى سنة ست وخمسين وألف، فكانت الهزيمة

فيها على الشريف ، وتقدم الدلائى الى سجلماسة فافتتحها . واستولى عليها، وفعلت البربر فيها الافاعيل العظيمة .

ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازت الصحراء الى جبل بنى عياش فهو للمولى محمد ، وما دون ذلك الى ناحيـــة الغرب فهو لاهل الـدلاء ، ثـم استثنى أهل الـدلاء خمسة مواضـع أخر كانت فى ايالـة المـولى محمد فجعلوها لهم وهى : الشيخ مغفر فى أولاد عيسى ، والسيد الطيب فى قصر السوق ، وأحمد بن على فى قصر بنى عثمـان ، وقصر حليمـة فى وطـن غريس ، وآسرير فى فركلة ، فهذه الاماكن الخمسة شرطوا على المولى محمد أن لا يحرك لهم منها ساكنا .

وانبرم الصلح على ذلك ورجع أهل الدلاء فى جموعهم فما كان غـير بعيد حتى اطلع المولى محمد على ما أوجب الفتك بالشيخ مغفر وبعض مـن شرطوا عليه بقاءه ففتك بهم واصطلم نعمتهم ، فبلغ ذلك أهل الدلاء فجمعوا جموعهم ونهضوا الى سجلماسة عازمين على استئصال المولى محمد وشيعته ، وأن لا يدعوا له قليلا ولا كثيرا . وكتبوا اليه كتابا يتهددونه فيه . ورموه بالغدر ، وأنه ناكث ومقسم حانث ، وأغلظوا لـــه فى الكـلام ، وأفحشـوا عنيـــه فى المـلام .

فأجابهم المولى محمد برسالة يقول فيها : «الى السيد محمد الملقب بالحاج ابن السيد محمد بن أبى بكر بن سيرى الوجارى الزمورى ومن شمله رداء الديوان ، من الابناء والاخوان ، سلام على جلهم سلام استحباب وسنة ، فقد كتبناه اليكم من سجلماسة ، كتب الله لها من شركم أنفع التمائم ، وألبسها من الظفر بكم أرفع العمائــم ، وبعد السلام ، فـان نيران هذه الفتن التـى أضرمتموها بعد خمودها لستم لها بأهل اذ لم يعرفكم أهل المغرب الا باطعام قصاع العصائد ، وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد ، أمـا العلوم فقد أقررنا لكم فيها انصافا بالتسليم ، لو قصدتم بهـــا العمل وأجـر التعليم ، وأيم الله لئن نظم فينا الديان ، يوما من الدهر شمـــل الديوان ، لتعاينن أنت أو بنوك ما يحبه لنا البنون والاخوان ، ولقد حدث السادة أهل

البصيرة، أن ستدور عليكم منا الدائرة المبيرة، أتطمعون فى النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعابذين والعابدات ؟ فشمروا ان شئتم عن ساعد الجد للصلح ، واغتنموا السلم ما دام يساعدكم وقت النجح ، فان الحرب نار ، والتخلف عنها بعد ايقادها شنار ، والله يعلم أن هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم ، وما نشبهكم عند الهراش الا بما يطيش حول المصابيح من الفراش ، بل المراد الاكيد نشر رداء التبرى ليلا تجأرون متى أنشبنا فيكم مخالب التجرى ، وما قذفتم به أعراضنا من خسة القدر ، وانا قساة لانصغى لقبول العذر ، فأنتم تنهون عن الفحشاء ، وقد ملأتم منها الاحشاء ، وان زجرتم عنها قلتم : كلا وحاشا لكن من نتج نسلا نسب اليه ، ومن خاف من شيء يسلط عليه وأما ما احتوى عليه بساط الغرب ما بين بربر وغرب فقد طمعنا من الله كونه في القبضة، عند ما تمكن اليه النهضة، ان لم أكنه بالذات والديوان فبالابناء والاخوان ، كعوائد الدول ، يشيد الاخير منها ما أسسه الاول ، وانظر ما يكون لخاطركم به اطمئنان فساعدكم عليه الان ، فلله دره من دغوغى أشاع عارك بابيات أنشدناها مولاى محمد بن مبارك :

واعلم بأنك من دجاجل مغرب	فبعيسى صولـة نصره ستموت
أنتم عكاكـز خلفتكم عاهـر	وأبو يسير جدكـم جالـوت
شبانكم مرد وكـل كهولكـم	قرنـان صنعـة شيخكـم ديوث
ضجرت لدولتكم سموات العلى	واستثقلتهـا الارض والبهمـوت

وما أنت فى الحقيقة الا قرد من القرود ، والقراد اللاصق فى كل كلب مجرود ، وما صرحتم به من الصلح بين الملوك مكيدة فقد سبقكم بها السلطان أبو حمو رحمه الله وحتى الآن رغبتم فى الخير فهو مطلبى ومغناطيس طبى ، وان عشقتم الغير فجوابى لكم قول المتنبى

ولا كتب الا المشرفيـة والقنا ولا رسل الا الخميس العرمرم

١٩

استيلاء المولى محمد بن الشريف على فاس ثم رجوعه عنها

كان محمد الحاج الدلائي مستوليا على فاس بعد سيدى محمد العياشى كما قلنا ، وكان أهل فاس يمرضون فى طاعته تارة ويستقيمون أخرى ، فولى عليهم قائده أبا بكر التاملى وأنزله بدار الامارة من فاس الجديد ، فاتفق أن وقعت بينه وبين أهل فاس القديم حرب فحاصرهم وقطع عنهم الماء ، فكتب أهل فاس الى المولى محمد بن الشريف يستصرخونه ويضمنون لـــه الطاعة والنصرة بما شاء من عدد وعدة متى قدم عليهم واحتل بين أظهرهم ، ووافقهم على ذلك عرب الغرب من الخلط وغيرهم ، فاغتنمها المولى محمد منهم وأقبل مسرعا حتى اقتحم دار الامارة بفاس الجديد منسلخ جمدى الثانية سنة ستين وألف ، وقبض على أبى بكر التاملى فسجنه وبايعه أهل البلدين فاس القديم وفاس الجديد معا ، واتفقوا على نصرته والقيام بأمره ، وكتبت له البيعة بفاس سابع رجب فأقام عندهم نحو أربعين يوما

واتصل الخبر بمحمد الحاج فجهز اليه جيشا كثيفا فبرز اليهـــم المولى محمد ودافعهم يوما أو بعض يوم فضعف عنهم وانهزم بظهر الرمكة خـارج فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة تسع وخمسين وألف ، فاسلم فاسا وانكفأ راجعا الى سجلماسة ، ودخل أهل فاس الذين كانوا معه مدينتهم فأغلقوهـا عليهـــم .

وحاصرهم التاملى وأصحابه وقطع عنهم الماء وجرت خطوب هلك فيها جماعة من أعيان فاس ، منهم عبد الكريم اللايرينى الاندلسى ، ومحمد بـــن سليمان وغيرهما ، وكان ذلك أواخر صفر سنة احدى وستين وألف . ثم راجعوا طاعة أهل الدلاء فولى عليهم محمد الحاج ولده أحمد ، ولما استقر بفاس طالب أهلها باخراج الجناة ورؤوس الفتنة من ضريح المولى ادريس رضى الله عنه ، فتعصب لهم الشريف أبو الحسن على بن ادريس الجوطى وقام دونهم ثـم عجـز واختفى ، حتى اخـرج بالامان الى زاويـــة أهل المخفية

ومنها خرج عن فاس بالكلية ، وسكنت الفتنة . وكان ذلك في رمضان سنة احدى وستين والف .

واستمر احمد الدلائي أميرا على فاس الى ان توفي في عشرين من ربيع الاول سنة اربع وستين والف ، وخلفه أخوه محمد ومات سنة سبعين وألف . رحم الله الجميع ثم وثب على فاس الجديد أبو عبد الله الدريدي فاستولى عليه .

استيلاء المولى محمد الشريف على وجدة وشنه الغارات على تلمسان وأعمالها وما نشأ عن ذلك

لما أيس المولى محمد بن الشريف من فاس والمغرب صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق ، فسار يتقرى الحلل والمداشر والقرى الى أن بلغ بسيط آنكاد ، فبايعته الاحلاف وهم العمارنة والمنبات من عرب معقل ، وبايعته سقونة منهم أيضا ، فسار بهم الى بني يزناسن ، وكانوا يومئذ في ولاية الترك فأغار عليهم وانتهب أموالهم وامتلات أيد العرب من مواشيهم ، ثم انثنى الى وجدة وكان اهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك ، وبعضهم خارج عنها ، فانحاز الخارجون الى المولى محمد فأغزاهم بشيعة الترك فانتهبوهم وشردوهم عن البلد ، وصفت وجدة له فاستولى عليها ، وكان ذلك أعوام الستين وألف . ثم دلته العرب على أولاد زكري واولاد علي وبني سنوس المجاورين لهم فشن عليهم الغارات وانتهبهم فدخلوا في طاعته ، ثم سار الى ناحية ندرومة فشن الغارة على مضغرة وقديمة وطرارة وولهاصة ورجع الى وجدة فأقام بها مدة ثم توجه الى تلمسان فأغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها واكتسح بسائطها ، فبرز اليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذي كان بالقصبة فأوقع بهم وقتل منهم عددا كثيرا ،

ورجع عوده على بدئه الى وجدة فشتى بها .

ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم ، وقدم عليه هنالك محمود شيخ حميان من بنى يزيد بن زغبة ، وهم اليوم فى عداد بنى عامر بن زغبة ، فقدم عليه محمود المذكور فى قبيلته مبايعا له ومتمسكا بطاعته ، وقدمت عليه أيضا دخيسة ففرح بهم واكرمهم ودلوه على الاغواط وعين ماضى والغاسول فنهب تلك القرى واستولى على أموالها ، وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بنى مالك بن زغبة فنزلوا بجبل راشد متحصنين به ، فرجع عنهم .

واضطربت احوال المغرب الاوسط واشرأبت رعاياه الى الانتقاض على الترك ، واخذ باى معسكر يخندق على نفسه ، وبعث الى صاحب الجزائر المسمى عندهم : بالدولة يخبره بما لحق الرعايا من عيث صاحب سجلماسة فاخرج صاحب الجزائر عساكره وهيأ مدافعه واستعد لحرب المولى محمد وقدم نائبه بالعساكر الى تلمسان ، فلما سمع به المولى محمد استمر راجعا الى وجدة ، وفرق العرب الذين كانوا مجتمعين عليه ، ووعدهم لفصل الربيع القابل .

ثم قفل الى سجلماسة بعد ما شب نيران الحرب فى الايالة التركية ونسفها نسفا وضرب أولها بآخرها .

ولما وصل عسكر الترك الى تلمسان واخبروا برجوع المولى محمد الى تافيلالت سقط فى أيديهم ، ووجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد اجفلت عن أوطانها ، وتحصنوا بالجبال ، ولم يأتهم احد بمؤنة ولا خراج ، وانحرف عنهم أهل تلمسان أيضا ، وكانوا قد ركنوا الى المولى محمد وخاطبوه ، فرأى الترك أنهم قد شوركوا فى بلادهم وزوحموا فى سلطانهم ، فرجعوا الى الجزائر . وكان من امرهم ما نذكره الآن .

■

مراسلة عثمان باشا صاحب الجزائر للمولى محمد بن الشريف وما دار بينهما في ذلك

لما رجع عسكر الترك الى الجزائر وأخبروا صاحبها عثمان باشا الدولة بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة جمع أهل ديوانه وأرباب مشورته وتفاوضوا فى أمر المولى محمد وكيف التخلص من سطوته ، فلم يروا أجدى لهم من أن يبعثوا اليه برسالة مع اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها ، واثنين من كبار الترك ورؤسائها ، لانهم كانوا لا يتمكنون من حربه ، لو أرادوا ذلك ، لانه يغير ويظفر وينتهب ثم يصحر فلا يمكنهم التعلق بأذياله ، ولا قطع فراسخه وأمياله ، فبعثوا اليه برسالة من املاء الكاتب أبى الصون المحجوب الحضرى مع الوفد المشار اليه يقول فيها:

« الحمد لله الذى وصى ولا رخص فى مدافعة اللص والصائل شريفا أو مشروفا ، ونص ، وهو الصادق سبحانه ، على فصم عرى أصله المتأصل مجهولا أو معروفا ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلى آله تيجان العز وبراقع الجباه والخياشم ، وصحابته صوارم الصولة الحاسمة من الكفر الطلى والغلاصم ، بالرماح العاملة والسيوف القواصم ، ولا زائد بعد حمد الله الا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر ، الصادق اللهجة والصدر ، من رتق الله به فتوق وطنه ، وحمى به من أحزاب الاباطيل أنجاد أرضه واغوار عطنه ، حافد مولانا على وسيدتنا البتول ، وولد مولانا الشريف بن مولانا على السيد الصؤول سلام عليكم ما رصعت الجفان سموت البحور ولمت الجواهر الحسان على بياض النحور ، ورحمة الله تعالى وبركاته ما أساغت محض الحلال ذكاته، وبعد فقد كاتبناكم من مغنى غنيمة المقيم والظاعن والزائر ، رباط الجريد مدينة ثغر الجزائر ، صان الله من البر والبحر عرضها ، وأمن من زعازع

العواصف والقواصف أرضها ، الماعا لكم معادن الرياسة ، وفرسان القيافة والعيافة والفراسة ، فضلا عن سماء صحا من الغيم والقتام جود ، وضحا نشرت عليه الوديقة وشيا ففشا ضوءه ، بأن شؤون المملكة لم يتوان عن مكنون علمكم أمرها ، ولا أعوز عزائمكم زيدها وعمرها ، وذلك ان الوهاب سبحانه منحكم هيبة وهمة فى الجود والحلم والحماسة ، واختار لكم عنوان عنايتها فى غاب الصون سجلماسة ، لكن فاتكم سر رأى التدبير ، واركبتم حزمكم جموع الجهل والتبذير ، مع أن ذلك فى الحقيقة دأب كل مؤسس لدولة ، لا يجمعها الا بجنايات الجولة والصولة ، فخرقت على الايالة العثمانية جلباب صونها الجديد ، من وجدة الابلق الى حدود الجريد ، فشوشت علينا اخلاق اخلاط الاعراب ، الى أن تعوقوا علينا فى أرفق الآراب ، وشننت الغارة الشعواء على بنى يعقوب ، فحسمت رسمهم على العقيب والعرقوب ، وغادرت جماهرهم تسعى على عيالهم الزيانى والموزونه فى أسواق مستغانم وديار مازونه ، وجررت ذيل المذلة على اطراف الغاسول والاغواط ، فالتقطتهم بطانتك التقاط سباع الطير الوطواط ، وقادك الجاهل الجهم محمود حميان ، لعين ماضى والصوانع وبنى يطفيان ، فراحت رياح وسويد ينفض كل بطل منهم غبازه وطينه ، على طود راشد ، وبليد قسطينة، ولا كادنا الا ما هتكتم من ستر السر على مرس أبى الربيع السيد سليمان مع أنكم اولى من يراعى حرمته وتوقيره ، ويدافع عنه وعمن سواه ويرفد فقيره، وتنسبون العجم للجهل وأنهم جفاة وأجلاف،ثم صرتم بدلا واخلاف خرج جيش قصبتنا بتلمسان ، بما لديهم من الرماة والفرسان ، فهزمتموهم بفرار ، وقتلتموهم قتل مذلة واحتقار ، فقلنا هذا أقل جزاء كل كلب حقير، عقور . يعرض عرضه لصولة الاسد الهصور ، ولاوافت الآفة فى الغالب الا الحضر ، مع شيع فى الاجنة تجنى الجنى والخضر ، كان اولاد طلحة وهداج وخراج ، يؤدون لهذه المثابة ما ثقل وخف من الخراج ، ولا يفوتنا من ملازمها وبر ولا شعر ولا صوف ، ولا سقب ولا جدى ولا خروف ، الى ان طلعت علينا غرة شمسك السعيدة ، فعادت كل شيعة قريبة عنا بعيدة ،

وأعانك افتراق الجفاة من أهل وجدة ، وان نصيبك الاوفر منهم أهل جدة ونجدة ، ولولاك ما ثار علينا أهل تلمسان ، وانكروا ما لنا عليهم من قديم الخانة والاحسان ، وردوا عليك الساحة والبساط ، ومرغوبهم أن تزفر علينا بسطوة الثعبان والساط ، مع علمنا اليقيني ان شجرتنا لا تضعضع بزعازع حيان ، ولا تندرس ولو انهارت عليها جبال جيان وأن الحجر لا يدق بالطوب ، والخاطف لا يطأ أوطية الخطوب ، كذلك في المثل جندك خلال الصدر والورود ، لا يصبرون لصواعق البارود ، ولا تنجح حجة الدروع والذوابل ، الا في سوق شن الغارات على حلل القبائل ، وأما أسوار الجحافل وأدوار الكتائب ، فلا يصدمها فيهدمها الا سيول الخيول والرماة الرواتب ، وزنت صولتك لبنى عامر ، لذاذة النفار لكنف الكافر ، وداخل الوسواس والسوس ، جبال طرارة ومضغرة وبنى سنوس ، والرعايا تود أن يحتفل لبنها في ضروعها ، لتختزن في تبن الخداع سنبل زروعها ، وان قبلت منهم الاقوال والافعال ، تعل طباعها على الدولة فتصير كالاغوال ، واياك اياك والغرر لما عثرت عليه في كتاب البوني واوراق السيوطي وعلى بادي وابن الحاج ، ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بن ابى سعيد المرينى بأنك المخصوص بصعود تلك الادراج ، ذلك منك بعيد الوصول لا تدركه بالمسمرة ولا بقبائع النصول ، وان اوتاد الروم والترك تتقوض من ارض الغرب ، ولا يبقى من ينازعكم فيها بحرب ولا ضرب ، ليس لك في غنيمة ادراكه طمع ، ولا سبيل لتبديد ما نظمه حازمنا وجمع ، وقد غرتك أضغاث الاحلام ، واغواك ضباب الغيب فأصبح ظنك منه في غياهب الاظلام ، فان حرمت به فانت لا شك حانث ، وان كان منكم يقينا فرابع او ثالث ، اولكم ثائر ، والثاني مقتف له سائر ، والثالث لكما أمير نائر ، اما عادل أو جائر ، ولا تمدن باع المخاطرة الى اوطاننا فتخشى مخالب سطوة سلطاننا ، اما الشجاعة الغريزة فقد علمنا أن لك منها بالمهيمن أوفر نصيب ، وممن ضرب فيها فأصاب الغرض بسهم مصيب ، لكن غاية كفاية الشجاع اذا حمى الوطيس الدفاع ، سيما فى هذا الحين التى ابخستها عند الخلاص ، صناعة البارود والرصاص ،

وجسرك علينا كونك عقابا على فرع شجر ، او يعسوب نحل احتل صـدع حجر ، لو رأيت ملوك آحاد امصار البر والبحر ، لعلمت انـك محجـوب ومحجور ، فى حق ذلك الحجر ، وتحققت ان بين الامراء مداراة ومراعاة ، وأن أحوال الدول أيام وساعات ، كل أحد يخاف على صدع فخـاره ، ويطلق بخوره تحت نتن بخـاره ، وما مرادنا الا أمان العـرب فى المواضع ، ليطيب لها جولان الانتقال فى المشتاة والمرابـع ، ويجلب اليهـم الغنى والعديم ، ما يحصل له فيه ربح من الكساء والحناء والاديـم ، فان تعلقت همتك بالامارة فعليك بالمدن التى حجرها عليك همج البرابر فصار يدعى لها بها على المنابر ، فشد لها حيازيمـك لتذوق حلاوة الملـك ، المعجونـة بمرهم النجاة أو الهلك ، دع عنك وطن الرمـال والعجاج ، ومخاطـرة النفس فى الفدافد والفجاج ، فناشدنـاك جدك من الاب والام ، ومالـك فيه من أخ وخال وعم ، الا ما تجنبت ساحـات تلمسان ، ولا زاحمتهـا بجموع رماة ولا فرسان ، وان اشتهت الاعراب غارات بعضها على بعض ، فموعدها ما نأى عنا من مطلق الارض ، وخمسنا أبدا على الغالب ، لتعلموا أن رأيهم عن معانى الصواب غائب ، اذ كلهم ذوو جفاء ونفار ، ويعمهـم عند الدول ما يعم الكفار ، ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام ، ونلغى كلام الوشاة من الاقوام ، وقد شيعنا نحوكـم أربعـة صحاب ، تسر بمجالستهم الخواطر والرحاب ، الفقيه الوجيه السيد عبد الله النفزى ، والفقيه الابر السيد الحاج محمد بن على الحضرى المزغنائى ، واثنين مـن أركان ديواننا ، وقواعد ايواننا ، أتراك سيوط وغايـة غرضنـا جميـل الجواب ، بما هوأصفى وأصدق خطاب ، والله تعالى يوفقنا لاحمد طريق ، ويحشرنا مع جدك فى خير فريق ، آمـين والسلام ، وكتب فى منتصف رجب الفرد الحرام عام أربعة وستين وألف » اه

ولما وصلت الرسل الى المولى محمد وقرأ الكتاب اغتـاظ مما تضمنه من العتاب ، فأحضر الرسل وعاتبهـم عـلى قـول مرسلهـم وتحامله عليه فقالوا له : «نحن أتيناك سفراء برسالـة باشا الجزائر فاكتب لنـا الجواب ،

ولا تقابلنا بعتاب » فقال : «صدقتم» فكتب اليهم بكتاب يقول فى أوله (وبعد) « فقد كتبناه اليكم من غرة جبين الصحارى ، وصرة أمصار المغارب والبرارى ، مغنى سجلماسة التى هى قاعدة العرب والبربر المسماة فى القديم كنز البركة ، حالتي السكون والحركة» «ومضى في كتابه الى أن ختمه ولم يجبهم الى ما أرادوا .

ولما رجعوا برسالته الى صاحب الجزائر قرأها بمحضر أرباب الديوان ثم ردهم فى الحين دو نكتاب ، ولما قدموا على المولى محمد ثانية قالوا له : انه لم يكن لنا علم بما فى الكتاب ولو اكتفينا به ما رجعنا اليك ، نحن جئناك لتعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك ، فما كان جدك يحارب المسلمين، ولا يأمر بنهب المستضعفين ، فان كان غرضك فى الجهاد ، فرابط على الكفار الذين هم معك فى وسط البلاد ، وان كان غرضك فى الاستيلاء على دولة آل عثمان ، فابرز اليها واستعن بالرحيم الرحمن ، فلا يكن عليك فى ذلك ملام، فهذا ما جئنا له والسلام، وأما ايقاد نار الفتنة بين العباد، فليس من شيم أهل البيت الامجاد ، ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز فى مذهب من مذاهب المسلمين ولا قانون من قوانين الاعجام ، وهذان فقيهان من علماء الجزائر قد جاءا اليك، حتى يسمعا منك ما تقوله ، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله ، فقد تعطلت تجارتنا ، وأجفلت عن وطننا رعيتنا ، فما جوابك عند الله فى هذا الذى تفعله فى بلادنا ، وأنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يعجزنا أن نفعله نحن فى بلادكم ورعيتكم ، على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم ، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا .»

فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظهم وداخلته القشعريرة وعلاه سلطان الحق فأذعن له وقال : « والله ما أوقعنا فى هذا المحذور الا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا فى معصية الله وأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة الا بالله ، وانى أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء ، وأنى أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضى الله ورسوله » وكتب لهم

بذلك عهدا الى صاحب الجزائر وقنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة وأعمالهما ، ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه اليه بعد ذلك الى أن خرج عليه أخوه المولى الرشيد فكان من أمره معه ما نذكر بعد ان شاء الله .

ثورة المقدم ابى العباس الخضر غيلان الجرفطي ببلاد الهبط

كان أبو العباس الخضر غيلان الجرفطى من أصحاب أبى عبد الله العياشى ، وكان مقدما على الغزاة ببلاد الهبط ، ولما قتل العياشى فى التاريخ المتقدم استقل هو برياسة تلك الجهة ، واستمرت حاله الى ثلاث وستين وألف فثار بالفحص وزحف الى قصر كتامة فبرز اليه أهله فاقتتلوا مليا ثم انهزموا ، واتبعهم الخضر فاقتحم القصر عنوة وقتل جماعة وافرة من أعيانه وفر الكثير منهم الى فاس ، منهم : أولاد الفقيه أبى عبد الله القنطرى من أعيان القصر ، وبقى الخضر متغلبا على تلك الناحية .

وفى ذى الحجة سنة تسع وستين وألف خرج من فاس المرابط الرئيس أبو سلهام بن كدار ، واتصل بالخضر غيلان وصار فى جملته ، وكان أبو سلهام المذكور ممن ظاهر الدلائيين على سيدى محمد العياشى فبقى ذلك فى قلب الخضر غيلان حتى قبض على أبى سلهام المذكور واعتقله بآصيلا ثم سرحه بعد حين . قاله فى « نشر المثانى » .

وفاة المولى الشريف بن علي رحمه الله

كان المولى الشريف بن علي بسجلماسة وأعمالها على ما وصفناه قبل من الوجاهة والرئاسة والسيادة ، ممتثل الامر ، متبوع العقب منذ نشأ ، ثم بايعه أهل سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف ، ونازعه بنو الزبير أصحاب تابوعصامت ، وبذلك استصرخ عليهم أبا حسون السملالي حتى ملك سجلماسة كما مر ، ولما تخلص من نكبة السوس وعاد الى سجلماسة وجد ابنه المولى محمدا قد قام بالامر بعده فتخلى له عنه ، وقطع بقية عمره فيما يرضى الله تعالى الى أن أتاه اليقين ثالث عشر رمضان سنة تسع وستين وألف بسجلماسة مسقط رأسه ومقر عزه ومنبت أشباله ، ومدرج ملوكه واقياله ، وجددت البيعة للمولى محمد ، ففارقه أخوه المولى الرشيد فخرج الى الجبال فبقى متنقلا فى أحيائها الى أن كان من أمره ما نذكره .

اغارة المولى محمد بن الشريف على عرب الحياينة من اعمال فاس وما يتبع ذلك

لما كان آخر سنة ثلاث وسبعين وألف أغار المولى محمد بن الشريف على زرع الحياينة بأحواز فاس فانتسفه وأفسده ، ووقعت عقب ذلك مجاعة عظيمة أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي ، وخلت الدور وعطلت المساجد ، وخرج أهل فاس يستغيثون بأهل الدلاء ، وكان الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني قد قدم فاسا بقصد أن يبايعه أهلها فلم يجيبوه ، وقيل : بل نصره بعضهم ، وخرج الى عرب الحياينة فذهب بهم الى قتال المولى محمد بن الشريف فلم يلقه .

وفى أوائل سنة أربع وسبعين وألف حاز طاغية النجليز طنجة من يد البرتقال قال فى «البستان» : لضعفهم عن مقاومة المسلمين يومئذ بسبب أن المسلمين غزوهم فى هذه الايام فقتلوا منهم ستمائة مقاتل ثم غزوهم فقتلوا منهم أربعمائة أخرى . » وقال منويل القشتيلى فى كتابه الموضوع فى أخبار المغرب الاقصى : « سبب ذلك أن طاغية البرتقال وهو اخوان السادس يقال بالخاء والجيم أراد تأكيد المحبة بينه وبين طاغية النجليز وهو كارلوس الثانى فزوجه أخته وجهزها اليه بمفاتيح طنجة فبقيت بيده اثنين وعشرين سنة ثم تخلى عنها للمسلمين » اه

قيام المولى الرشيد بن الشريف على أخيه المولى محمد ومقتل الاخ المذكور رحمه الله

قد قدمنا ما كان من فرار المولى الرشيد عن أخيه المولى محمد يوم وفاة أبيهما رحمه الله فذهب المولى الرشيد يومئذ الى تدغة فأقام بها مدة ، ثم سار الى دمنات فأقام بها مدة أيضا ، ثم أتى زاوية أهل الدلاء فأقام عندهم ماشاء الله ، فيقال : ان بعض أهل الزاوية أشار عليه بالخروج منها خوفا عليه من الفتك به ، لان الدلائيين كانوا يزعمون ، فيما عندهم من العلم ، أن خلاء زاويتهم يكون على يده ، فقبل المولى الرشيد اشارته ، ثم خرج الى جبل آصرو فأقام به برهة من الدهر، ثم توجه الى فاس ، ومعه نفر قليل ، فبات بظاهر فاس الجديد ، فاكرم رئيسها أبو عبد الله الدريدى ضيافته ، ومن الغد ارتحل عنها الى تازا ثم الى عرب الاحلاف .

قال فى « النزهة » : « الى أن أدته خاتمة المطاف الى قصبة اليهودى ابن مشعل . وكان لهذا اليهودى أموال طائلة وذخائر نفيسة ، وله على المسلمين صولة واستهانة بالدين وأهله ، فلم يزل المولى الرشيد يفكر فى

كيفية اغتيال اليهودى المذكور الى أن أمكنه الله منه فى خبر طويل . فقتله واستولى على أمواله وذخائره وفرقها فيمن تبعه وانضاف اليه من عرب آنكاد وغيرهم فقوى عضده وكثر جمعه » . اه

وقال صاحب « نشر المثانى » : ان المولى الرشيد لما رحل عن فاس قدم على الشيخ أبى عبد الله اللواتى باحواز تازا ، وكان الشيخ المذكور ينتحل طريقة الفقر ويعظم أهل البيت فبالغ فى اكرامه ، فبينما هو مقيم عنده اذ رأى ذات يوم رجلا ذا هيئة من مماليك وأتباع وخيل ، وهو يصطاد كهيئة الملوك، فسأل عنه فقيل له : هذا ابن مشعل من يهود تازا . فانصرف المولى الرشيد وجعل مدية فى فمه وجاء الى الشيخ اللواتى ، فلما رآه الشيخ على تلك الحال أعظم ذلك ، وقال له : «المال والرقبة لك ياسيدى فما الذى دهاك ؟» قال : «تأمر جماعة من عشيرتك يسيرون معى حتى أفتك بهذا اليهودى غيرة على الدين» فقال : « قد فعلت ، لا يتخلف عنك منهم أحد» فاختار المولى الرشيد منهم جماعة وواعدهم على تبييت اليهودى واقتحام داره عليه ، وكان اليهودى قد اتخذ دارا بالبيداء على نحو مرحلة من تازا فى جهة الشرق ، فلما كانت ليلة الموعد تقدم المولى الرشيد الى دار ابن مشعل فى صورة ضيف ، فأضافه ابن مشعل ، ولما انتصف الليل أحاط أصحابه بالدار وكبس المولى الرشيد اليهودى فى بعض خلواته فقتله ، وأدخل الرجال فاستولى على دار ابن مشعل بعد الفتك باصحابه وحراسه ، وعثر فيها على أموال كثيرة وذخائر نفيسة ، وقيل ، وهو الشائع عند بنى يزناسن : أن ابن مشعل المذكور كان مقيما بين أظهرهم قد اتخذ حصنا ببعض جبالهم ، وهم محدقون به، فجاءهم المولى الرشيد ولم يزل يلاطفهم فى شأن اليهودى حتى أثر كلامه فيهم ، ونما الى اليهودى بعض ذلك ، وأنهم مسلموه ، فنزل الى المولى الرشيد بهدية نفيسة يسترضيه بها ، فلم يكن باسرع من ان قبض عليه وقتله ، وتقدم الى الدار فاستولى عليها ، واستخرج ما فيها من الأموال فالله أعلم أى ذلك كان .

ثم ان المولى الرشيد دعا لنفسه اعراب الشرق وجمع كلمتهم ونزل

وجدة واتصل ذلك كله باخيه المولى محمد صاحب سجلماسة فتخوف منـــه لما يعلم من صرامته وشهامته ، فنهض لقتاله والقبض عليه ، فلما التقى الجمعان ببسيط آنكاد كانت اول رصاصة في نحر المولى محمد ، فكان فيها حتفـــه . وذلك يوم الجمعة التاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف ، ودفـــن بدار ابن مشعل ، فأسف المولى الرشيد لقتله وأظهر الحزن عليـــه ، وتولى تجهيزه بنفسه فحمله الى بني يزناسن ووراه هنالك في رمسه رحمه الله وغفر لـــه .

وكان المولى محمد شجاعا مقداما لا يبالي بالعظائم ولا يخطر بباله خوف الرجال ، ولا يدري ما هي النكبات والاوجال ، وتقدم وصف أهـل الدلاء له بقولهم : «الاجدل الذي لا تؤده هموم الليالي ولا حرارة قيظ الصيـــف عقاب أشهب على قنة كل عقبة ، لا يقنعه المال دون حسم الرقبة» وشجاعته شهيرة . وكان مع ذلك قويا في بدنه أيدا في أعضائه وجسمه لا يقـاوم في الصراع ولا يزاول في الدفاع .

حكي أنه في بعض أيام حصاره لتابوعصامت جعل يده فـي بعض ثقب الحصن وصعد عليها ما لا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة ولبنـــة مضروبة ، وكان سخيا جدا حتى أنه أعطى الاديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيدا التلمساني صاحب القصيدة العقيقيـة وغيرها نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة له عــلى بعض امداحه فيه ، وحكاياته في هذا المعنى شهيرة .

ولما قتل رحمه الله قام بسجلماسة ولده المولى محمد الصغير مقامـــه لكن لم يتم له أمر وسياتي بعض خبره ان شاء الله .



الخبر عن دولة امير المؤمنين المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله

لما قتل المولى محمد بن الشريف رحمه الله في التاريخ المتقدم وانحشرت جموعه كلها الى اخيه المولى الرشيد ، فبايعوه البيعة العامة ، ودخل في طاعته الاحلاف وبنو يزناسن وغيرهم ، وبعث الى أهل تلك النواحي كلها من العرب والبربر يدعوهم الى الطاعة واجتماع الكلمة ، فقدمت عليه وفودهم بالهدايا ، وكتب من كان مع اخيه في ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وعظم أمره وعلا كعبه ، ثم احتاج الى المال ، وكان قد اخذ ولد اليهودي ابن مشعل يوم قتل أباه ، فجاءت امه تطلب فداءه فتفرس فيها وماطلها به ، ثم قال : « لا اسرحه حتى تدليني على مال زوجك أو أقتله » فانعمت له بذلك ، وركب معها الى القصبة فدلته على خزانة في بيت فنقب عنها فلقي فيها خوابي مملوءة ذهبا وفضة فاستخرجها ، وارتاش بتلك الاموال ، وفرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الاجناد ، فحسنت حاله وحالهم وعد ذلك من سعادته ، ولما قضى اربه ورتب جنده بعث رسله الى الآفاق بالاعذار والانذار والوعد والوعيد لاهل الطاعة والعصيان ثم سار على أثرهم قاصدا فتح المغرب الذي كان قد تعذر على اخيه من قبله فنزل على وادي ملوية واقام به أياما للاستراحة وانتظار من يأتيه من اهل تلك النواحي مثل جاوت والريف وغيرهما فلم يأته أحد ، والله غالب على امره .

فتح مدينة تازا ثم سجلماسة وما تخلل ذلك

لما أقام المولى الرشيد رحمه الله على ملوية ولم يأته من أهل المغرب أحد تقدم الى تازا فاقتحمها بعد محاربة طويلة وبايعه أهلها والقبائل التى حولها ، ولما اتصل خبر ذلك باهل فاس اجتمعوا مع جيرانهم من عرب الحياينة والبهاليل واهل صفرو وغيرهم ، وتحالفوا على حرب المولى الرشيد وعدم بيعته بحال ظنا منهم أنه يفعل بهم ما فعله أخوه المولى محمد بالحياينة من النهب والقتل ، وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والاكثار منها ، ووظفوا على كل دار مكحلة ، ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب ، فاشتروا من ذلك فوق الكفاية وخرجوا الى باب الفتوح لعرض الخيل والسلاح ، وعملوا اللعب المسمى بالميز ، واجتمعوا ايضا مع الحياينة ، واكدوا الحلف على حرب المولى الرشيد ، ولما بلغه خبرهم وما هم عليه أعرض عنهم وعدل الى سجلماسة . وكان ذلك منه صوابا فى الرأى اذ قدم الاسهل فالاسهل . وتناول الاخف فالاخف .

ولما أناخ على سجلماسة حاصرها نحو تسعة أشهر الى أن فر عنها ابن أخيه المولى محمد الصغير المنتزى بعد ابيه كما مر ، فخرج منها ليلا ودخلها المولى الرشيد واستولى عليها وسد فرجها ورتب حاميتها ومهد أطرافها ورجع الى تازا فاحتل بها ، ولكل اجل كتاب .



حصار مدينة فاس ثم فتحها و الايقاع بثوارها

لما قفل المولى الرشيد رحمه الله من سجلماسة الى تازا أقام بها أياما فاتفق أهل فاس مع احلافهم من الحياينة أن يغيروا عليه بمستقره منها ، ويبدأوه بالحرب قبل ان يبدأهم ليكون ذلك كاسرا من شوكته ، وفاتا في عضده ، فتأهبوا للحرب وخرجوا في شوال سنة خمس وسبعين والف ، ولما قابلوا محلته افترقت كلمتهم ورجعوا منهزمين من غير قتال ، فتبعهم المولى الرشيد الى قنطرة نهر سبو خارج فاس ، ثم رجع عنهم فبعثوا اليه في الصلح ، فلم يتم بينه وبينهم صلح الى أن ملك أطراف المغرب كله ، وكان ذلك من حسن تدبيره وترتيبه الامور .

ثم دخلت سنة ست وسبعين والف ففي صفر منها زحف الى فاس وحاصرها وقاتلها ثلاثة أيام فأصابته رصاصة في طرف أذنه ورجع سالما ثم عاد الى حصارها مرة اخرى في ربيع الاول من السنة المذكورة فقتل ونهب ورجع الى تازا لانه لم يأت بقصد فتحها ، ثم توجه الى الريف بقصد الرئيس أبي محمد عبد الله آعراس الثائر به، فكانت بينهما وقعات، وحاصره في بعض حصونه الى ان قبض عليه في رمضان من السنة فعفا عنه واستبقاه وكر راجعا الى فاس فنزل عليها في أواخر ذي القعدة من السنة وقاتلها قتالا شديدا الى ثالث ذي الحجة فاقتحم فاسا الجديد من أعلى السور من ناحية الملاح ، وفر اميرها يومئذ أبو عبد الله الدريدي ، وهذا الدريدي كان في جملة من اخوانه بني دريد بن اثبج الهلاليين ، وكانوا في ديوان السعديين ، ولما بايع اهل فاس الرئيس أبا عبد الله محمد الحاج الدلائي كان الدريدي هذا في عسكره ، فلما فشلت ريح أهل الدلاء بالمغرب نزع عنهم واستبد بفاس الجديد ، وحالف أهل فاس القديم على حرب الدلائيين ثالث جمادى الثانية سنة أربع وسبعين والف ، وقد كان احمد بن صالح الليريني رئيس أهل عدوة الاندلس قد خطب ابنة الدريدي لولده صالح

ابن احمد فزوجه اياها ، والتحم ما بينهما فكان الدريدى يشن الغارات على قبائل البربر الذين باحواز مكناسة وغيرها . ويأتى بالنهب ، والطبل يقرع عليه الى ان يدخل دار الامارة ، واستمر على ذلك الى ان اقتحم عليه المولى الرشيد فاسا كما قلنا ففر الى منجاته . وقال فى « النزهة » بل قتله المولى الرشيد وسكن هيعة فاس الجديد ، ومن الغد زحف الى فاس القديمة فحاصرها وقاتلها فضعفوا عن مقاومته ، وفر رئيس اللمطيين ابن الصغير وولده ليلا الى بستيون باب الجيسة ، ولما طلع الفجر فر ايضا رئيس عدوة الاندلس أحمد بن صالح فرأى أهل فاس ان امرهم قد ضعف وكلمتهم قد افترقت ، فخرجوا الى المولى الرشيد وبايعوه واجتمعت كلمتهم عليه ، فبعث فى طلب ابن صالح فوجد بحوز المدينة فجيء به وسجن بباب دار ابن شقراء بفاس الجديد ، ثم قتل وقتل معه عدة من اصحابه ، ثم قبض على ابن الصغير وولده ، وبعد سبعة ايام امر السلطان بقتلهما فقتلا ، واستقام أمر فاس وصلحت أحوالها . قال فى « النزهة » : افتتح أمير المومنين المولى الرشيد فاسا القديمة فحكم السيف فى رؤسائها وافناهم قتلا فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة ، وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذى الحجة سنة ست وسبعين والف ، وبويع بها يومه ذلك ، ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة ، واظهر احياء السنة ونصر الشريعة ، فحل من قلوبهم بالمكان الارفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة »، اه .

وولى قضاء فاس السيد حمدون المزوار ثم خرج الى بلاد الغرب فقصد الخضر غيلان الثائر ببلاد الهبط ، وكان بقصر كتامة ، فزحف اليه المولى الرشيد فانهزم الخضر الى آصيلا ، ورجع المولى الرشيد عنه الى فاس أوائل ربيع الاول سنة سبع وسبعين والف ، فكتبت له البيعة بفاس وقرئت بين يديه قبل زوال يوم السبت الثامن عشر من ربيع الاول المذكور ، ثم فى شهر ربيع الثانى من السنة غزا المولى الرشيد أحواز مكناسة وقصد آيت واللال من البربر شيعة محمد الحاج الدلائى فأوقع بهم ، ورجع عوده على

بدئه ، وبعد رجوعه نزل محمد الحاج بجموع البربر قرب وادى فاس بابى مزورة من احواز فاس فقاتله المولى الرشيد ثلاثا ، ورجع كل الى وطنه ، ثم خرج المولى الرشيد الى تازا واعمالها حادى عشر رجب ففقدها ورجع الى فاس في شوال من السنة المذكورة ، ثم عزل العقيد قائد مكناسة، ثم خرج ثانى يوم النحر من السنة الى بنى زروال فاوقع بالشريف النابغ فيهم . وبعث به محبوسا الى فاس فدخلها ثانى محرم سنة ثمان وسبعين وألف ، ثم مال المولى الرشيد الى تطاوين فقبض على رئيسها أبى العباس النقسيس في جماعة من حزبه وقدم بهم الى فاس فسجنهم بها أوائل ربيع الاول سنة ثمان وسبعين والف الى ان كان من امرهم ما نذكره .

فتح زاوية الدلائى و تغريب اهلها الى فاس و تلمسان وما يتبع ذلك

لما كانت ضحوة يوم الخميس الثانى عشر من ذى القعدة سنة ثمان وسبعين والف خرج أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله غازيا زاوية أهل الدلاء ، وكان قد اسند الفتوى الى الفقيه أبى عبد الله محمد بن احمد الفاسى ، فلقى جموع الدلائيين وعليهما ولد محمد الحاج ببطن الرمان من فازاز ، فانتشبت الحرب بين الفريقين مليا ثم انهزم الدلائيون ورجعوا يقفون أثرهم الى الزاوية . قال الشيخ اليوسى رحمه الله فى محاضراته : «كان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائى قد ملك الغرب بسنين عديدة واتسع هو واولاده واخوته وبنو عمه فى الدنيا ، فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقى جموعهم ببطن الرمان ففضها دخلنا على الرئيس أبى عبد الله المذكور ، وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ ، فدخل عليه أولاده واخوته واظهروا له عجزا شديدا وضيقا عظيما فلما رأى منهم ذلك قال لهم : «ما هذا ؟ ان قال لكم حسبكم فحسبكم» يريد الله تعالى . قال اليوسى : «وهذا كلام عجيب واليه يساق الحديث

والمعنى : ان قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين» اه
وكان استيلاء المولى الرشيد على الزاوية فى ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وألف ولما خرج اليه أهلها عفا عنهم ولم يرق منهم دما ولا كشف لهم سترا حلما وكرما منه رحمه الله . قال فى «النزهة» : لما وقعت الهزيمة على أهل الدلاء دخل المولى الرشيد الزاوية ، وامر بمحمد الحاج واولاده وأقاربه أن يحملوا الى فاس ويسكنوا بها فحملوا اليها واستوطنوها مدة ، ثم أمر ان يذهب بهم الى تلمسان فغربوا اليها وسكنوها مدة

وحدثوا أن محمدا الحاج رحمه الله لما دخل تلمسان قال : « كنت وجدت فى بعض كتب الحدثان أنى ادخل تلمسان فظننت أنى أدخلها دخول الملوك فدخلتها كما ترون» ولم يزل بها الى ان توفى فاتح سنة اثنين وثمانين والف ودفن عند ضريح الامام السنوسى رضى الله عنه ولما توفى المولى الرشيد رجع اولاده وأقاربه الى فاس فاستوطنوها باذن من السلطان المظفر المولى اسماعيل ، ولما دخل المولى الرشيد الزاوية غير محاسنها وفرق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيدا كأن لم تغن بالامس ، بعد ان كانت مشرقة اشراق الشمس ، فمحت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بأبى بكر وبنيه وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وتأرجت ، ارتحل عنها فرسان الاقلام ، الذين ينجاب بوجوههم الظلام ، وبانت عنها ربات الخدور ، واقامت بها اثافى القدور ، ولقد كان اهلها يعفون آثار الرياح فعفت آثارهم ، وذهبت الليالى باشخاصهم وأبقت اخبارهم ، فثل ذلك العرش ، وعدا الدهر حين أمن من الارش ، ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام ، فسحقا لدنيا ما رعت لهم حقوقا ، ولا أبقت لهم شروقا ، وهى الايام لا تقى من تجنيها ، ولا تبقى على مواليها ومدانيها ، اذهبت آثار جلق ، وأخمدت نار المحلق ، وذللت عزة ابن شداد ، وهدت القصر ذى الشرفات من سنداد ، وكل يلقى معجله ومؤجله ، ويبلغ الكتاب يوما أجله ، ولقد أحسن ربى نعمتهم ، المقر باحسانهم ومنتهم شيخ مشايخ المغرب على الاطلاق ، الامام الذى وقع على علمه وعمله الاتفاق ، أبو على

الحسن بن مسعود اليوسي رحمه الله في رائيته التي رثى بها الزاوية المذكورة وبكى أيامها يقول في مطلعها :

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرا

وهي طويلة شهيرة . قلت : ولم يصرح فيها بأسمائهم مراعاة لجانب السلطان وذلك هو الواجب والمناسب فرحم الله الشيخ اليوسي ما كان أعرفه بمقتضيات الاحوال .

فتح مراكش ومقتل الامير أبي بكر الشباني وشيعته

لما فرغ المولى الرشيد رحمه الله من امر الزاوية توجه الى مراكش في الثاني والعشرين من صفر من السنة أعني سنة تسع وسبعين والف فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشباني وجماعة من أهل بيته .

وقال في «النزهة» : لما بلغ أبا بكر الشباني وقومه مسير المولى الرشيد اليهم خرجوا فارين بانفسهم من مراكش الى شواهق الجبال لما خامر قلوبهم من رعبه ، فدخل المولى الرشيد مراكش وأفنى من وجد بها من الشبانات ، وقبض على أبي بكر وبني عمه ، فعرضهم على السيف واستنزل تلك الفئة الشريدة من الصياصي ، واخذ منهم بالاقدام والنواصي ، واخرج عبد الكريم من قبره فاحرقه بالنار .

ولما فتح مراكش قام بها نحو شهر ثم رجع الى فاس ، فدخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة ، وفي هذه السنة خرج المولى محمد الصغير من تافيلالت في شيعته وخلى سبيل البلد ، وفيها أيضا ركب الخضر غيلان البحر الى الجزائر وخلى سبيل آصيلا ، ولما رجع المولى الرشيد الى فاس عزل أبا عبد الله الفاسي عن الفتوى ، وعزل الفقيه المزوار عن قضائها منسلخ جمادى الثانية من السنة ، وولى القضاء الفقيه أبا عبد الله

محمد بن الحسن المجاصى ، والخطابة بجامع القرويين الفقيه أبـا عبـد الله محمدا البوعنانى ، وفى منتصف رجب من السنة المذكورة غزا المولى الرشيد بلاد الشاوية ورجع الى فاس فى سابع رمضان العام ، فعفا عن بعض أهـل الدلاء ، وبقى الآخرون بضريح الشيخ ابى الحسن على بن حرزهم الى تمام السنة ، فعفا عن الجميع وردهم الى بلادهم الا ما كان من محمد الحاج وبنيه، فانهم غربوا الى تلمسان ، ومات هو هنالك ، ولما ولى الامـر المولى اسمعيل وقعت الشفاعة فى الاولاد فرجعوا الى فاس كما مر .

وفى يوم السبت سابع عشر ذى الحجة من السنة غزا المـولى الرشيد آيت عياش من برابر صنهاجة ، وفيها أمر بضرب السكة الرشيدية وأقرض تجار فاس وغيرها اثنين وخمسين الف مثقال بقصد التجارة الى أن ردوهـا بعد سنـة .

وفى هذه السنة ايضا حاز طاغية الاصبنيول مدينة سبتة من يد البرتغال فى سبيل مشارطة وقعت بينهم فى مدينة اشبونة واستمرت فى يد الاصبنيول الى الآن .

بناء قنطرة وادى سبو خارج فاس

وفى يوم السبت الرابع عشر من ذى القعدة سنة تسع وسبعين والـف أمر المولى الرشيد ببناء قنطرة نهر سبو الاقواس الاربعة خارج فاس فأخذوا فى تهيئة الاسباب وحفر الاساس ، وفى منتصف جمادى الثانيـة سنـة ثمانين وألف شرعوا فى البناء بالآجر والجير فكملت على احسن حال .

ولما تكلم الشيخ اليوسى فى المحاضرات على الحديث الصحيـح : ان أخنع الاسماء عند الله رجل تسمى بملك الاملاك قال ما نصه : ومن البشيع الواقع فى زماننا فى الاوصاف ، أنه لما بنى السلطان المـولى الرشيد بـن الشريف جسر نهر سبو صنع بعضهم يعنى : القاضى أبا عبد الله المجاصـى

أبياتا كتبت فيه برسم الاعلام أولها :

صاغ الخليفة ذا المجاز ملك الحقيقة لا المجاز

قال فحمله اقتناص هذه السجعة والتغالي في المدح والاهتبال بالاسترضاء على أن جعل ممدوحه ملكا حقيقيا لا مجازيا ، وانما ذلك هو الله وحده ، وكل ملك دونه مجاز الممدوح وغيره » اه

وفي هذه السنة وذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب خرج المولى الرشيد غازيا الابيض فقبض على اولاد اخي الابيض ، ولما وصل الى تازا أمر بقتلهم فقتلوا ، ثم مرض مرضا شديدا أشرف منه على الموت ، فأمر بتسريح المساجين واخراج الصدقات فعافاه الله .

وفي منتصف ذي القعدة من السنة أمر بأعمال وليمة العرس لاخيه المولى اسمعيل بدار ابن شقراء من حضرة فاس الجديد . قال اليفرني : «احتفل المولى الرشيد في ذلك العرس بما لم يعهد مثله» اه وكانت العروس من بنات الملوك السعديين . وفي شوال من السنة جدد قنطرة الرصيف بفاس والله أعلم .

فتح تارودانت وايليغ وسائر السوس

قد قدمنا ان أبا حسون السملالي كان مستوليا على بلاد السوس فاستمر حاله على ذلك الى ان توفي سنة سبعين والف ، وكان رحمه الله لين الجانب محمود السيرة موصوفا بالعفة متوقفا في الدماء ، ولما هلك خلفه ولده أبو عبد الله محمد بن ابي حسون ، فلما كانت سنة احدى وثمانين والف غزا المولى الرشيد رحمه الله بلاد السوس فاستولى على تارودانت رابع صفر من السنة ، واوقع بهنتوكة، فقتل منهم أكثر من الف وخمسمائة واوقع باهل الساحل فقتل منهم اكثر من أربعة آلاف ، واوقع بأهل قلعة ايليغ دار ملك أبي حسون ، فاستولى عليها في مهل ربيع الاول من السنة ،

وقتل منهم بسفح الجبل أكثر من الفين وصفا امر السوس للمولى الرشيد .

وفي هذه السنة أيضا في سابع ربيع الاول منها قتل المولى اسمعيل ، وكان نائبا عن اخيه بفاس ، ستين رجلا من أولاد جامع ، وكانوا يقطعون الطريق فقتلهم وصلبهم على سور البرج الجديد . وفيها في جمادى الاخيرة منها أمر المولى الرشيد بضرب فلوس النحاس المستديرة ، وكانت قبل مربعة وهي الاشقوبية وجعل أربعة وعشرين في الموزونة وكانت قبل ثمانية وأربعين ورجع الى فاس في ثالث رجب من السنة . وفي أول شعبان منها شرع في بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز من فاس وكان قد أمر ببناء مدرسة عظيمة بازاء مسجد الشيخ أبي عبد الله محمد بن صالح من حضرة مراكش والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

تاليف جيش شراقة واوليتهم وشرح لقبهم

قد قدمنا في أخبار السعديين : أن لفظ شراقة في الاصل لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف اليهم ، وسموا بذلك لانهم في جهة الشرق عن المغرب الاقصى ، فأهل تلمسان مثلا يسمون أهل المغرب الاقصى مغاربة ، وأهل المغرب الاقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة ، الا أن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة بتخفيف الراء والقاف المعقودة ، وقد كان للسعديين جند من هؤلاء العرب كما مر .

ولما جاء الله بدولة أمير المومنين المولى الرشيد رحمه الله واجتمع عليه من عرب آنكاد وغيرهم ما قدمنا ذكره نزع اليه من أهل تلك البلاد عدة قبائل بعضها من العرب وبعضها من البربر أنفا من ولاية الترك فقبلهم . فمن العرب أشجع وبنو عامر ، ومن البربر مديونة وهوارة وبنو سنوس ، فأمر رحمه الله ببناء القصبة الجديدة بفاس بديار لمتون وعرصة ابن صالح وبذل لاصحابه وقواده ألف مثقال لبناء سورها وأمرهم ببناء الدور فيها

وأعطى شراقة هؤلاء ألف دينار لبناء قصبة الخميس ، بعد أن كان أنزلهم أولا بأحواز فاس ، فحصل لمنهم الضرر لاهل المدينة وشكوهم ، فأمرهم بالانتقال بحلتهم الى بلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الارض وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم على حدة ، ثم أعطاهم ألف دينار لبناء سور القصبة كما قلنا ، وجعلهم قبيلة واحدة فلم تتميز الآن عربهم من بربرهم ، ثم خرج المولى الرشيد رابع رمضان من السنة لزيارة الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه ومنه ذهب الى سلا فزار صلحاءها وعاد الى فاس فدخلها منسلخ رمضان المذكور .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين والف فى صفر منها بعث خيلا للجهاد على طنجة ، وفى منتصف جمادى الاولى بعث خيلا أخرى الى السوس وعليهم أبو محمد عبد الله آعراس ، ثم خرج الى الصيد بتافرطاست فبلغه هنالك خبر ثورة ابن أخيه المولى محمد بن محمد بمراكش . فرجع الى فاس ، فدخلها يوم السبت حادى عشر رمضان ، ثم خرج منها عصر يومه ذلك ، فلقيه ابن أخيه بفزارة مقبوضا عليه بيد أصحابه فبعث به الى تافيلالت وسار هو الى مراكش وبعث قائده زيدان العامرى الى فاس فى ذى القعدة ليأتيه بالجيش لغزو السوس ، فأتاه أهل السوس طائعين و لم يبق للحركة محل بعد أن كانت الاخبية قد أخرجت الى وادى فاس وضربت به، فاستقرت قواعد الملك للمولى الرشيد وتمهدت أمور الدولة والله غالب على أمره .



وفاة امير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله فى هذه المدة مقيما بمراكش كما قلنا الى أن كان عيد الاضحى من سنة اثنتين وثمانين وألف ، فلما كان ثانى يوم النحر وهو يوم الخميس ركب فرسا له وأجراه فجمح به فى بستان المسرة ولم يملك عنانه فأصابه فرع شجرة نارنج فهشم رأسه وقيل دخل فى أذنه وكانت فيه منيته رحمه الله ، ودفن بمراكش بالقصبة منها ، ثم نقل الى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بفاس لوصية منه بذلك . ومات رحمه الله وسنه اثنتان وأربعون سنة لانه ولد سنة أربعين وألف ، ورثاه بعضهم بقوله :

وما شج ذات الغصن رأس امامنا لسوء له خدن المحبة جاحد
ولكنه قد غار من لين قده وان من الاشجار ما هو حاسد

قلت : لا يخفى أن مثل هذا الشعر لا يحسن أن تمدح به الملوك فانه بالغزل أشبه منه بالرثاء ، وكان قد وقع بين المولى الرشيد رحمه الله وبين شيخ الوقت الامام أبى عبد الله محمد بن ناصر الدرعى رضى الله عنه مكاتبات توعده أمير المؤمنين فى بعضها فمات عقب ذلك وكفى الشيخ المذكور أمره .

ومن مآثره رحمه الله : أنه لما مر فى بعض حركاته بالموضع المعروف بالشط من بلاد الظهراء أمر بحفر آبار شتى فهى الآن تدعى بآبار السلطان اضافة له يستقى منها ركب الحجيج فى ذهابه وايابه ، فهى ان شاء الله فى ميزان حسناته ، وكان رحمه الله محبا فى جانب العلماء موثرا لاغراضهم مولعا بمجالستهم محسنا اليهم حيث ما كانوا .

ومن نوادره معهم : ما حكى ان العلامة أبا عبد الله محمد المرابط ابن محمد بن ابى بكر الدلائى حضر يوما بمجلس السلطان المذكور وذلك بعد الايقاع بزاويتهم وتغريبهم الى فاس فأنشد السلطان معرضا بالفقيه

المذكور قول أبي الطيب المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بـد

ففهم أبو عبد الله المرابط اشارته فقال : أيد الله أمير المؤمنين ، ان من سعادة المـرء أن يكون خصمه عاقــلا » فاستحسن الحاضرون حسن بديهته ولطف منزعه .

ومن تواضع المولى الرشيد رحمه الله مع أهل العلم ما حكاه صاحب الجيش من أنه بعث الى بعض علماء عصره ليقرأ معه بعض الكتب فامتنـع ذلك العالم وقال كما قال الامام مالك رضى الله عنه : « العلـم يؤتى ولا يأتى » قال : « فكان المولى الرشيد رحمه الله يتردد لمنزل ذلـك العالــم للقراءة عليه » وقد ذكر صاحب « نشر المثانى » : « أنه كان يحضر مجلس الشيخ اليوسى بالقرويين » اه وهذه لعمري منقبة فخيمة ، ومأثرة جسيمة، فرحم الله تلك الهمم التى كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره ، قالوا : وكان رحمه الله جوادا سخيا رحل الناس اليه من المشرق فما دونـه وقصده بعض طلبة ثغر الجزائر فامتدحه ببيتين وهما :

فاض بحر الفرات في كل قطر من ندى راحتيك عذبا فراتا

غرق الناس فيــه والتمس الفقـ ـر خلاصا فلم يجده فماتــا

فوصله بألفين وخمسين دينارا .

قال اليفرني : وشأوه رحمه الله فى السخاء لا يلحـق ، والحكايات عنه بذلك شهيرة ، وفى أيامه كثر العلم واعتز أهله وظهرت عليهم أبهته ، وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم حتى قيل أنه فى اليوم الـذى بويع فيه بفاس كان القمح فى أول النهار بخمس أواق للمـد وصار فى آخره بنصف اوقية فتيمن الناس بولايته واغتبطوا بها . والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المظفر بالله ابى النصر المولى اسماعيل بن الشريف رحمه الله

لما توفى المولى الرشيد رحمه الله فى التاريخ المقدم وكان اخوه المولى اسمعيل بمكناسة الزيتون خليفة على بلاد الغرب فبلغه خبر موته فاجتمع الناس عليه وبايعوه واتفقت كلمتهم عليه ، ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرافها ببيعتهم ، وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادى كذلك بهداياهم وبيعاتهم الا مراكش وأعمالها فانه لم يأت منها أحد ، فجلس رحمه الله للوفود الى ان فرغ من شأنهم ورتب اموره بمكناسة وعزم على السكنى بها اذ كان لا يبغى بها بدلا حيث أعجبه ماؤها وهواؤها هكذا فى البستان .

وقال أبو عبد الله اليفرنى فى النزهة ونحوه فى «نشر المثانى» : «لما توفى المولى الرشيد رحمه الله اتصل خبر وفاته بالمولى اسمعيل وهو يومئذ خليفته بفاس الجديد ليلة الاربعاء السادس عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وثمانين والف فبويع رحمه الله ، وحضر بيعته أعيان المغرب وصلحاؤه بحيث لم ينازع فى انه احق بها واهلها احد ممن يشار اليه »» زاد فى «الظل الظليل :» ووافق على بيعته اهل الحل والعقد من العلماء والاشراف كالشيخ أبى محمد عبد القادر ابن على الفاسى ، والشيخ أبى على اليوسى، وأبى عبد الله محمد بن على الفيلالى ، وابى العباس احمد بن سعيد المكيلدى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسى ، واخيه أبى زيد صاحب نظم العمل ، والقاضى أبى مدين ، وغيرهم من بقية الاعيان ، وكانت بيعته فى السنة الثانية من يوم الاربعاء السادس عشر من ذى الحجة المذكور آنفا ، ووافق ذلك اليوم الثالث من شهر ابريل العجمى .

وكان سنه يوم بويع ستا وعشرين سنة لان ولادته كانت عام وقعة

القاعة وهى مؤرخة بخط من يوثق به سنة ست وخمسين والف ، ولما تمت بيعته نهض بأعباء الخلافة وضبط الامور واحسن السيرة .

ثورة المولى ابى العباس احمد بن محرز بن الشريف وما كان من امره

لما توفى المولى الرشيد رحمه الله واتصل خبر وفاته بأهل سجلماسة وغيرها أقبل ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد بن محرز مبادرا الى مراكش طالبا للامر وداعيا الى نفسه ، والتفت عليه طوائف من عرب السوس وغيرهم وغلب على تلك النواحي ونشبت أهل مراكش بلامع برقه ، وبذلك تقاعدوا عن الوفادة على أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله .

ولما صح عنده خبر ابن محرز وذلك فى آخر ذى الحجة من السنة نهض الى مراكش فوصل اليها وبرز اليه أهلها فيمن انضم اليهم من قبائل أحوازها وقاتلوه فانتصر عليهم وهزمهم ، ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين والف ، فعفا عن اهلها ، وأجفل ابن محرز وشيعته الى حيث نجوا .

ولما احتل المولى اسمعيل بمراكش أمر بنقل شلو أخيه المولى الرشيد فى تابوته الى فاس ليدفن بضريح الشيخ ابن حرزهم كما مر ، ثم قفل السلطان الى مكناسة منسلخ ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين والف .

انتقاض اهل فاس وقتلهم القائد زيدان واعلانهم بدعوة ابن محرز وما نشأ عن ذلك من محاصرة السلطان لهم

لما قفل أمير المؤمنين المولى اسمعيل الى مكناسة أخذ في ترتيب امور دولته وفرق الراتب على الجند وكان عازما على غزو بلاد الصحراء فلم يرعه الا الخبر بأن أهل فاس قد انتقضوا وقتلوا قائد الجيش زيدان بن عبيد العامرى وكان مقتله ليلة الجمعة ثاني جمادى الاولى من السنة فزحف السلطان اليهم وحاصرهم واستمر القتال بينه وبينهم أياما ، ثم بعثوا الى المولى أحمد ابن محرز ليأتيهم فيجتمعوا عليه فقدم دبدو وانزل على ملوية وبعث اليهم رسوله يعلمهم بمجيئه فاعلنوا بنصره ، وذلك يوم الخميس العشرين من جمادى الثانية من السنة ، وفي منسلخ الشهر المذكور بعثوا عشرة من الخيل للقائه بتازا ، ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان يعلمهم بأنه قد قدم من ثغر الجزائر في البحر ، وانه نزل بتطاوين مع رؤسائها أولاد النقسيس ، فتشعبت الآراء وتعددت أسباب الهراش ، وتكاثرت الظباء على خداش ، وهاجت فتنة بفاس قتل فيها نفر من اولاد الثائر المتقدم أبي الربيع سليمان الزرهوني على يد مولاى احمد بن ادريس من شرفاء دار القيطون، ثم قتل بعض شيعة الزرهوني مولاى حفيد بن ادريس أخا الشريف المذكور ، وكان ما كان مما لست أذكره .

ولما اتصل خبر ابن محرز بالمولى اسمعيل نهض اليه في جنوده قاصدا تازا فحاصرهم بها اشهرا ففر عنها ابن محرز ودخل الصحراء ، ولما علم السلطان بفراره عدل الى ناحية الهبط بقصد الخضر غيلان فحاربه الى أن ظفر به وقتله يوم الاحد العشرين من جمادى الاولى سنة أربع وثمانين والف ، وعاد الى فاس الجديد أواسط جمادى الثانية من السنة ، وحاصر أهل فاس وطاولهم ولم يحدث معهم حربا الى ان أذعنوا الى الطاعة وراجعوا

بصائرهم ففتحوا البلد وخرجوا الى السلطان تائبين فعفا عنهم ، وذلك في سابع عشر رجب سنة اربع وثمانين والف ، فكانت مدة انتقاضهم أربعة عشر شهرا وثمانية عشر يوما ذاقوا فيها وبال امرهم ، ثم ولى عليهم القائد أبا العباس أحمد التلمساني ، وعلى فاس الجديد الوزير أبا زيد عبد الرحمن المنزاري وسار الى مكناسة ، ثم عاد بالقرب ، الا ان هذين الواليين قد جارا في الحكومة ، وعاثا في البلدين بضرب الابشار ونهب الاموال وغير ذلك والله لا يظلم مثقال ذرة ، وعزل أيضا عن خطابة القرويين الفقيه أبا عبد الله البوعناني وولاها القاضي أبا عبد الله المجاصي وذلك في آخر رجب من السنة والله أعلم .

تجديد امير المؤمنين المولى اسماعيل بناء مكناسة الزيتون واتخاذه اياها دار ملكه



كانت مدينة مكناسة الزيتون من الامصار القديمة بارض المغرب بناها البربر قبل الاسلام ، ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها ، ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت ، ومعناها : المحلة ، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط ، وكانت يومئذ هي كرسي الوزارة كما ان حضرة فاس الجديد هي كرسي الامارة ، واختصت مكناسة بطيب التربة وعذوبة الماء وصحة الهواء وسلامة المختزن من التعفين وغير ذلك . وقد وصفها ابن الخطيب في مواضع من كتبه مثل «النفاضة» و «المقامات» وغيرهما واثنى عليها نظما ونثرا وأنشد قول ابن عبدون من أهلها فيها :

ان تفتخر فاس بما في طيها   وبانها في زيها حسناء

يكفيك من مكناسة ارجاؤها والاطيان هواؤها والمـــــاء

فلما كانت بهذه المثابة كان امير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله لا يبغي بها بدلا ، فلما فرغ من امر فاس رجع اليها وشرع في بناء قصور بها بعد ان هدم ما يلي القصبة من الدور ، وأمر أربابها بحمـل أنقاضها ، وبنى لهم سورا على الجانب الغربي ، وامر ببناء دورهم به ، وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده في القصبة القديمة ، ولم يبق أمامه الا الفضاء فجعل ذلك كله قصبة . وبنى سور المدينة وافردها عن القصبة وأطاق أيدي الصناع في البناء ومداومة العمل ، وجلبهم من جميـــع حواضر المغرب ، ولما لم يقنعه ذلك فرض العملة على القبائل مناوبة ، فصارت كل قبيلة مـــن قبائل المغرب تبعث عددا معلوما من الرجال والبهائم في كل شهر ، وفرض الصناع واهل الحرف على الحواضر ، فصار اهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عددا معلوما كذلك ، واسس المسجد الاعظـم بداخـــل القصبة مجاورا لقصر النصر الذي كان اسسه في دولة أخيـه المولى الرشيد رحمه الله ، ثم أسس الدار الكبرى التي بجوار الشيخ المجذوب ، واستمر البنـــاء والغرس بمكناسة سنين كما سياتي التنبيه على ذلـــك في محلـــه ان شاء الله .

مجيء المولى احمد بن محرز الى مراكش واستيلاؤه عليها ونهوض السلطان الى محاصرته بها

ثم دخلت سنة خمس وثمانين والف فيها ورد الخبر عـــلى السلطان المولى اسمعيل وهو بمكناسة بدخول ابن اخيه المولى أحمد بن محرز مراكش واستيلائه عليها ، وكا نالسلطان يومئذ متوجها الى آنكاد لما بلغه مـــن عيث العرب الذين به وقطعهم الطريق فلم يثنه ذلك عنهم بل سار اليهم وأوقـــع بسقونة منهم وقتل خلقا كثيرا ونهب ورجع مؤيدا منصورا ، ثم استعد لحرب

ابن محرز وخرج فى العساكر على طريق تادلا ، فكان اللقاء بينهما على أبي عقبة من وادى العبيد ، فاقتتلوا وانهزم ابن محرز وقتل كبير جيشه حيدة الطويرى ، ورجع ادراجه الى مراكش ، فتبعه السلطان المولى اسمعيل ، وألقى بكلكله على مراكش أوائل سنة ست وثمانين وألف، ونما اليه أن بعض أهل محلته قد اضمروا الغدر منهم الشيخ عمر الطوئى وولده وعبد الله آعراس واخوته ، هؤلاء كانوا امراء عسكره ، فخنقهم وأتلف نفوسهم ، وبعث الى من بقى منهم بفاس فقبض عليهم وقتلوا وحيزت دورهم واموالهم .

واستمر السلطان محاصرا لمراكش الى ربيع الثانى من سنة سبع وثمانين وألف فشدد فى الحصار ، وازدلف اليها فى جنوده ، فوقع قتال عظيم مات فيه من الفريقين مالا يحصى ، وانحجر ابن محرز داخل البلد وبقى يقاتل من أعلى الاسوار ، ثم تمادى الحصار الى ثانى ربيع الثانى من سنة ثمان وثمانين وألف ، فاشتد الامر على ابن محرز وضاق ذرعا ، فخرج فارا عن مراكش ناجيا فيما ابقته الحرب من جموعه، ودخل السلطان المولى اسمعيل المدينة عنوة ، فاستباحها وقتل سبعة من رؤسائها وكحل ثلاثين منهم وهدأت الفتنة وذهبت أيام المحنة .. والله غالب على أمره .

تاليف جيش الودايا وبيان فرقهم واوليتهم

هذا الجيش من أمثل جيوش هذه الدولة الشريفة أبقى الله فضلها وبسط على البلاد والعباد يمنها وعدلها وهو ينقسم الى ثلاثة أرحاء : رحى أهل السوس ، ورحى المغافرة ، ورحى الودايا ، ويطلق على الجميع ودايا تغليبا ، فأما أهل السوس فمنهم أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات وكلهم من عرب معقل ، وكانوا فى القديم جندا للدولة

السعدية ، وكان ملوكها يستنفرونهم للغزو بحللهم لاعتيادهم ذلك أيام كونهم بالصحراء ، ثم أنزلوهم ببسيط آزغار مراغمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم ، اذ كانت الخلط شيعة بنى مرين وأصهارهم كما مر ، فلما جاءت الدولة السعدية بقوا منحرفين عنها ، وكلما طرقها خلل ثاروا عليها وخرجوا عن طاعتها ، فقيض لهم السلطان محمد الشيخ السعدى هؤلاء القبائل من معقل وزاحمهم بهم فى بلادهم، وشغلهم بهم، فكانت تكون بينهم الحروب ، فتارة تنتصف معقل من جشم ، وتارة العكس حتى أوقع المنصور السعدى بالخلط وقيعته الشهيرة ، وأسقطهم من الجندية ، فنقل أولاد مطاع الى زبيدة قرب تادلا .

ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم استطالت الشبانات عليها بما كان لهم من الخؤلة على أولاد السلطان زيدان ، فاستبدت فرقة منهم بمراكش كما مر ، وثارت أخرى بفاس الجديد مع أبى عبد الله الدريدى المتغلب بها حسبما سلف ، الى أن نقل أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله جميعهم الى وجدة كما سياتى ، ثم خلطهم بعد باخوانهم من المغافرة والودايا وصير الجميع جيشا واحدا فهذه أولية أهل السوس

وأما المغافرة فسيأتى بيان كيفية اتطالهم بالمولى اسمعيل ومصاهرتهم له .

وأما الودايا فكان السبب فى جمعهم واستعمالهم فى الجندية أنه لما فتح المولى اسمعيل رحمه الله مدينة مراكش الفتح الثانى وأجفل ابن محرز عنها أقام بها أياما ، ثم خرج الى الصيد بالبسيط المعروف بالبحيرة من أحواز مراكش ، فرأى أعرابيا يرعى غنما له وبيده شفرة يقطع بها السدر ويضعه لغنمه لتأكل ورقه ، فقال للوزعة : « على بابى الشفرة » فأسرعوا اليه وجاءوا به الى أن أوقفوه بين يديه ، فسأله فانتسب له الى : ودى ، كغنى : قبيلة من عرب معقل بالصحراء ، واخبره بانهم دخلوا من بلاد القبلة بسبب جدب أصابهم ، قال : « دخلنا السوس بنجع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا الى قبيلة فنزلت عليها ، ونحن نزول مع

الشبانات » فقال له المولى اسمعيل رحمه الله : « أنتم أخوالى وسمعتم بخبرى ولم تأتونى ، والآن أنت صاحبى واذا رجعت بنفسك الى خيمتك فاقدم على الى مراكش » وأوصى به من يوصله اليه ، ثم بعد أيام قدم أبو الشفرة على السلطان فكساه وحمله وبعث معه خيلا يجمع بها اخوانه من قبائل الحوز ، فجمع من وجد منهم وجاء بهم الى السلطان فأثبتهم فى الديوان وكساهم وحملهم ، ثم نقلهم بحلتهم الى مكناسة الزيتون دار الملك ومقر الخلافة .

ثم دخل نجع آخر بعدهم فاثبتهم فى الديوان أيضا وبالغ فى اكرامهم والاحسان اليهم وعين لسكناهم من مكناسة المحل المعروف بالرياض بجوار قصبتها ، وأمرهم ببناء الدور وأعطى أعيانهم ورؤساءهم النوائب وهى : الزوايا التى لا تغرم مع القبائل ، ثم قدم نجع ثالث جاؤوا من جهة القبلة فأثبتهم كاخوانهم الذين قدموا قبلهم وسلك بهم مسلكهم .

ولما نقل رحمه الله زرارة والشبانات الذين كانوا بفاس الجديد مع الدريدى بعث بهم اليها أيضا ليجتمعوا مع اخوانهم ، ثم قسم الودايا الذين بالرياض قسمين فبعث نصفهم الى فاس الجديد وعمره بهم . وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن عطية منهم ، وأبقى النصف الآخر بالرياض من مكناسة ، وولى عليهم القائد أبا الحسن عليا المدعو بابى الشفرة ، فكانا يتداولان القسمين مرة هذا ومرة هذا . ثم استقر الامر على أن صار أبو الشفرة بفاس وابن عطية بالرياض .

وأما خبر الخلط : فانه لما أوقع بهم المنصور السعدى تفرقوا فى القبائل شذر مذر ، وصاروا عيالا على غيرهم ، ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم اجتمعوا ورجعوا الى ازغاز فغلبوا عليه ، وعفوا وكثروا وتمولوا وأكثروا من الخيل والسلاح الى أن جاء الله بالمولى اسمعيل رحمه الله فانتزع منهم خيلهم وسلاحهم كغيرهم من قبائل المغرب ، وضرب عليهم المغارم ، واستمروا على ذلك الى أيام السلطان المرحوم المولى محمد ابن عبد الله فظهروا فى دولته ، وكانوا يعكسون معه فى حروبه ويغرمون

ما وجب عليهم من الزكوات والاعشار ، وكذلك مع ابنه المولى سليمان وابن ابنه المولى عبد الرحمن بن هشام رحم الله الجميع بمنه ، وهم اليوم في عداد القبائل الغارمة ، وكذا قبائل الحوز الذين هم من عرب معقل كلهم غارمة ، والله تعالى المتولى لامور العباد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه .

انتقاض البربر شيعة الدلائيين والتفافهم على احمد بن عبد الله منهم وايقاع السلطان بهم

لما كان أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مقيما بمراكش بعد فرار المولى أحمد بن محرز عنها بلغه اجتماع البربر الصنهاجيين على أحمد ابن عبد الله الدلائي وعيثهم فيمن جاوزهم من قبائل العرب من تادلا الى سايس ، فبعث رحمه الله عسكرا الى تادلا اعانة لاهلها على البربر فهزمتهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا واستولوا على تادلا ، ثم بعث اليهم عسكرا آخر فيه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد عليه ليخلف فهزمهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا معسكره ، ثم اعقبهما بعسكر ثالث فوقع به ما وقع بالاولين هذا كله والسلطان مقيم بمراكش يرصد ابن محرز الذى بالسوس ، ثم بلغه قيام اخيه المولى حمادة بالصحراء وحربه لاخيه المولى محرز الثائر بها أيضا ، وهو والد المولى أحمد صاحب السوس فقدم السلطان رحمه الله الاهم ورجع الى حرب البربر بتادلا خوفا من اتساع خرقهم على الدولة ، وهنالك لقيه أخوه المولى الحران جاء مستصرخا له على أخيه المولى حمادة ، ثم تقدم السلطان رحمه الله الى البربر فأوقع بهم وقعة شنعاء واستلحمهم وقطع منهم سبعمائة رأس بعث بها الى فاس مع عبد الله بن حمدون الروسى . وفي «نشر المثاني» : أنه قتل من البربر يومئذ ثلاثة آلاف فزينت المدينة واخرجت المدافع وكان يوما مشهودا ، ولما انقضت الوقعة فر المولى الحران

من المحلة الى الصحراء ورجع السلطان الى مكناسة فدخلها في أواسط شوال سنة ثمان وثمانين وألف .

وفي هذه الايام ولى قضاء فاس الفقيه الورع أبا عبد الله محمد العربي بردلة بعد عزل القاضي ابى عبد الله المجاصي ، وولى مظالمها وجبايتها عبد الله الروسي ، وولى مواريثها أباه حمدون ، وامر بقتل أهل تطاوين الذين كانوا بسجن فاس وهم عشرون فضربت أعناقهم ورفعت على الاسوار ، ثم جيء بالمولى الحران من الصحراء مقيدا مغلولا فلما قابله من عليه وأطلقه وأعطاه خيلا وأقطعه مداشر بالصحراء يتعيش بها وسرحه الى حال سبيله .

عود الكلام الى بناء حضرة مكناسة الزيتون

واستمر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بمكناسة قائما على بناء حضرتها بنفسه وكلما أكمل قصرا اسس غيره ، ولما ضاق مسجد القصبة بالناس اسس الجامع الاخضر أعظم منه ، وجعل له بابين بابا الى القصبة وبابا الى المدينة وجعل رحمه الله لهذه القصبة عشرين بابا عادية في غاية السعة والارتفاع ، مقبوة من اعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام والمهاريس الحربية الهائلة الاشكال ما يقضي منه العجب ، وجعل في هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط ، وجعل بها هريا عظيما لاختزان الطعام من قمح وغيره مقبو القنانيط ، يسع زرع أهل المغرب ، وجعل بجواره سواقي للماء في غاية العمق مقبوا عليها ، وجعل في أعلاها برجا عظيما مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة الى كل جهة ، وجعل بها اصطبلا عظيما لربط خيله وبغاله مسيرة فرسخ في مثله مسقف الجوانب بالبرشلة على أساطين واقواس عظيمة ، في كل قوس مربط فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا ، يقال : انه كان مربوطا بهذا الاصطبل اثنى عشر

ألف فرس مع كل فرس سائس من المسلمين وخادم من أسرى النصارى يتولى خدمته ، وفى هذا الاصطبل سانية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر ، وامام كل فرس منها ثقب كالمعدة لشربه ، وفى وسط هذا الاصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على اشكال مختلفة ، وفيه ايضا هرى عظيم مربع الشكل مقبو الاعلى على اساطين عظيمة واقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل ، وينفذ اليه الضوء من شبابيك فى جوانبه الاربعة كل شباك ينيف وزنه على قنطار من حديد ، وفوق هذا الهرى من اعلاه قصر يقال له : المنصور ، ولا يقصر ارتفاعه من مائة ذراع خمسون فى الاسفل وخمسون فى الاعلى ، وفيه عشرون قبة فى كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل الى الجبل ، وكل قبة مسقفة بالبرشلة والقرمود وغير ذلك ، ثم أربع قباب منها متقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبرا فى مثلها ، وباقى العشرين أربعون . ويجاور هذا الاصطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وانواع الفواكه كل غريب ، طوله فرسخ وعرضه ميلان ، ويتخلل هذه القصور التى فى داخل القلعة شوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وبين الاخرى ، ورحاب عظيمة مربعة معدة لعمارة المشوز فى كل جانب ، الى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف .

قال صاحب «البستان» : «وقد شاهدنا آثار الاقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك فى دولهم ولا شاهدناه فى آثارهم ، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله فى قلعة مكناسة دار ملكه ، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج ولا آفات الزلازل التى تخرب المبانى العظام وانهياكل الجسام» قال : «ومن يوم مات المولى اسمعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هذا ،

وبنيت من انقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب ، وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة ، واما الجدرات فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال» اهـ.

تاليف جيش عبيد البخاری وذكر اوليتهم وشرح تسميتهم

هذا الجيش من اعظم جيوش هذه الدولة السعيدة كما تقف عليه ، وكان السبب في جمعه ما وجد مفصلا فی كناش كاتب الدولة الاسماعيلية ووزيرها الاعظم النقيه الاديب أبی العباس احمد اليحمدی رحمه الله ، قال : لما استولى السلطان المولى اسمعيل بنُ الشريف على مراكش ودخلها أول مرة كان يكتب عسكره من القبائل الاحرار حسبما مر ،حتى أتاه الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشی المدعو عليليش ، وبيتهم بيت رياسة من قديم . وكان والده كاتبا مع المنصور السعدی ومع أولاده من بعده ، فتعلق أبو حفص هذا بخدمة السلطان المولى اسمعيلَ واطلعه على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا فی عسكر المنصور ، فسأله السلطان رحمه الله هل بقی منهم أحد ؟ قال : «نعم ، كثير منهم ومن اولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وبقبائل الدير ، ولو أمرنی مولانا بجمعهم لجمعتهم» فولاه أمرهم وكتب له الى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده واعانته على ما هو بصدده فأخذ عليليش يبحث عنهم بمراكش وينقر عن انسابهم الى أن جمع من بها منهم ، ثم خرج الى الدير فجمع من وجد به ، ثم سار الى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسود ، سواء كان مملوكا أو حرطانيا أو حرا اسود ، واتسع الخرق وعسر الرتق فجمع فی سنة واحدة ثلاثة آلاف رأس ، منهم المتزوج والعزب ثم كتبهم فی دفتر وبعث به الى السلطان بمكناسة فتصفحه السلطان واعجبه ذلك فكتب اليه يأمره بشراء

الاماء للاعزاب منهم ، ويدفع أثمان المماليك منهم الى ملاكهم ويكسوهم من اعشار مراكش ، ويأتيه بهم الى مكناسة فاجتهد عليليش فى ذلك واشترى من الاماء ما قدر عليه ، وجمع من الحرطانيات عددا الى ان استوفى الغرض وكساهم وألزم القبائل بحملهم الى الحضرة ، فحملوا من قبيلة الى اخرى الى ان وصلوا مكناسة ، فأعطاهم السلطان السلاح وولى عليهم قوادهم ، وبعث اليهم الى الموضع المعروف بالمحلة من مشرع الرملة من أعمال سلا .

ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد بن العياشى المكناسى الى قبائل الغرب وبنى حسن وأمره بجمع العبيد الذين بها فمن لا ملك لاحد عليه يأخذه مجانا ، ومن كان مملوكا لاحد فليعط صاحبه ثمنه ويحوزه منه، فخرج ابن العياشى وطاف فى تلك القبائل واستقصى كل أسود بها ، وكان السلطان قد كتب أيضا الى عماله بالامصار بأن يشتروا له العبيد والاماء من فاس ومكناسة وغيرهما من حواضر المغرب عشرة مثاقيل للعبد وعشرة مثاقيل للامة ، فاستوعبوا ما وجدوا حتى لم يبق عند أحد عبد ولا أمة ، فاجتمع مما اشتراه العمال ثلاثة آلاف اخرى ، فكساهم السلطان وسلحهم وبعث بهم الى المحلة بعد ان عين لهم قوادهم ، ثم ان ابن العياشى قدم بدفتر فيه ألفان من العبيد فيهم المتزوج والعزب ، فكتب السلطان الى القائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى صاحب بلاد الهبط أن يشترى للاعزاب منهم الاماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم الى المحلة، فصار المجموع ثمانية آلاف، وهذا العدد هو الذى نزل أولا بها.

ثم الزم السلطان قبائل تامسنا ودكالة أن يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم فلم يسعهم الا الامتثال ، فجمعوا كل عبد فى بلادهم وزادوا بالشراء من عندهم ، واعطوهم الخيل والسلاح وكسوهم وبعثوا بهم اليه فمن تامسنا ألفان ، ومن دكالة الفان ، فانزلهم السلطان بوجه عروس من أحواز مكناسة الى ان بنى قصبة آدخسان فأنزل عبيد دكالة بها وانزل عبيد تامسنا بزاوية اهل الدلاء .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين والف فيها غزا السلطان المولى اسمعيل

صحراء السوس فبلغ آقاوطاطا وتيشيت وشنكيط وتخـــوم السودان فقدمت عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومـــن دليـــم وبربوش والمغافرة وودي ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقـــل وأدوا طاعتهـم . وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغفرى والد الحبـــرة خناثـى أم السلطان المولى عبد الله بن اسمعيل ، فأهدى الشيخ المذكور الى السلطان ابنته خنـاثى المذكورة ، وكانت ذات جمال وفقه وادب ، فتزوجها السلطان رحمـه الله وبنى بها وجلب في هذه الغزوة من تلك الاقاليم ألفين من الحراطين بأولادهم فكساهم بمراكش وسلحهم ، وولى عليهم ، وبعث بهم الى المحلة وقفل هو الى حضرته من مكناسة فكان عدد ما جمع من العسكر البخارى أربعـــة عشر ألفا ، عشرة آلاف منهـا بمشرع الرملة وأربعـة آلاف بادخسان وما والاها من بلاد البربر ، ثم عفوا وتناسلوا وكثروا حتى مـا مات المـــولى اسمعيل الا وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا كما سيأتي ان شاء الله .

واعلم أنه قد وقع في هذه الاخبار لفظ الحرطاني ، ومعناه في عرف أهل المغرب : العتيق ، وأصله الحر الثاني كأن الحر الاصلي حر أول وهذا العتيق حر ثان ثم كثر استعماله على الالسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيـف .

وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخارى : فان المولى اسمعيـــل رحمه الله لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصـار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه، وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخارى وقال لهم : « أنا وأنتم عبيد لسنة رسول اللـه صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما أمر بـــه نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل » فعاهدوه على ذلك ، وأمـر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمـام حروبهم كتابوت بنى اسرائيل ، وما زال الامر على ذلك الى هذا العهـــد فلهذا قيل لهم عبيد البخارى .

قال في « البستان » : « كان مآل هذا العسكر البخارى مـــع أولاد

أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم ابن الرشيد العباسي في كونهم استبـــدوا عليهـم وصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون الى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا فـــى البلاد شذر مذر ، وما أحياهم الا السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله ولما عفوا وكثروا خرجوا عليه بابنه المولى يزيد وفعلوا فعلتهم التى فعلوها من قبل حسبما تسمعه بعد ان شاء الله .

غزو امير المؤمنين المولى اسماعيل بلاد الشرق وانعقاد الصلح بينه وبين دولة الترك اهل الجزائر

ثم غزا أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بلاد الشرق فتـــرك تلمسان عن يساره ، وأصحر في ناحية القبلة تقدمت عليه هنالك وفـــود العرب من ذوى منبع ودخيسه وحميان والمهاية والعمور وأولاد جريـــر وسقونه وبنى عامر والحشم ، فسار بهم الى أن نزل القويعـة عـــلى رأس وادى شلف المسمى اليوم بوادى صا ، وكان رائده اليها والدال له عليها هم بنو عامر بن زغبة فخرج جيش الترك مع نفر الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريسهم ، ونزلوا على وادى شلف قبالة السلطان رحمه الله، ولما كان وقت العشاء أرعدوا مدافعهم ليدهشوا العرب الذين مع السلطـان فكان الامر كذلك ، فانه لما انتصف الليل انسل بنو عامر من محلة السلطان وأصبحت الارض منهم بلاقع ، ولما أصبح بقية العرب وعلموا بفرار بنـــى عامر انهزموا دون قتال ، ولم يبق مع السلطان الا عسكره الذى جاء بـــه من المغرب ، فكان ذلك سبب تأخره عن حرب الترك وقفوله الى حضرته، وكاتبه الترك فى ان يتخلى لهم عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه ، ومـــن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فانهم ما زاحموهم قط فى بلادهم ،

وبعثوا اليه بكتاب اخيه المولى محمد بن الشريف الذى كان بعث به اليهم مع رسلهم حسبما تقدم ، وبكتاب أخيه المولى الرشيد الذى فيه الحد بينه وبينهم ، فوقع الصلح على ذلك الحد الذى هو وادى تافنا .

ولما قفل السلطان رحمه الله ومر فى طريقه بمدينة وجدة أمر ببنائها وتجديد ما تثلم منها ، ثم قفل الى فاس ثم منها الى الحضرة بمكناسة الزيتون ، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وألف .

خروج الاخوة الثلاثة من اولاد المولى الشريف بن علي بالصحراء وما كان من امرهم

■

وفى أواخر رمضان سنة تسع وثمانين وألف بلغ السلطان رحمه الله وهو بمكناسة خروج اخوته الثلاثة المولى الحران ، والمولى هاشم ، والمولى أحمد بنى الشريف بن على مع ثلاثة آخرين من بنى عمهم ، وأنهم تدرجوا الى آيت عطاء من قبائل البربر ، فنهض اليهم السلطان رحمه الله بالعساكر وسلك طريق سجلماسة فكان اللقاء بجبل ساغرو فى عشرين من ذى الحجة من السنة ، فالتقى جيش السلطان وجيش الخارجين وجلهم آيت عطاء ، فاقتتلوا ، وكان الظفر للسلطان بعد أن هلك من جيشه ثم من رماة فاس بالخصوص نحو أربعمائة دون من عداهم ، وهلك قائد العسكر موسى ابن يوسف ، وانهزم الاخوة وأبعدوا المفر الى الصحراء .

وكان فى تلك السنة وباء عظيم قد انتشر فى بلاد المغرب ، فرجع السلطان على طريق الفايجة ، فأصابه ثلج عظيم بثنية الكلاوى من جبل درن أهلك الناس وأتلف متاعهم وأخبيتهم ، وما تخلصوا منه الا بمشقة فادحة .

ولما نزلت العساكر بزاوية الشيخ أبى العزم سيدى رحال الكوش

مدوا أيديهم الى أموال الناس وزروعهم بالنهب لما مسهم من ضرر الجوع ، فشكا الناس ذلك الى السلطان فأمر بقتل كل من وجـد خارج المحلـة ، فقتل في ذلك اليوم من الجيش نحو الثلاثمائة ، ثم أمر بجر الوزير أبـي زيد عبد الرحمن المنزرى لامر نقمه عليه وقتل أصحابه بالرصاص فجـر الوزير المذكور الى فاس ومكناسة ولم يصل اليهما الا بعض شلوه فطـرح على المزبلة ، ووصل السلطان الى مكناسة فاحتل بدار ملكه واقتعد أريكـة عـزه .

ثم دخلت سنة تسعـين والف ففي المحرم منها وقع الوبـاء بفـاس وأعمالها ، فأمر السلطان العبيدان يردوا الناس عن مكناسـة ، فكانـوا يتعرضون لهم في الطرقات بناحية سبو وسايس يردونهم عن مكناسة ، وكل من يأتي من ناحية القصر وفاس يقتلونه ، فانقطعت السبل وتعذرت المرافق

وفي أواخر المحرم من هذه السنة أوقع جيش المسلمين بنصـارى طنجة فقتلوا منهم نحو ثلاثمائة وخمسين ، وانتزعوا منهم قصبة باربعـة أبراج واستشهد من المسلمين نحو الخمسين رحمهم الله .

نقل زرارة والشبانات الى وجدة وبناء القلاع بالتخوم وما تخلل ذلك

وفي هذه السنة التي هي سنة تسعين وألف أمر أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بنقل عرب زرارة والشبانات قوم كروم الحاج من الحوز الى وجدة لما كانوا عليه من الظلم والفساد في تلك البلاد ، فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب وكتبهم في الديوان ، وولى عليهم أبا البقاء العياشي بن الزويعر الزرارى ، وتقدم اليه في التضييق على بني يزناسن اذ كانوا يومئذ منحرفين عن الدولة ومتمسكين بدعوة الترك ، فكان زرارة والشبانات يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط آنكاد ، وأمر السلطان رحمه الله أن تبنـى

عليهم قلعة من ناحية الساحل قرينة وجدة بالموضع المعروف برفادة ، وأمر القائد العياشي أ نينزل بها خمسمائة فارس من احوانه يمنعونهم النـزول ببسيط تريفة والارتفاق به من حرث وغيره ، ثم أمر رحمه الله أن تبنى قلعة أخرى بطرف بلادهم بالعيون ، وينزل بها القائد المذكور خمسمائـة أخرى من اخوانه أيضا ، وأمر ان تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية وينزل بها خمسمائة فارس كذلك ، وجعل للقائد العياشي المذكور النظـر في القلاع الثلاث وهو بوجدة في ألف فارس فكانوا في الدفتر ألفـين وخمسمائـة .

ثم دخلت سنة احدى وتسعين وألف ففي جمادى الثانية منها خرج السلطان من الحضرة في الجنود قاصدا بني يزناسن الذيـن تمادوا عـلى العصيان فاقتحم عليهم جبلهم ، واعتسف ربوعهـم واتنسف زروعهـم وضروعهم ، وحرق قراهم ، وقتل رجالهم وسبى ذراريهم ، فطلبوا الامان فأمن بقيتهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح التى عندهم فدفعوها من غيـر توقف ، وقاموا بدعوته جبرا عليهم ، ثم نزل بسيط آنكـاد وحضر عنـده قبائل الاحلاف وسقونة فأرجلهم مـن خيولهم وجردهم مـن سلاحهـم وانتزعها منهم ، وألزم أشياخهم أن يجمعوا له ما بقي بحلتهم منها ففعلوا ثم فعل بالمهاية وحميان كذلك ، وانكفأ راجعا الى المغرب .

ولما نزل وادى صا أمر ببناء قلعة تاوريرت التى بناها السلطان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق المرينى فجددها وأنزل فيها مائة فارس من عبيده بعيالهم وأولادهم ، ولما نزل بوادى مسون أمر أن تبنى به قلعة أخـرى بجوار القديمة وأنزل فيها مائة فارس من العبيد كذلك ، ثم أنزل بتـازا ألفين وخمسمائة من خيل العبيد بعيالهم وولى عليهم منصور بن الرامى وجعل نظر القلاع التى بتازا ووادى صا للقائد منصور المذكور ، وعـين لكل قبيلة من قبائل تلك البلاد قلعتها التى تدفع بها زكواتهـا وأعشارهـا لمؤنـة العبيد وعلف خيولهم ، وهـم حراس الطريق فمن وقع فى أرضـه شيء عوقب عليه قائد تلك القلعة . ولما وصل السلطان الى الكور أمـر أن

تبنى به قلعة أيضا وأنزل بها مائة فارس من عبيده بعيالهم .

ولما انتهى الى فاس أنزل بقصبة الخميس التى بنى سورها المولى الرشيد خمسمائة من الخيل بعيالهم من شراقة العرب والبربر الذين قدموا مع المولى الرشيد رحمه الله حسبما تقدمت الاشارة اليه .

ثم أمر رحمه الله ببناء قلعة بالمهدومة وأخرى بالجديدة من أعمال مكناسة وأنزل بكل واحدة مائة من خيل العبيد بعيالهم لحراسة الطرقات وبكل قلعة فندق لمبيت القوافل وأبناء السبيل ، ثم دخل السلطان رحمه الله حضرته مؤيدا منصورا وذلك فى خامس شعبان سنة احدى وتسعين وألف.

فتح المهدية ومحاربة ابن محرز بالسوس وما تخلل ذلك

قد تقدم لنا ما كان من استيلاء جنس الاصبنيون على المعمورة المسماة بالمهدية فى حدود العشرين بعد الالف وما كان بينهم وبين أبى عبد الله العياشى وأهل سلا من الحروب ، واستمروا بها الى أن كانت سنة اثنتين وتسعين وألف ، فافتتحها جيش السلطان المولى اسمعيل رحمه الله .

قال فى « النزهة » : « ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه ، قال وقد فتح السلطان المولى اسمعيل عدة مدن من يد النصارى كانت من مفاسد المغرب ، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار . من ذلك المعمورة فانه رحمه الله قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثانى سنة اثنتين وتسعين والف وأسر بها نحو الثلاثمائة من الكفار » اه وقال فى « نشر المثانى » : « كان فتح المهدية عنوة عند صلاة الجمعة خامس عشر ربيع الثانى من السنة قيل بقتال وقيل بدون قتال وانما أخذت بقطع الماء عنها وجىء بالنصارى الذين كانوا بها أسارى ولم يصب أحد من المسلمين .

وقال فى « البستان » وفى سنة اثنتين وتسعين وألف ورد الخبر على

السلطان اسمعيل بأن ابن أخيه المولى أحمد بن محرز الذى بالسوس قد استولى على بلاد آيت زينب وقويت شوكته ، فأمر السلطان رحمه الله بتفريق الراتب وتجهيز العساكر اليه من فاس ، وتوجهت فى ثامن ربيع الاول من السنة ، ثم بلغه أن العسكر المحاصر للمهدية قد اشرف على فتحها وتوقفوا على حضوره ، فنهض رحمه الله اليهم حتى حضر الفتح ، وأخرج رئيس النصارى فأمنه وأمن أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة أنفس ، وأما الغنيمة فقد أحرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع القائد عمر بن حدو البطوئى ، ورجع السلطان الى مكناسة بعد أن أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها ، وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة أهل سلا منهم الولى الصالح أبو العباس سيدى أحمد حجى من صلحائها المشهورين بها . واعلم أن السور العادى الذى اليوم بالمهدية هو من بناء البرتقال أيام استيلائهم عليها فى دولة الوطاسيين كما مر .

ولما فرغ المجاهدون من أمر المهدية ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو فأصابه الوباء فمات فى الطريق ، وتولى رئاسة المجاهدين أخوه القائد أحمد ابن حدو ، تقسمها هو والقائد أبو الحسن على بن عبد الله الريفى ، وكان أولاد الريفى هؤلاء من الشهرة فى الجهاد والمكانة فى الشجاعة ومكانة الحرب بمنزلة أولاد النقسيس وأولاد أبى الليف وأضرابهم رحم الله الجميع .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق ، فنهب بنى عامر ورجع الى مكناسة ، وأمر باخراج أهل الذمة من المدينة ، وبنى لهم حارة خارجها بالموضع المعروف بريمة ، وكلف أهل تافيلالت الذين بفاس بالرحيل الى مكناسة والسكنى بحارة اليهود القديمة التى أخليت ، فلم يزل أهل تافيلالت يذهبون ارسالا ويسكنونها بالكراء حتى ضاقت بهم .

ثم بلغه أن الترك قد خرجوا بعسكرهم واستولوا على بنى يزناسن وعلى دار ابن مشعل ، وأنهم قد مدوا يد الوفاق الى ابن محرز وراسلوه وراسلهم

وانبرم كلامهم معه على حرب السلطان ، وبلغه مثل ذلك من نائبه بمراكش ، فكتب اليه أن يحتاط في حراسة مراكش . ويأخذ بالحزم في ذلك ، ويقيم في نحر ابن محرز الى ان يرجع السلطان من غزو تلمسان ، ثم خرج رحمه الله بالعساكر لمصادمة الترك فوجدهم قد رجعوا الى بلادهم لما بلغهم من خروج النصارى بشرشال ، فساروا اليهم وفتكوا فيهم فتكة بكرا وردوهم على أعقابهم صاغرين ، ورجع السلطان رحمه الله من وجهته . وقد دخلت سنة أربع وتسعين وألف فسار على تفئته الى مراكش . فأراح بها ، ثم نهض منها الى السوس فالتقى بابن أخيه المولى أحمد بن محرز في أواخر ربيع الثاني من السنة ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، واستمر القتال نحوا من خمسة وعشرين يوما هلك فيها من الفريقين مالا يحصى ، ودخل ابن محرز تارودانت فتحصن بها ، وكان الوقت وقت غلاء فضاق الامر على أهل الحركة ، فجعلوا يهربون وكثر فيهم السجن والضرب والرد اليها في الحين ، ثم كان بينهما حرب أخرى هلك فيها خلق كثير نحو ألفين وجرح السلطان ، وجرح ابن محرز أيضا ، وذلك في أواسط جمادى الآخرة من السنة ، واستمر الحال على ذلك الى رمضان من السنة .

قال أبو عبد الله أكنسوس حدثني بعض الثقات أن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لما اعياه أمر ابن اخيه المذكور أصبح ذات يوم دهشا كئيبا فقال لوزيره الفقيه أبي العباس اليحمدي : اني رأيت في هذه الليلة رؤيا أحزنتني الى الغاية » فقال : « وماهي يامولانا ؟ وعسى أن تكون خيرا » قال : « رأيت كأن هذه الجنود التي معنا ما بقي منها أحد ولم يبق الا أنا وأنت مختفيين في غار مظلم فسجد الوزير اليحمدي شكرا لله تعالى وأطال السجود ثم رفع رأسه وقال : « أبشر يامولانا فقد نصرنا الله على هذا الرجل » فقال له السلطان : « ومن أين لك ذلك ؟ » فقال له : «من قوله تعالى ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . قال عليه الصلاة والسلام: «فما ظنك باثنين الله ثالثهما» فسر السلطان بذلك غاية السرور . وانسرى عنه ما كان يجده من الغم . وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى له ،

وعلى اثر ذلك وقع الصلح بينهما فى رمضان ، ورجع السلطان الى حضرته فدخلها فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة .

امتحان القضاة والسبب فيه



قال العلامة القادرى فى « الازهار الندية » : « وفى هذه السنة أعنى سنة أربع وتسعين وألف أمر السلطان بالقبض على جميع القضاة وامتحنوا ووصفوا بالجهل وسجنوا فى مشور فاس الجديد حتى يتعلموا مالا بد منه من أحكام ماهم مدفوعون اليه ، ثم أخرجوا أيام المولد الكريم الى مكناسة فهددوا بها ايضا حتى أمر بحبس بعضهم أو قتله ثم أطلقوا معزولين » اه قال أكنسوس : « ولعل المراد بهم قضاة البوادى ومن فى معناهم » قلت : ولم أر فى الازهار شيئا من هذا ولعله فى نسخة الاصل لانهم ذكروا انهما نسختان احداهما مختصرة من الاخرى والله أعلم

غزو البربر وبناء القلاع بازاء معاقلهم

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وألف فيها خرج السلطان فى العساكر الى جبال فزاز لحرب صنهاجة من البربر الذين هنالك ، فلما سمعوا بخروج السلطان انهزموا الى ملوية ، فدخل السلطان بلادهم واختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم ، ثم نزل بعين آصرو فأمر ببناء قلعة هنالك بسفح الجبل أيضا، ثم تبع آثارهم الى أن دخلوا جبل العياشى ، وتربص رحمه الله بملوية الى أن دخل فصل الشتاء ، وكان قصده بذلك التربص اتمام سور القلعتين ، ولما عزم على الرجوع أنزل بقلعة آصرو ألف فارس ، وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس فاخذوا بمخنقهم ، واستراح الناس من عيثهم ببسيط سائس ، ولما منعوا من السهل وانقطعت عنهم الميرة وقلت الاقوات خشعوا ونزل وفدهم فقدموا

مكناسة على السلطان تائبين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث والنتاج ، فدفعوها عن يد وهم صاغرون ، وهؤلاء هم آيت ادراسن ، فأعطاهم السلطان رحمه الله عشرين ألفا من الغنم ألزمهم برعايتها وحفظها ، وأسقط عنهم الوظائف فصلحت أحوالهم ، وصاروا فى كل عام يدفعون صوفها وسمنها ويزيدهم الغنم الى أن بلغ عددها ستين ألفا وقلت شوكتهم وذهب بأسهم .

فتح طنجة

■

قد تقدم لنا أن طنجة صارت الى جنس النجليز من يد البرتقال ، واستمرت بيده الى سنة خمس وتسعين وألف ، فعقد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله للقائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى على جيش المجاهدين ووجهه لحصار طنجة ، فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا فى البحر ، وتركوها خاوية على عروشها ، وذلك فى ربيع الاول سنة خمس وتسعين وألف قاله فى « النزهة » وقال فى « البستان » لما ضاق الامر على النصارى الذين بطنجة وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين على بن عبد الله الريفى فى بناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها فى فاتح جمادى الاولى من السنة، قلت وأعقاب هذا القائد لازالوا اليوم بطنجة وكثيرا ما تكون فيهم الرياسة هنالك .

ثم اتفق أن نشب بقرب ساحلها مركب قرصانى جاء مددا لاهل سبتة فيه أموال وبضائع فحارب المسلمون أهله عليه واحتووا على ما فيه ، وألزم السلطان قبيلة غمارة بجر مدافعه النحاسية الى مكناسة ، وأرسل الرماة من أهل فاس لجرها أيضا فأتوا بها لاربعين يوما والله غالب على أمره .

غزو البربر ثانيا وبناء القلاع فى نحورهم

ثم دخلت سنة ست وتسعين وألف فيها خرج السلطان غازيا بلاد ملوية، وجعل طريقه على مدينة صفرو ، ففرت قبائل البربر الى رؤوس الجبال وهم آيت يوسى وشغروسن وأيوب وعلاهم وقادم وحيون ومديونة ، فأمر السلطان ببناء قلعة بآعليل وأخرى على وادى كيكو من أسفله ، وأخرى على وادى سكورة وأخرى على وادى تاشواكت ثم خرج السلطان بملوية ففرت القبائل المذكورة الى جبل العياشى وتفرقوا فى شعابه ، فأمر ببناء قلعة بدار الطمع ، وقلعة بتابوست ، وقلعة بقصر بنى مطير ، وقلعة بوطواط ، وقلعة بالقصابى ، وأقام على نهر ملوية يبث السرايا ويشن الغارات على البربر قريبا من سنة والعمل مستمر فى بناء القلاع الى أن أكملت أسوارها ، وأنزل رحمه الله بكل قلعة أربعمائة من خيل العبيد بعيالهم ، وجاءته وفود البربر تائبين طائعين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها ، وصفا له رحمه الله هذا الربع الشرقى من جبل درن والله ولى التوفيق بمنه .

مقتل المولى احمد بن محرز وفتح تارودانت وما يتصل بذلك

وفى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وألف بلغ السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وهو بمكناسة أن أخاه المولى الحران ، وابن أخيه المولى أحمد بن محرز قد دخلا قصبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات ، فنهض اليهما ووالى السير حتى أناخ بكلكله على تارودانت وحاصرهما بها أياما ، فاتفق أن ابن محرز خرج ذات يوم فى جماعة من عبيده لزيارة بعض الاولياء فلقيه جماعة من زرارة أصحاب السلطان فلم يعرفوه ، وظنوا أنه بعض قواد ابن محرز فشدوا عليه فماصعهم هنيئة ثم قتلوه فاذا هو ابن محرز .

ولما اتصل الخبر بالسلطان خرج حتى وقف عليه فعرفه ، وأمر بتجهيزه ودفنه ، فدفن مع الغرناطي أحد قواد الجيش ، وكان قد قتل ذلك اليوم .
وكان مقتل المولى أحمد رحمه الله في أواسط ذي القعدة سنة ست وتسعين وألف بعد تشغيبه على السلطان أربع عشرة سنة ، ثم بعد أيام خرج أهل تارودانت ليلا الى قبر المولى أحمد فنبشوه ونبشوا قبر الغرناطي لانه كان قد التبس عليهم به فاستخرجوهما معا حتى عرفوا المولى أحمد فحملوه في تابوته، وتركوا الغرناطي على شفير قبره ، واستمر المولى الحران محصورا بتارودانت والحرب قائمة على ساق الى أن دخلت سنة سبع وتسعين وألف، فكانت حرب هلك فيها نحو الستمائة نفس من الجند منهم القائد زيتون ، والباشا حمدان وغيرهما ، ثم كانت حرب أخرى أعظم من الاولى ثم ثالثة كذلك هلك فيها القائد أبو زيد عبد الرحمن الروسي ، وتولى مكانه ابن الغرناطي ، واستمر الحال بها الى جمدى الاولى من سنة ثمان وتسعين وألف فاقتحم السلطان تارودانت عنوة بالسيف واستباحها ، واستولى عليها وفر المولى الحران الى حيث أمن على نفسه .

ولما اتصل خبر الفتح بأهل فاس عينوا وفدا من كبرائهم وأشرافهم وعلمائهم فقدموا على السلطان بقصد التهنئة يقدمهم ولده المولى محمد بن اسمعيل . فأكرم وفادتهم ، وخرج أولاد النقسيس من سبتة ، وكانوا قد لجأوا اليها بعد مقتل الخضر غيلان، فقدموا على السلطان بعسكره من تارودانت فأمر بردهم الى تطاوين وقتلهم بها ، وأمر بقتل من كان منهم مسجونا بفاس فقتلوا أجمعون رحمهم الله ، ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف فيها قفل السلطان من السوس فدخل دار ملكه مكناسة واستقر بها ، وبعث الى عامل فاس أن يخرج من بها من أهل الريف الى تارودانت بقصد عمارتها والسكنى بها، وفي خامس جمادى الاولى من السنة استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضيه ابى عبد الله المجاصي فحضروا وأكرمهم ووصلهم .

غزو برابرة فازاز وبناء قلعة آدخسان

لما تهيأ السلطان رحمه الله لغزو أهل جبل فازاز نهض اليهم ، وصعد الجبل من الناحية الغربيـة فأول من قدم عليه من برابرتـه بالطاعة زمـور وبنو حكم فولى عليهم رئيسهم بايشى القبلى فاستصفى منهم الخيل والسلاح، ثم تجاوزهما الى المال فاستصفاه أيضا ، وجمع ذلك كله وقدم به على السلطان وهو ببسيط آدخسان ، فقدمه اليه فأنكر السلطان عليه ذلك ، وقال له : « ما حملك على ما فعلت ولم آمرك به ؟ » فقال له : « يامولانا ان كان غرضك فى صلاحهم وفلاحهم فهو الذى فعلت لك ولهم ، وان سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا أنفسهم ، وانما طهرتهم من الحرام ليشتغلوا باكتساب الحلال فانـه ينمو ويزكو » فاستحسن السلطان قوله وأمضى فعله ، وأقـام رحمه الله بآدخسان يحارب آيت ومالو سنة كاملـة حتى بنى قلعة آدخسان الجديدة بمحل القديمة التى كان بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه اللـه وخربت ، ولما دخل فصل الشتاء أنزل بالقصبة ألفا وخمسمائة فارس من عبيد أهـل دكالة الذين كانوا بوجه عروس نقلهم اليها باولادهم ، وأنزل بزاويـة أهل الدلاء ألفا وخمسمائة فارس من عبيد الشاوية الذين كانوا بوجه عروس أيضا نقلهم بعيالهم وأمرهم بحصار البربر ومنعهم من النزول للمرعى والحرث ونحوهما ، ثم قفل الى مكناسة . قال صاحب « البستان » ، وهو أبو القـاسم الصيانى: وفى هذه المرة نقل معه جدنا الفقيه الاستاذ أبا الحسن على بن ابراهيم بأولاده الى مكناسة ، وسبب ذلك أنه لما نزل بآدخسان واجتمع عليه الاشراف الذين بآركو قال لهم : « دلونى على رجل صاحب فقه وديـن يؤمنى فـى الصلوات » فقالوا له : « ليس بهذا الجبل أتقى من سيدى على بن ابراهيـم » فأتوا به فكان امامه فى المحلة ، ولما قفل اخذه معه قال : « فهذا سبب انتقـال جدنا من آركو الى الحضر » اهـ

بيان تربية اولاد عبيد الديوان وكيفية تأديبهم

قد قدمنا ان جمهور عبيد البخارى كانوا بالمحلة من مشرع الرملة وانهم تناسلوا بها وكثروا الى الغاية فلما كانت سنة مائة والف أمر السلطان رحمه الله اولئك العبيد أن يأتوه بأبنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق ، فلما قدموا عليه فرق البنات ع لى عريفات داره ، كل طائفة في قصر للتربية والتأديب ، وفرق الاولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها ، حتى اذا أكملوا سنة ، نقلهم الى سوق البغال الحاملة للآجر والزليج والقرمود والخشب ونحو ذلك ، حتى اذا اكملوا سنة ، نقلهم الى خدمة المركز وضرب ألواح الطابية ، حتى اذا أكملوا سنة ، نقلهم الى المرتبة الاولى فى الجندية ، فكساهم ودفع اليهم السلاح يتدربون به على الجندية وطرقها ، حتى اذا أكملوا سنة ، دفع اليهم الخيل يركبونها أعراء بلا سروج ويجرونها فى الميدان للتمرس بها والتدرب على ركوبها ، حتى اذا اكملوا سنة ، وملكوا رؤوسها دفع اليهم السروج فيركبونها بها ويتعلمون الكر والفر والثقافة فى المطاعنة والمراماة على صهواتها ، حتى اذا أكملوا سنة بعد ذلك ، صاروا فى عداد الجند المقاتلة ، فيخرج لهم السلطان البنات اللاتى قدمن معهم، ويزوج كل واحد من الاولاد واحدة من البنات ، ويعطى الرجل عشرة مثاقيل مهر زوجته ، ويعطى المرأة خمسة مثاقيل شورتها ، ويو لى عليهم واحدا من آبائهم الكبار ، ويعطى ذلك القائد ما يبنى به داره وما يبنى به أخصاص أصحابه وهى المعروفة عندنا بالنواويل ، ويبعث بهم ا لى المحلة بعد ان يكتبوا فى ديوان العسكر ، واستمر الحال هكذا ففى كل سنة ياتى من المحلة عدد صغير ويتوجه اليها من عند السلطان عدد كبير ، من سنة مائة والف الى أن توفى السلطان رحمه الله فى التاريخ الآتى ، فبلغ عدد هذا العسكر البخارى مائة الف وخمسين ألفا ، منها ثمانون الفا مفرقة فى قلاع المغرب لعمارتها وحراسة طرقها

وسبعون ألفا بالمحلة ، وعدد القلاع التي بناها المـــولى اسمعيل رحمه الله بالمغرب ست وسبعون قلعة لا زالت قائمة العين والاثر بآفاق المغرب يعرفهـا الخاص والعام الى الآن ، هكذا وجد في كناش كاتب الدولتين الرشيديـــة والاسماعيلية الفقيه أبي الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني ، المتوفـى بتارودانت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف ، وكان عنده دفتر العسكر كله سواء السواد الاعظم والمتفرق في قلاع المغرب .

قال صاحب «البستان» : «وأين هذا مما نقلــه المؤرخون على وجـــه الغرابة : من ان الخليفة المعتصم بن الرشيد رحمهما الله بلغ عدد مماليكـــه الذين اشتراهم والذين جلبهم من بلاد الترك ثمانية عشر الفا» قال : وهذا العدد الذي جمعه أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله من العبيد لو خاض به البحر الى الاندلس وكانت تلك القلاع سفنا ومراكب جهادية لاستـــولى عليها والتوفيق من الله» اهـ قلتُ : وهو لعمري كلام مقبول لكـن الانسان مجبور في قالب مختار وتصاريف الامور جارية بيد الله لا بيد غيره وما ترك من الجهل شيئا من اراد أن يظهر في الوقت غير مـــا أظهره الله فيـــه . وقال الشاعـر :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ... ولا الصبابـة الا مـن يعانيهـــا

وقال الآخر :

لا تعذل المشتاق فـــي أشواقه ... حتى يكون حشاك في أحشائه

وقـــال :

واذا ما خـــلا الجبـان بأرض ... طلب الطعن وحده والنـــزالا

ومن أمثال العامة : «القاعد على الجرف محسن للسباحة» ، هذا كلـه بالنظر الى الحقيقة ، فأما الشريعة فقد قال تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الآية وعلى كل حال فلا يسوغ للانسان أن يهمـــل الاستعداد المأمور به شرعا ، ويكل الامر الى القدر ، والا فيكون مخطئـــا مخالفا للشرع والطبع قال صلى الله عليه وسلم للاعرابي الذي ترك ناقتـــه مرسلة : «أعقلها وتوكل» وقال الشاعر :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه   وليس عليه أن يساعده الدهر

اللهم انا نسألك العفو والعافية والتوفيق واللطف فيما جرت به المقادير ، يانعم المولى ونعم النصير

فتح العرائش

وفي هذه السنة أعني سنة مائة وألف في آخر شوال منها سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو البطوئي في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش وكان الاصبنيول خذله الله قد استولى عليها على يد الشيخ ابن المنصور السعدى كما مر ، فنزل القائد أبو العباس المذكور عليها وضيق على الكفار الذين بها وحاصرهم نحوا من ثلاثة أشهر ونصف كذا في «النزهة» وقال المؤرخ منويل : «ان مدة الحصار كانت خمسة اشهر» قال وكان طاغية الفرنسيس ، وهو لويز الرابع عشر ، قد أعان المولى اسمعيل على فتح العرائش وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة ثم أقلع عنها ثم بعد ذلك كان الفتح ، قال في « النزهة » : فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك أنهم حفروا المينات تحت خندق سورها الموالى للمرسى وملأوها بارودا ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى ما كان من النصارى على الاسوار فوقعت ملحمة عظيمة ، وفر باقيهم الى حصن القبيات الذى بناه المنصور السعدى واعتصموا به يوما وليلة ، فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الامان ، فأمنهم القائد أبو العباس المذكور على حكم السلطان ، فنزلوا عليه ، فأخذوا أسارى بأجمعهم ولم يعتق منهم الا اميرهم وحده ، وتم الفتح وذلك يوم الاربعاء الثامن عشر من المحرم سنة احدى ومائة والف . وما فى «البستان» وقلده صاحب «الجيش» : ان نصارى العرائش اعتصموا بحصن القبيات سنة كاملة خطأ لا يعول عليه .

وكان عدد نصارى «العرائش» قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومائتين ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو الفين ، وقتلوا منهم اثنتي عشرة مائة، ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصى كثرة ، فمن المدافع نحو مائة وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والباقي من الحديد ، ومنها مدفع يسمى : الغصاب طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب . ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال . كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السؤال . كذا في النزهة قال منويل في كتابه : «ان النصارى ما أسلموا أنفسهم حتى شرطوا شروطا معتبرة لكن السلطان نكث» اه قلت : قد حكى القاضي أبو القاسم العميري في فهرسته ما حاصله : «ان نصارى العرائش ادعوا ان الفتح المذكور انما كان صلحا وتأمينا لا عنوة ، ثم لما طال النزاع في ذلك أمر السلطان قاضي حضرته المكناسية أبا عبد الله محمد المعروف بأبي مدين ببيان الحكم في ذلك فأجاب جوابا طويلا حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه ، وحكم على اولئك النصارى بالاسر ، وقد ذكر ذلك بتمامه في الفهرسة المذكورة فلينظر هنالك . وأمر السلطان رحمه الله باشخاص اولئك النصارى الى مكناسة الزيتون وكانوا ألفا وثمانمائة على ما في البستان ، فكان يستخدمهم مع غيرهم من المساجين والاسرى في بناء قصوره بالنهار ، ويبيتون ليلا في الدهليز ، وهو في عرف المغاربة هري تحت الارض ، وأسكن السلطان رحمه الله أهل الريف بالعرائش ، وأمر قائدهم ان يبني بها مسجدين وحماما ويبني داره بقلعتها وفي فتح العرائش أنشد الخطيب البليغ أديب فاس ومفتيها أبو محمد عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني فقال :

ألا أبشر فهذا الفتح نور قد انتظمت بعزكم الامور
وطير السعد نادى حيث غنى قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طرا وطاب العيش واتصل السرور
حميتم بيضة الاسلام لما بعين الحق قد حرس الثغور

وجاهدتم وقاتلتم فأنتم — لدين الله أقمار تنير
وأطلعتم صوارمكم نجوما — لدى هيجاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا — وفي يوم الوغا الاسد الهصور
وفي ثغر العرائش قد تبدى — تقدركم على الشعرى الظهور
لقد كان الملوك فساوموها — وراموها وبان لها نفور
فلما جئها انقادت وقالت — اليك بحق مولانا المصير
ملكت قياد عزتها بذل — فما أغنى الحصار ولا العبور
قهرتهم بأبطال ضخام — على الهيجاء كلهم جسور
فكم رأس من الكفار امسى — قطيع الرأس مجرورا يخور
وكم نحر قلادته رماح — وسن الرمح مركزه النحور
وكم اسرى وكم قتلى بأرض — وكم جرحى دماؤهم تفور
تمر بها الطيور فتنتقيها — وبات الذئب وهو لها شكور
واضحى الناس كلهم نشاوى — على طرب وما شربت خمور
فبشراكم بهذا الفتح نور — وبشراكم بما من الغفور
به زادت مآثركم علوا — وقد عظمت به لكم الاجور
الا يامعشر الكفار هذا — يبددكم وليس له فتور
ألا يا أهل سبتة قد اتاكم — بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاء سبتة في عشى — تناديه اذا كان البكور
ووهران تنادي كل يوم — متى يأتي الامام متى يزور
متى يأتي ويفتحها سريعا — ويلحق أهلها منه ثبور
فيهزمهم ويقتلهم ويسبى — وسيف الحق في يده ينور
أيامولاى قم وانهض وشمر — لاندلس فأنت لها الامير
وجاهدهم وحاربهم وفرق — جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها — كما قد قيل بر او بحور
لسان الحال ينشد كل يوم — ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنال المجد طرا — ويأتى العز والملك الكبير

وذلكم بعون الله سهل ... ومن بركاتكم أمر يسير
أيامولاى اسمعيل هذا ... عبيدكم الضعيف المستجير
يناديكم بناديكم ويدعو ... دعاء لا تعييه الدهور
فيارب البرية يا الهي ... ويارحمن يانعم المجير
أنب هذا الامير بكل خير ... ولا تجعل تجارته تبور
وابق الملك فيه وفى بنيه ... ولو كرهت زيود او عمور
ونحن رعية نرجو هناء ... وبالسلطان تنتظم الامور
عليكم من عبيدكم سلام ... مدى الدنيا يضمخه العبير
يعم جنابكم ما قال صب ... ألا أبشر فهذا الفتح نور

وقال فى ذلك الفقيه العالم الورع الشهير أبو محمد عبد السلام ابن حمدون جسوس رحمه الله

رفعت منازل سبتة أقوالها ... تشكو اليكم بالذى قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا ... وتنبهوا كى تسمعوا تسآلها
يابن النبى الهاشمى محمد ... قل ياأمير المؤمنين أنا لها
فلقد قضيتم للعرائش حاجة ... مع طنجة فاقضوا لذى آمالها
عار عليكم أن تكون أسيرة ... بجواركم وجنودكم تغزي لها
ان لم تكونوا آخذين بثأرها ... من ذا يفك من الوثاق حبالها ؟
لا تسمعن من جاهل ومثبط ... ومصعب من جهله أحوالها
ان الذين تقدموا قد جاهدوا ... بنفوسهم وبمالهم أمثالها
فتملكوا أملاكها وديارها ... وتقسموا أموالها ورجالها
فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا ... حتى تراهم نازلين جبالها
وأمدهم بمؤونة ومعونة ... كيفما تقطع بالعدا اوصالها
وارفع لهذا الغرب رأسا انه ... فى الضعف ما دام العدا أنزالها
أبقاك ربى للخلافة عدة ... تقفو الشريعة موثرا أفعالها
واقبل هدية من أتى بنصيحة ... يبغى الثواب ولا تقل من قالها

وقال فى ذلك الشريف الاديب أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادرى :

علا عرش دين الله كل العرائش وهـد بنصر الله قصر العرائش

وهي طويلة انظرها في نشر المثاني ان شئت ، ثم في الثاني والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة نهى السلطان عن لبس النعال السود ونادى بذلك في سائر أمصار المغرب ، وأمر بلبس النعال الصفر مكانها لما قيل : من أن الناس اتخذوا النعال السود منذ استولى النصارى على العرائش على يد المأمون السعدى كما تقدم ، وفي أوائل ذي الحجة من هذه السنة قتل السلطان ثلاثة وستين رجلا من الطائفة المسمون بالعكاكزة

فتح آصيلا

ولما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا الى مدينة آصيلا فنزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة ، وأظنهم الاصبنيول ، الى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ ، فطلبوا الامان فامنوهم على حكم السلطان ولما لم يطمئنوا لذلك ركبوا من الليل سفنهم ونجوا الى بلادهم ، ودخل المسلمون المدينة فملكوها ، وذلك سنة اثنتين ومائة والف ، وعمرها أهل الريف أيضا، وبنى بها قائدهم مسجدين ومدرسة وحماما وبنى داره بقلعتها والله أعلم

حضار سبتة

ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من آصيلا الى سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد في مقاتلتها ، وأمدهم السلطان بعسكر من عبيده، وامر قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة على سبتة ، وكذلك أمر أهل فاس أن يبعثوا بحصتهم اليها ، فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفا ، وتقدم السلطان اليهم في الجد والاجتهاد فكان القتال لاينقطع عنها صباحا ومساء ، وطال الامد حتى أن السلطان رحمه الله اتهم القواد

الذين كانوا على حصارها بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم ، مع أنهم قد سئموا كثرة الاسفار ومشقات الحروب ، واستمر الحال الى ان مات القائد أبو الحسن على بن عبد الله الريفي ، وولى بعده ابنه القائد أبو العباس أحمد بن على ، والقتال لا زال والجال ما حال ، وفي كل سنة يتعاقب الغزاة عليها ، والسلطان مشتغل بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم ، ولم يهيىء الله فتحها على يديه ، ودار القائد أحمد بن على ومسجده اللذان بناهما بازاء سبتة أيام الحصار لا زالا قائمي العين والاثر الى اليوم . وحكى الغزال في رحلته: أنه رأى باحد ابواب سبتة خرقا قديما لم يصلح فسألوا أهلها عنه فقالوا انه من أثر الرمي الذي كان يرميه الجيش الاسماعيلي وهو أثر كسرة خرقت الباب ونفذت الى داخل البلد وتركناه على حاله ليعتبر به من يأتي بعدنا ويزداد احتياطا وحزما أو كلاما هذا معناه والله تعالى أعلم .

غزو السلطان المولى اسماعيل برابرة فازاز وايقاعه بهم

كان السلطان المولى اسماعيل رحمه الله في هذه المدة مشتغلا بتمهيد المغرب واستنزال اممه من معاقلهم الى ان فتح أقطاره كلها وبنى قلاعها ورتب حاميتها ، ولم يبق له بالمغرب كله الا قنة جبل فازاز الذي فيه آيت ومالو وآيت يف المال وآيت يسرى ، فعزم على النهوض اليه وافتضاض عذرته .

ولما اراد الخروج اليهم استخلف على فاس الجديد كبير أولاده المولى أبا العلاء محرزا ، وبعث الى مراكش ابنه المولى أبا اليمن المأمون ، وترك بمكناسة ابنه المولى محمد المدعو زيدان ، وكان فارس أولاده الموجودين يومئذ .

ولما ولى المأمون على مراكش أمر برئيس الحضرة وامام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليحمدى أن يعطيه التقليد ويوصيه بما تنبغي الوصاية به ،

وكان المولى المأمون منحرفا عن الوزير المذكور فمشى اليه على كره منه وحاز منه التقليد واستمع لوصيته امتثالا لامر والده ، ثم عاد اليه وقال : «يامولانا ان اليحمدى ينقصك ويزعم انه الذى علمك دينك» فى كلام آخر فقال له السلطان رحمه الله : «والله ان كان قد قال ذلك انه لصادق فانه الذى علمنى دينى وعرفنى بربى» نقل هذه الحكاية صاحب «البستان» وصاحب «الجيش» وكلاهما قال : انه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله ، وهى منقبة فخيمة للمولى اسمعيل فى الخضوع للحق والاعتراف به رحم الله الجميع .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة والف والسلطان عازم على النهوض الى فازاز وبعث مع ذلك بالراتب والعدة الى أهل فاس وامرهم بالنهوض الى الترك مع ولده المولى زيدان فخرجوا فى رمضان من السنة وبعد العيد أخذ السلطان فى الاستعداد للنهوض الى فازاز ثم بدا له فخرج فى اثر المولى زيدان فلحق باطراف المغرب الاوسط وأبرم الصلح مع الترك ورجع الى الحضرة هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر ، والذى رأيته فى «نشر المثانى» هو ما نصه : قد اختار السلطان المولى اسمعيل الفقيه أبا عبد الله محمد الطيب الفاسي لعقد المهادنة مع الترك فى حدود سنة ثلاث ومائة والف بعد وقعة المشارع معهم لعلمه وفصاحته وبيته، فذهب نحو الجزائر صحبة ولد السلطان وهو مولاى عبد الملك ، ومعهم الكاتب أبو عبد الله المدعو الوزير وغيرهم من وجوه الدولة الاسماعيلية ، فلما قاربوا الجزائر خرج صاحبها فى جنده وقتل ونهب حتى انتهى الخبر الى فاس بانهم قتلوا اجمع ، وصادف ذلك يوم عاشوراء فحزن الناس لذلك وأمسكوا عن الانفاق ، حتى بقى ما عهد أن يشترى فى ذلك اليوم ملقى لما عرا الناس من الغم ، ثم جاء الخبر بانهم قادمون بعافية ، وانهم وصلوا الى تازا ففرح الناس واستأنفوا الانفاق كيوم عاشوراء ، ومات بايشى القبلى فولى السلطان على زمور وبنى حكم ولده أبا الحسن على بن يشى .

ثم دخلت سنة أربع ومائة وألف وفيها تهيأ السلطان للنهوض الى

البربر أهل فازاز ، فاستنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار ، فنزل رحمه الله في جند العبيد ببسيط آدخسان ، ورتب على البرابر العساكر من كل جهة ، فبعث الباشا مساهلا فى خمسة وعشرين الفا من الرماة طلع بها من تادلا على وادى العبيد حتى نزل خلف آيت يسرى ، وبعث على بن بركات مع آيت يمو وآيت ادراسن فنزلوا بتغالين ، وبعث على بن يشى مع زموز وبنى حكم وأمره أن ينزل بعين شوعة ، وبعث الى اهل تدغة وفركلة وغريس والصباح أن يقدموا بجموعهم على على بن يشى ، وبعث اليه مع ذلك بعسكر الطبجية بالمدافع والمهاريس وسائر آلات الحرب ، وبعث نصارى العرائش يجرونها على طريق آعليل ثم على قصر بنى مطير الى ان اجتمعوا بعلى بن يشى على عين شوعة .

وضرب السلطان لامراء الجنود لانشاب الحرب موعدا معلوما . وقال لهم : « اذا كان وقت العشاء من ليلة كذا فليأخذ الطبجية فى اخراج المدافع والمهاريس بالكور والنب طوش ليلتهم ليحصل للبربر الدهش فاذا أصبحتم فليقدم كل قائد من ناحيته ، ولينشب الحرب ليكون القتال فى ساعة واحدة من جميع الجهات » ففعلوا ما أشار به عليهم .

ولما كانت الليلة المعينة لم يرع البربر الا رعود المدافع والمهاريس تصعق فى الجو ونيرانها تتقدح فى ظلمات الليل ، وأصداء الجبال تتجاوب من كل ناحية ، فقامت عليهم القيامة وظنوا أن الارض قد زالت بهم ، فقوضوا أبنيتهم وحملوا عيالاتهم للفرار ، وصاروا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . ولما اصبحوا زحف اليهم السلطان من ناحيته ، وزحفت اليهم العساكر من باقى الجهات ، واشتد القتال فانهزموا وتفرقوا فى الشعاب والاودية شذر مدر ، وصار كل من قصد منهم ثنية أو منفذا وجد العساكر مقبلة منها ، والمدافع مصوبة نحوها فحل بهم القضاء ، وتصرف فيهم البلاء كيف شاء ، فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم واولادهم ، ونهب أثاثهم وحيزت مواشيهم وأنعامهم ، واستلبت خيلهم وسلاحهم ، واستحر القتل والنهب فيهم ثلاثة

أيام والعساكر تلتقطهم من الاودية والشعاب ، وتستخرجهم من الكهوف والغيران ، وأمر السلطان قواده مساهلا وعلى بن يشى وعلى بن بركات بجمع رؤوس القتلى وجمع الخيل والسلاح ويوافوه به لآدخسان ، فجمعوا ما عثروا عليه من ذلك فكان عدد الرؤوس ينيف على اثنى عشر ألفا ، وعدد الخيل الفحول ينيف على عشرة آلاف ، وعدد المكاحل ينيف على ثلاثين ألفا، وبالاستيلاء على هؤلاء البربر كمل للسلطان المولى اسمعيل رحمه الله فتح المغرب ، واستولى عليه كله ولم يبق به عرق ينبض ، وكتب فى الديوان من آيت يمور ألف فارس أنزلهم مع على بن بركات بقلعة تغالين ، وأنزل محلتهم على رأس منزل آيت ومالو ، ولم يترك لقبيلة من قبائل المغرب خيلا ولا سلاحا ، وانما كانت الخيل والسلاح عند العبيد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين بسبتة .

قال أبو عبد الله أكنسوس رحمه الله : «وكان المولى اسمعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وادنى المفسدتين فى اضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدو الكافر . قال تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الآية ورأى المولى اسمعيل : أنه لما اعد ذلك العسكر القوى الشديد قام عن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة وأراحهم من كلفة القيام بالخيل والسلاح ، مع أن الفساد الذى يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم وذلك بقطع الطرقات ونهب الاموال وخلع اليد من الطاعة ، قال : وهذا القدر الذى اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور ولعله خفى على الشيخ اليوسى حتى كتب اليه برسالته المشهورة ، اه

قلت : ما فعله السلطان المولى اسمعيل رحمه الله من ذلك ظاهر المصلحة لا يخفى على احد وجه استحسانه ، ولا يتوهم عاقل أن أهل فازاز ومن فى معناهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد يوما ما فلا يحتاج السلطان رحمه الله فى مثل ذلك الى الاعتذار ، وقوله ان ذلك الاعتذار خفى على اليوسى ليس على ما ينبغى ، لان الشيخ اليوسى رحمه الله ما تكلم مع

السلطان فى امر اولئك القبائل ومن فى معناهم ، وانما كلامه معه فى امور ثلاثة : الاول فى جباية المال من وجهه وصرفه فى وجهه . الثانى : فى اقامة رسم الجهاد وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح . الثالث : فى الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية .

ونص هذه الرسالة : الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأرزه ، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه ، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه ، السلطان الاعظم الاجل الافخم ، مولانا اسمعيل ابن مولانا الشريف لا زالت أعلامه منصورة، وأيامه على العز واليمن مقصورة ، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته ، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والاجلال ، والدعاء لسيدنا بصالح الاحوال ، وذلك بعض ما اوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والاحسان ، والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والانعام والاكرام ، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التى اوجبتها منزلته السلطانية ، ومثابته الطوقية الفاطمية ، فكتبنا هذه البطاقة ، وهى فى الوقت منتهى الطاقة، وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا التشوق الى الموعظة والنصح ، والرغبة فى استفتاح أبواب الربح والنجح ، فأردنا ان نرسل الى سيدنا ما أن وفق إلى النهوض اليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة ، والارتقاء الى الدرجات الفاخرة ، ورجونا وان لم نكن أهلا لان نعظ ، أن يكون سيدنا أهلا لان يتعظ ، وان يحتمى من جميع المذام ويحتفظ ، فليعلم سيدنا أن الارض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له ، والناس عبيد لله سبحانه واماء له ، وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا ، فان قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح فهو خليفة الله فى أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى ، وان قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والافساد فهو متجاسر على مولاه فى مملكته ومتسلط ومتكبر فى الارض بغير الحق ، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير اذنه كيف يفعل به

يوم يتمكن منه ، ثم نقول : ان على السلطان حقوقا كثيرة لا تفى بها الطاقه، ولنقتصر منها على ثلاثة هى امهاتها ، الاول : جمع المال من حق وتفريقه في حق . الثاني : اقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله وفى معناه تعمير الثغور بما تحتاج اليه من عدد وعدة . الثالث : الانتصاف من الظالم للمظلوم . وفى معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم ، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فان تنبه وفطن فقد فاز ، وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة والا فقد أدينا الذى علينا ، أما الامر الاول فليعلم سيدنا أن المال الذى يجبى من الرعية قد أعد للمصالح التى ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من اهل البيت والعلماء والقضاة والائمة والمجاهدين والاجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح ، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها الا بوكيل ، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل ، فان استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه الى اليتامى بحسب ما يجب لكل فقد برىء من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم ، وحصل له أجران : أجر القبض وأجر الدفع ، وان هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له ، أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له ، وكذا ان استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لاربابها فهو ظالم ، فلينظر سيدنا فا نجباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا ، أما الدنيا فقد اخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شىء شهدناه لا شىء ظنناه ، ثم ان ارباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل اليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فان كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب وفى أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : «المغرور من غررتموه اهـ وان يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من

أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة　　يدى ولسانى والضمير المحجبا

وقد جبلت القلوب على حب من احسن اليها ولا يهملهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة اخرى كما قيل :

اذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء　　نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك من بغض لها غير أنه　　يريد سواها فهو يهوى انتقالها

وليعلم سيدنا ان السلطان اذا أخذ أموال العامة ونثرها فى الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون ، ويعلمون انه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من انفاق أموالهم فى مصالحهم والا فالعكس ، وأيضا السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية ، فاذا أحسن الى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء ، فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق ، واما الامر الثانى فقد ضاع أيضا وذلك أنه لم يتأت فى الوقت الا عمارة الثغور ، وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية ، وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله ، فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة ، وقد بلغنى اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصى والمقاليع ، وهذا وهن فى الدين ، وغرر على المسلمين ، وانما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة ، وتكليفهم الحركات واعطاء العدة كسائر الناس ، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية الى ماسة ، ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن اليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ، ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون اليه ، فهم حماة بيضة الاسلام ، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحى أن يكون أشد الناس رغبة فى الجهاد ، ونجدة فى المضايق وغيرة على الاسلام ، ولا يولى فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على اريكته والله الموفق .

وأما الامر الثالث فقد اختل أيضا لان المنتصبين للانتصاف بين الناس فى البلدان ، وهم العمال وخدامهم ، هم المشتغلون بظلم الناس ، فكيف يزيل الظلم من يفعله ؟ ومن ذهب يشتكى سبقوه الى الباب فزادوا عليه فلا يقدر

أحد أن يشتكي فليتق الله سيدنا ، وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب ، وليجهد في العدل فانه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا ، قال تعالى : «ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » الآية . وقال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز» ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال : «الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الامور الاربعة ، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا ان ذلك من اخلالهم بهذه الامور ، فكان عليهم الرجوع الى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم اياه ، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على ان الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم ، وان العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر ، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل في الرعية ، استصلاحا لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين ، قال بعض الحكماء : « الملك بناء والجند أساسه واذا ضعف الاساس سقط البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بجباية ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بالعدل فالعدل أساس الجميع .» وقد صنع أرسطوطاليس الحكيم للملك الاسكندر الشكل المستدير وكتب عليه : « العالم بستان سياجه الدولة ، الدولة سلطان تعضده السنة ، السنة سياسة يسوسها الملك ، الملك راع يعضده الجيش ، الجيش أعوان يكفلهم المال ، المال رزق يجمعه الرعية ، الرعية عبيد يفودهم العدل ، العدل مألوف وبه صلاح العالم ، العالم بستان » الى آخره : وقال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقال صلى الله عليه وسلم : « ان رجالا يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة » أو كما قال وقال صلى الله عليه وسلم : « مامن وال يلي ولاية الا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان فاما عدل يفكه واما جور يوبقه » . وعن مولانا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: « رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالابطح

فقلت ياأمير المؤمنين « أين تسير ؟ » فقال : « بعير من ابل الصدقة شرد أطلبه » فقلت : « أذللت الخلفاء من بعدك » فقـال : « لا تلمني ، فوالذي بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق لو أن عناقا ضلت بشاطىء الفرات لاخذ بها عمر يوم القيامة انه لاحرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين » وقـد رأى رضى الله عنه شيخا يهوديا يسأل على الابواب فقال : « ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شابا ثم ضيعناك اليوم » وأمر أن يجرى عليه قوته من بيت المال. وليعلم سيدنا أن اول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المـال الا بحق ، وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي . وما يأتي وما يذر ، وقد كان بنو اسرائيل يكون فيهم الامير على يد نبي ، فالنبي يأمر والامير ينفذ لا غير ، ولما كانت هذه الامة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فلم يبق الا العلماء يقتدى بهم قال صلى الله عليه وسلم : « علمـاء أمتي كأنبياء بنى اسرائيل » فكان حقاً على هذه الامة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذا وعطاء ، وقد توفى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضى الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشترى فى السوق على عياله ، فلما بويع أخـذ ماله الذى للتجارة وذهب للسوق على عادته حتى رده علماء الصحابة ، وقالوا: « انك فى شغل بأمر الخلافة عن السوق » وفرضوا له ما يكفيه مع عياله ، وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منـه بما اقتضته الشريعـة لنفسه ولغيره ، وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده ، فعلى سيدنا أن يقتدى بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدى باهل الاهواء ، وليسأل من معه من الفقهاء الثقات كسيدى محمد بن الحسن ، وسيدى أحمد بن سعيد ، وغيرهما من العلمـاء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون فى الله لومة لائم فما أمروه بـه ممـا ذكرناه ومما لم نذكره فعله ، وما نهوه عنه انتهى ، هذه طريقة النجاه ان شاء الله تعالى ، نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقا وتسديدا ، وارشادا وتأيدا وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد ، وان يحسم بسيفـه أهل الزيغ والفســاد آمين والحمد لله رب العالمين » .

ولما فرغ السلطان رحمه الله من وقعة فازاز وآيت ومالو دعا على بن

يشى وعقد له على عشرة آلاف من الخيل وقال له : «لا أرى وجهك الا اذا أغرت على كروان وأتيتنى منهم بعدد هذه الرؤوس التى هنا» لانهم كانوا بوادى زيز يعيشون فى طريق سجلماسة وينهبون الرفاق ، فسار على بن يشى حتى صبحهم وهم غارون فنهب حللهم ومواشيهم وقتل منهم العدد الكثير ، ثم نادى فى تلك القبائل كلها من أتى برأس كروانى فله عشرة مثاقيل ، فصار كل من انحاز اليه أحد منهم يقطع رأسه ويأتى به اليه ، واستمر البحث عنهم فى المدر والوبر الى أن قضى من جماجمهم الوطر ، ولما اجتمعت عنده أعطى كل من أتى برأس مثقالا واحدا ، وجاء الى السلطان باثنى عشر ألف رأس كما اقترح عليه ، وفق ما اجتمع منها بآدخسان فشكر له فعله وولاه على قبائل العرب والبربر .

ودخلت سنة خمس ومائة وألف فلم يكن فيها شىء يذكر .

ثم دخلت سنة ست ومائة وألف ففى ربيع منها خرج المولى زيدان ابن السلطان بالعساكر قاصدا ناحية تلمسان بعد أن قتل النائب بفاس أبا العباس أحمد السلاوى فقاتل الترك ونهب ورجع .

ثم دخلت سنة سبع ومائة وألف فلم يكن فيها شىء يذكر .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة وألف ففى يوم عرفة منها قدم عشرة رجال من اصطنبول ومعهم كتاب من السلطان مصطفى بن محمد العثمانى صاحب القسطنطينية العظمى الى السلطان المولى اسمعيل يندبه الى الصلح مع أهل الجزائر فانتدب رحمه الله وامتثل .



امر السلطان المولى اسماعيل علماء فاس بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم منها وما نشأ عن ذلك

وفى ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ثمان ومائة وألف ورد كتاب من حضرة السلطان على القاضى والعلماء بفاس يعاتبهم ويوبخهم على عدم موافقتهم على تمليك العبيد المثبتين فى الديوان، ثم ورد كتاب آخر من السلطان يمدح العامة ويذم العلماء ويامر بعزل القاضى والشهود كذا فى «البستان» .

قال أبو عبد الله أكنسوس : «هذا الكلام الذى نقله صاحب «البستان» عن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فيه نظر فانه كلام مجمل، وقضية جمع العبيد مذكورة مفصلة فى الكناش الكبير الاسماعيلى وفيه تمييز المماليك الارقاء الذين اشتروا بالثمن على الوجه الشرعى بخطوط العدول ، وهؤلاء لا كلام فيهم ، وأما غيرهم من أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة فان السلطان لم يدع فيهم الملكية ، وانما الكلام فى جبرهم على الجندية ، ووجه السلطان الى علماء المشرق والمغرب السؤالات عن ذلك ، فكتبوا اليه الاجوبة المتضمنة للجواز بخطوطهم ، وكل ذلك فى الكناش المذكور مبسوطا ، وهو شىء كثير ، وحاشى الله مقام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله أن يدعى تملك الاحرار ، وقد تقدم كلام الشيخ اليوسى وبيان ما أنكر على السلطان ، ولو كان ما ذكر الصيانى متصفا به السلطان المذكور لكان ذلك أول ما ينكره اليوسى ، ولا يسعه السكوت عليه مع أنه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب ، نعم فى الكناش طوائف معروفة متميزة ثبت عند السلطان المذكور أنهم كانوا أرقاء للمنصور السعدى ، فلما انقرضت الدولة السعدية تفرقوا فى الاقطار ، وهم الذين تقدم الكلام عليهم فى دفتر عليليش ، وقد وقع البحث عن رقيتهم وسئل أهل الاسنان من كل قبيلة فعينوا الرقيق من غيره ، فثبت ذلك كله عند السلطان، ومع ذلك لم يدخلهم فى الارقاء الخلص الذين اشتروا

بالثمن بل ميزهم على حدة فكان ذلك الجند عنده على ثلاث مـراتب . المرتبة الاولى : خالص الرقية ، المرتبة الثانيـة : خالص الحريـة ، المرتبة الثالثة : واسطة بينهما » اه والله تعالى أعلم .

تفريق المولى اسماعيل رحمه الله اعمال المغرب على اولاده وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة احدى عشرة ومائة وألف فرق السلطـان المولى اسمعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده ، فعقد لابنه المولى أحمد على تادلا وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من العبيد حامية بها ، وأمره أن يزيد فى تلك القصبة فبنى قصبة جديدة ، وبنى بها قصره وبنى مسجدا أعظم من مسجد أبيه بالقصبة الاولى ، واستقر بها .

وعقد لابنه المولى عبد الملك على درعة وأعمالها وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل .

وعقد لابنه المولى محمد المدعو بالعالم على اقليـــم السوس ورتب معه ألـــف فارس .

وعقد لابنه المأمون الكبير الذى كان بمراكش على سجلماسة وأعمالها نقله مـن مراكش اليها وأنزلـه بقصبته التى بناها لـه بتيزيمى ورتب مـعه خمسمائة من الخيل ، وبعد سنتين توفى المولى المامون فولى السلطـان مكـانه ابنه المولى يوسف .

وعقد لابنه المولى زيدان على بلاد الشرق فكان يغير على رعايا الترك الى أن شردهـم عن نواحى تلمسان ، وانتهى فى بعض أيـام غاراتـه الى مدينة معسكر فاقتحمها وانتهب دار أميرها عثمان باى واخذ مـا فيهـا من الفرش والحرثى والادام وغير ذلك لمغيب عثمان عنها فى بعض غزواته ، فانتهز المولى

زيدان فيها الفرصة فكان ذلك سبب عزله عن الشرق وتولية أخيه المولى حفيد مكانه ، لان السلطان رحمه الله لم يرض فعله ونهبه لدار الباى للصلح الذى كان انعقد بينه وبين السلطان مصطفى العثمانى كما مر

ثم دخلت سنه اثنتى عشرة ومائة وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق وحارب الترك بها لانتقاض الصلح الذى كان بينه وبينهم بسبب غارات المولى زيدان المتقدمة ، ولما قفل السلطان من وجهه هذه هلك من جنده أثناء الطريق عدد كبير من العطش فمن أهل فاس بالخصوص أربعون نفسا سوى من هلك من غيرهم ، وفى هذه السنة قتل القائد عبد الخالق بن عبد الله الروسى صاحب فاس عبدا من عبيد دار السلطان دخل عليه بغير اذنه فقتله ، فبعث السلطان ولده المولى حفيدا من مكناسة الى فاس ليأتيه به فاستشفع اليه عبد الخالق بالعلماء والاشراف فلم يقيده المولى حفيد ودهب به مسرحا ، فلما دخل على السلطان بمكناسة عفا عنه ورجع الى فاس سالما

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة وألف فيها استدعى السلطان عبد الخالق الروسى من فاس ، فلما قدم عليه قتله ، وبعث ابنه المولى زيدان الى فاس وبعث معه حمدون بن عبد الله الروسى واليا عليها بدلا من أخيه المقتول والله أعلم

تنازع اولاد السلطان وثورة المولى محمد العالم منهم بالسوس ومقتله

لما دخلت سنة أربع عشرة ومائة وألف وصل المولى عبد الملك بن السلطان صاحب درعة الى ضريح المولى ادريس الاكبر بزرهون مهزوما لاستيلاء أخيه المولى ابى النصر على درعة وتغلبه على تلك النواحى ، فبعث السلطان ولده المولى الشريف الى درعة واليا عليها فثار المولى محمد العالم ببلاد السوس ودعا لنفسه وزحف الى مراكش ، فحاصرها فى رمضان من السنة المذكورة ، وفى العشرين من شوال اقتحمها عنوة بالسيف فقتل

ونهب ، ولما اتصل خبره بالسلطان بعث ولده المولى زيدان فى العساكر لقتاله، فقدم مراكش فصادف المولى محمدا قد خرج عنها وعاد الى تارودانت ، ولما احتل المولى زيدان بمراكش عاثت عساكره فيها ثم تبع أخاه المولى محمدا العالم الى السوس فنزل على تارودانت واتصلت الحرب بينهما الى ان دخلت سنة خمس عشرة ومائة والف وفيها قدم المولى حفيد حضرة فاس الجديد ووظف على أهل فاس مغرما ثقيلا وجاه الزعيم واليا عليها ، ثم عزل وولى مكانه أبو على الروسى فقتل اناسا وطلبهم ، وفى متم شوال من السنة المذكورة مات المولى حفيد بفاس الجديد ، هذا كله والحرب قائمة بين المولى زيدان والمولى محمد العالم .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة والف ففى ثالث صفر منها ورد أمر السلطان على فاس بأن تعطى كل عتبة عظم سرج ولا يحرر من ذلك أحد كائنا من كان .

وفى الحادى والعشرين من صفر المذكور ورد الخبر باستيلاء المولى زيدان على تارودانت وقبضه على اخيه المولى محمد العالم بعد محاربته له ثلاث سنين هلك فيها امم وقواد وروساء واعيان يطول ذكرهم ، ولما دخلها المولى زيدان عنوة قتل جميع من بها حتى النساء والصبيان هكذا فى البستان، وفى رابع ربيع الاول من السنة وصل المولى محمد العالم مقبوضا عليه الى وادى بهت فبعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف بعقبة بهت ، ولما وصل الى مكناسة خامس عشر الشهر المذكور هلك رحمه الله .

قال أبو عبد الله اكنسوس : لما توفى المولى محمد العالم صلى عليه القاضى أبو عبد الله محمد العربى بردلة فنقم عليه ذلك بعض الحسدة وأوغر قلب السلطان عليه وقال له : «انه يبغضك ولولا شدة بغضه لك ما نازع الى الصلاة على عدوك الذى ثار عليك ورام نزع الملك من يدك فكتب السلطان الى القاضى بردلة يتهدده ويوبخه فأجابه القاضى : «بان صلاته نظيرة صلاة الحسن البصرى على الحجاج بن يوسف فلما ليم على ذلك قال: استحييت من الله تعالى أن أستعظم ذنب الحجاج فى جنب كرم الله الغفور الرحيم ،

على أنني ما صليت عليه بغير اذن بل خرج الاذن من الدار المولوية وبلغ ذلك مبلغ الشهرة التي لم يبق معها شك وذلك على لسان مترجم ينسب الامر الى الجانب المولوى ، فلا افتيات بعد ذلك، بل الواجب هو القيام بذلك ولو بغير اذن اجلالا وتعظيما لجانب مولانا نصره الله ، ولما قال صلى الله عليه وسلم لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه فى قضية الحديبية : «امح لفظة رسول الله» قال على بن ابى طالب رضى الله عنه : «والله لا امحوه أبدا» فتعارض وجوب امتثال أمرالرسول بالمحو ووجوب الاجلال لمقامه الارفع فرجح رضى الله عنه وجوب الاجلال، ثم الصحيح ان الحدود كفارات ففي الصحيح عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له» اه باختصار .

قال اكنسوس وكانت هذه القضية من الفتن العظيمة بالمغرب عمت أهل القطر السوسي وخصت أعيان غيرهم من العلماء الذين كانوا يخالطون المولى محمد العالم لولا لطف الله تعالى ، فان الشيخ أبا عبد الله المسناوى الدلائي كان من اخص الناس بالمولى محمد ، فوشى به الى السلطان وقيل له : انه من شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام عليك فهو اذا موافق له على ذلك ، فبادر بعض اصحاب السلطان ممن كان يجنح للمسناوى بالاعتذار عنه بانه كان ينهاه عن القيام وأنشد للمسناوى فى ذلك :

مهلا فان لكل شيء غاية ... والدهر يعكس حيلة المحتال
فالبدر ليس يلوح ساطع نوره ... والشمس فاهرة السنا فى الحال
فاذا توارت بالحجاب فعند ذا ... يبدو بدو تعزز وجمال

فوقع ذلك من السلطان وتحقق براءة الشيخ رحم الله الجميع . قال أكنسوس : «وقولنا عمت اهل القطر السوسى لان ظهوره التام انما كان هنالك ولان جل من ينتسب الى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين له ومؤيدين فعله» اه قال فى نشر «المثانى» : كان المولى محمد العالم ماهرا فى فنون شتى كالنحو والبيان والمنطق والكلام والاصول ، وكان ينفعل للشعر وتأخذه اريحية الادب ، وكتب له أخوه مولاى الشريف فى صدر كتاب

بعث به اليه ما خاطب به سيف الدولة ابن حمدان أخاه ناصر الدولة :

رضيت لك العليا وان كنت أهلها   وقلت لهم بيني وبين أخي فرق

أما كنت ترضى أن أكون مصليا   اذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

فاقترح المولى محمد على الشيخ أبي عبد الله المسناوى أن ينوب عنه في الجواب لانه كان في جملة الوافدين عليه حينئذ فقال رحمه الله :

بلى قد رضيت أن تكون مجليا   ويتلو نداكم في العلا من له السبق

وما لي لا أرضى لك المجد كله   وأنت شقيق النفس ان عرف الحق

ولكن ذوو الضغن انتحوا ذات بيننا   فغادرها افسادهم وبها رفو

وفي هذا التاريخ أعني سنة سبع عشرة ومائة وألف انتزع النجليز جبل طارق من يد الاصبنيول حاصره ثلاثة أيام برا وبحرا في جند يسير فملكه لاشتغال الاصبنيول يومئذ عنه بأمر الفتنة التي حدثت في ملكه ، ولما ملكه النجليز عظم ذلك على أجناس الفرنج خصوصا الاصبنيول والفرنسيس، ورأوا ان النجليز قد ملك عليهم باب أوروبا ولذا حاصروه مرارا فلم يحصلوا منه على طائل واستمر في يده الى الآن .

ولما دخلت سنة تسع عشرة ومائة والف ورد الخبر بموت المولى زيدان ابن السلطان بتارودانت وحمل في تابوت الى مكناسة فدفن ليلا الى جانب أخيه المولى محمد العالم .

وفي هذه السنة أمر السلطان بهدم قصر البديع الذي بناه المنصور السعدي بقصبة مراكش وقد تقدم الكلام عليه . قال اليفرني في « النزهة » «ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شيء من أنقاض البديع» اه .

ثم دخلت سنة عشرين ومائة والف فيها افتتح الترك مدينة وهران وكانت بيد الاصبنيول مدة فردها الله على المسلمين يومئذ ، وفيها أمر السلطان بقراءة حديث الانصات يوم الجمعة عند خروج الخطيب وجلوسه على المنبر .

محنة الفقيه ابى محمد عبد السلام بن حمدون بسوس رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من امر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لعلماء عصره بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم من ذلك ، ولما كانت سنة عشرين ومائة وألف تجددت المحنة وألزم الرئيس أبـــو محمد عبد الله الروسى فقهاء فاس أن يكتبوا على الديوان المذكور فمن كتب نجا ومن أبى قبــض عليه ، ثم قبض على اولاد جسوس واستلب أموالهم ، واجلس فقيههم الشيخ أبا محمد عبد السلام بن حمدون جسوس بالسوق مقيدا يتطلب الفداء ثـم حمل مسجونا الى مكناسة .

ودخلت سنة احدى وعشرين ومائة والف فعفا السلطان عن الفقيــه المذكور وسرحه وبعث به الى فاس ليزعج الحراطين الذين بها الى مكناسة ، فقدم وازعجهم فى ربيع الاول من السنة المذكورة ، ثم كان عاقبة الفقيــه المذكور أن قتله القائد ابو على الحسن بن عبد الخالق الروسى ، فمن الناس من يقول : ان ذلك كان بأمر السلطان ، ومنهم من يقول بغير أمره اه . وقد ووقفت على تقييد بخط شيخنا الفقيه أبي عبد الله محمد بـن عبد العزيــز محبوبة السلاوى رحمه الله ، وكان واعية ، يقول فيه : ان امتحان الفقيه أبي محمد جسوس كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديـوان الحراطين الذى اخترعه عليليش المراكشى للسلطان الجليل المولى اسمعيل رحمه الله حسبما هو مشهور ، فهجاه بعض السفهاء وهجا فاسا من اجلــه ، وحقـد عليه السلطان فاستصفى عامة أمواله ، وأجرى عليه أنـواع العذاب ، وبيعت دوره واصوله وكتبه وجميع ما يملك هو واولاده ونساؤه ، ثـم صار يطاف به فى الاسواق وينادى عليه : من يفدى هذا الاسير ؟ والناس ترمى عليــه بالدراهم والحلى وغير ذلك من النفائس أياما كثيرة ، فيذهب الموكلون به مما يرمى عليه حيث ذهبوا بامواله ، وبقى ع لى ذلك قريبا من سنة فكان فى ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم ، ولما دنا وقت شهادته رحمه الله

وقد أيس من نفسه ، كتب بخطه رقعة وأذاعها في الناس يقول فيها ما نصه: «الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه اني ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك من العبيد الا لاني لم أجد له وجها ولا مسلكا ولا رخصة في الشرع ، واني ان وافقت عليه طوعا او كرها فقد خنت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود في النار بسببه ، وأيضا فاني نظرت في اخبار الائمة المتقدمين حين اكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع فرأيتهم ما آثروا اموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع واغترار الخلق بهم ، ومن ظن بي غير ذلك وافترى على ما لم اقله وما لم أفعله فالله الموعد بيني وبينه وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله ذنبه وستر في الدارين عيبه ضحوة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة احدى وعشرين ومائة والف » اهـ.

ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو علي الروسي بقتله فقتل رحمه الله خنقا بعد أن توضأ وصلى ما شاء الله ، ودعا قرب السحر من ليلة الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة ودفن ليلا على يد القائد أبي علي الروسي انتهى ما وجدناه مقيدا .

واعلم أن قضية الفقيه أبي محمد رحمه الله من القضايا الفظيعة في الاسلام ، والاسباب التي أثارتها أولا وأكدتها ثانيا حتى نفذ امر الله فيما قضاه وقدره في أزله بعضها ظاهر وبعضها خفي ، الله أعلم بحقيقته ، غير ان المعروف من حال الفقيه المذكور هو الصلابة في الدين والورع التام وناهيك بشهادته هذه دليلا على ذلك ، وقضيته قد تعارضت فيها الانقال ، ودخلها التعصب فلا يوقف منها على تحقيق ، وغفران الله وراء الجميع فانه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة . قال أبو عبد الله أكنسوس وقد جرى ذكر قضية الفقيه أبو محمد عبد السلام هذا بمجلس السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد فقال ما قتله مولانا اسمعيل وانما قتله أهل فاس» قال «ولم يمكنا ان نسأله عن حقيقة ذلك» اه وفي شعبان من السنة المذكورة عزل

السلطان أبا على الروسى عن فاس وولى مكانه حمدون الروسى ثم بعد مدة يسيرة أخر حمدون واعيد أبو على ، وفيها قدم عبد الله الروسى ومعه أمر السلطان ببيع أصول المجاورين بالمشرق يعنى بالحرمين الشريفين .

ثورة المولى ابى النصر ابن السلطان بالسوس ومقتله رحمه الله

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة والف .فيها ثار أبو النصر ابن السلطان المولى اسمعيل ببلاد السوس وخب فى الفتنة ووضع .

وفى سنة أربع وعشرين ومائة وألف سرح السلطان كاتبه الخياط ابن منصور من السجن وولاه درعة .

وفى سنة خمس وعشرين بعدها قتل السلطان الخياط المذكور واخاه عبد الرحمن ، وفيها ورد الخبر على السلطان بأن اولاد دليم من عرب السوس قد قتلوا ولده المولى أبا النصر الثائر بها .

وفى سنة ست وعشرين ومائة وألف قتل السلطان القائد أبا الدشيش وثلاثة من القواد معه وسبعة عشر من العبيد بمشرع الرملة ، وفى جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين ومائة والف توفيت الحرة عائشة مباركة زوج السلطان ، وهى ام ولده المولى أبى الحسن على الآتى ذكره .

وفى سنة تسع وعشرين ومائة والف سافر ولد السلطان وهو المولى أبو مروان بن اسمعيل الى الحجاز بقصد الحج ، وفى رمضان منها بعث والى وجدة الى الحضرة مائة رأس من رؤوس بنى يزناسن .

وفى سنة ثلاثين ومائة والف ورد كتاب من السلطان الى فاس يتضمن تحرير اهل فاس من الكلف كلها ، ثم ورد عقبه كتاب آخر يوبخهم فيه ويخيرهم بين أن يكونوا جيشا أو نائبة ، فقال رجل منهم يدعى ولد الصحراوى : «انما يكون الكلام أمام السلطان» فقتل واصبح مصلوبا ، فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبى على الروسى واصحابه ، وولى على فاس

حمدون الروسى ، ثم بعد ذلك عمد حمدون الروسى الى عبد الخالق بن يوسف فقتله ، فقبض السلطان عليه وعلى أخيه مسعود ، وولى على فاس حمو قصارة ، ثم بعد ايام قدم أبو على الروسى واليا على فاس . وفى هذه السنة ورد الخبر بموت المولى أبى مروان بالمشرق ، وفيها عزل السلطان أولاده عن الاعمال كلها ولم يترك الا ولى العهد المولى احمد بتادلا . ثم بعث ولده المولى عبد الملك الى مراكش وولاه قطر السوس ، واستقامت الامور وسكنت الرعية وهدأت البلاد ، واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد فى أمن وعافية ، تخرج المرأة والذمى من وجدة الى وادى نول فلا يجدان من يسألهما من أين ولا الى أين ، مع الرخاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية،والعمال تجبى الاموال والرعايا تدفع بلا كلفة، وصارأهل المغرب كفلاحى مصر يعملون ويدفعون فى كل جمعة أو شهر أو سنة ، ومن نتج فرسا رباه حتى اذا بلغ أن يركب دفعهالى العامل وعشرة مثاقيل معه ثمن سرجه ، هذا اذا كان المنتوج ذكرا فاذا كان أنثى ترك له ، ويدفع للعامل مثقالا واحدا ، ولم يبق فى هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شيء من ذلك وفر فى القبائل قبض عليه بكل قبيلة مر عليها أو قرية ظهر بها ، فلا تقله أرض حتى يؤتى به أينما كان ، وكلما بات مجهول حال بحلة أو قرية ثقف بها الى أن يعرف حاله ، ومن تركه ولم يحتط فى أمره أخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقترفه من قتل أو غيره .

وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الامطار كثيرة البركة فى الحراثة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش مع الامن والخصب والرخاء الممتد بحيث لم يقع غلاء طول أيامه الا مرة واحدة ، فبلغ القمح فى أيامه ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق للمد ، ورأس الضأن ثلاث أواق ، ورأس البقر من المثقال الى المثقالين سائر أيام الرخاء ، والسمن والعسل رطلان بالموزونة ، والزيت أربعة أرطال بالموزونة هكذا نقله صاحب البستان وهو مخالف لما سيأتى فى الحوادث من أن الجدب والغلاء قد بلغا مبلغهما أعوام التسعين وألف ولعل ماذكره صاحب البستان كان فى آخر دولة السلطان المذكور حسبما هى

عادة الله تعالى فى مثل ذلك غالبا والله تعالى اعلم .

بناء ضريحى الامامين ادريس الاكبر والاصغر رضى الله عنهما

لما كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة والف أمر السلطان رحمه الله بهدم قبة ضريح المولى ادريس الاكبر رضى الله عنه بزاوية زرهون وشراء الاصول المجاورة له من جهاته الاربع وهدمها وزيادتها فيه ، فهدمت القبة وجميع ما حولها واعيدت على هيئة بديعة ، واستمر البناء والعمل فى المشهد الشريف الى أن تم سنة أربع وثلاثين ومائة والف هكذا فى «البستان» وغيره وقال فى «نشر المثانى» : وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائة والف أمر السلطان المظفر المولى اسمعيل بتجديد بناء مقام مولانا ادريس الاصغر بانى فاس حيث ضريحه بها ، وأمر بناء قبته التى هى عليه الآن بما اشتملت عليه من المحاسن التى يعز وجودها ، وأمر بتوسعة صحن المسجد على ما هو عليه اليوم من الهيئة التى لا نظير لها بفاس ، وتم تسقيف القبة فى آخر ذى الحجة من العام المذكور ، ثم أمر رحمه الله باقامة الجمعة فيه فهى تقام فيه من يومئذ ، جعل الله ذلك فى ميزان الآمر به والمتولى له آمين .

وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة والف مات القائد عبد الله الروسى بمكناسة ، وفيها غضب السلطان على أهل فاس وبعث اليهم حمدون الروسى وأخاه أبا على ، وامرهما بمصادرتهم ، وقبض المال منهم ، فبعثوا علماءهم وأشرافهم الشفاعة فلم يقبل ، وشرعوا فى دفع المال حتى لم يعرف له عدد ، ولم يسلم من الغرامة أحد ، وتغيب الناس فى تلك المدة وخلت المدينة من ذوى اليسار .

وفى هذه السنة ايضا فى المحرم منها خرج عسكر الاصبنيول من سبتة على حين غفلة من المسلمين ، فضربوا فى محلتهم واستولوا عليها وعلى خباء القائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى ، ونهبوا وقتلوا وسلبوا وحازوا

شبارات المسلمين وعساتهم وحازوا قصبة آفراك ، واستشهد من المسلمين نحو ألف ، ورجعوا عودهم على بدئهم الى سبتة ، ومنها ركبوا البحر الى جزيرتهم ، ولم يبق بسبتة الا سكانها ، ثم كانت الكرة للمسلمين عليهم بعدها فبقي بأيدي المسلمين منهم نحو ثلاثة آلاف .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة والف ففي المحرم منها مات الباشا غازى بن شقراء صاحب مراكش بوجدة ، وفي صفر منها مات باعزيز بن صدوف صاحب تارودانت ، وفيها انتقل المولى عبد الملك بن السلطان الى تارودانت فاستقر بها الى أن كان من أمره ما نذكره عند التعرض لدولته ان شاء الله .

وفاة امير المومنين المولى اسماعيل رحمه الله

كانت أيام أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الامن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لاهل الذعارة والفساد محل يأوون اليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه ، فقد كان خليفة ونائبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين ، وسلطانا وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة ، حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون أنه لا يموت ، ويقال : ان البعض من اولاده كانوا يستبطئون موته ويعبرون عنه بالحي الدائم ، وهذه المدة التي استوفاها المولى اسمعيل في الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الاسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدى صاحب مصر ، فانه أقام في الخلافة ستين سنة ، لكن لا سواء ، فان المولى اسمعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بثمرتها ، وتملاها بكمال لذتها ، لانه وليها في ابان اقتداره عليها واضطلاعه بها بعد سن العشرين كما مر ، لا في مدة النيابة ولا في مدة الاستقلال ، ولم يكن عليه استبداد لاحد ، ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم ،

ومن سلك سننهم من القرابة ، وكلهم كان يشغب فى الاطراف ، لم يحصل منهم كبير ضرر للدولة ، بخلاف المستنصر العبيدى فانه ولى وهو ابن سبع سنين فكان فى صدر دولته تحت الاستبداد وحدث فى أيامه الغلاء العظيم

قال ابن خلكان : وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف عليه الصلاة والسلام ، واستمر سبع سنين أكل الناس فيها بعضهم بعضا وبيع رغيف واحد بخمسين دينارا ، وكان المستنصر فى هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها ، وكانوا اذا مشوا يتساقطون فى الطرقات من الجوع ، الى غير ذلك فلذا قلنا لا يستوى حال ملك المولى اسمعيل وملك المستنصر رحمهما الله .

ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائة والف مرض أمير المؤمنين المولى اسمعيل مرض موته قال فى «نشر المثانى» : كان ابتداء مرضه فى ثانى يوم من جمادى الاولى من السنة المذكورة ، ولما أحس بالضعف بعث الى ولده المولى احمد صاحب تادلا يستقدمه فقدم عليه واقام ثلاثا ثم اخترمته المنية رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف ، وتولى غسله الفقيه أبو العباس احمد بن أبى القاسم العميرى ، وصلى عليه الفقيه العلامة أبو على الحسن بن رحال المعدانى ودفن بضريح الشيخ المجذوب رضى الله عنه من حضرة مكناسة .

قال فى « البستان » : كان السلطان المولى اسمعيل قد عهد بالامر الى ولده المولى أحمد المذكور وكان يعبر عنه بولى العهد ، وأنكر أكنسوس أن يكون السلطان المذكور قد عهد لاحد من أولاده ، قال : كما أخبرنا بذلك السلطان العالم المولى سليمان بن محمد رحمه الله مرارا وكان يحكى فى ذلك خبرا ، وهو أن المولى اسمعيل لما أيقن بالموت دعا وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليحمدى وقال له : « انى فى آخر يوم من أيام الدنيا فأحببت أن تشير على بمن أقلده هذا الامر من ولدى لانك أعرف بأحوالهم منى فقال له : « يامولانا لقد كلفتنى أمرا عظيما وأنا أقول الحق : انه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين ، كان لك ثلاثة، المولى محرز والمولى

المأمون والمولى محمد فقبضهم الله اليه» فقال له السلطان : «جزاك الله خيرا» وودعه وانصرف ولم يعهد لاحد وانما العبيد كانوا يقدمـــون من شاءوا ، ويؤخرون من شاءوا ، وكان المولى سليمان رحمه الله يحكى ذلـــك عندما يعرض له ذكر أولاده هو والله أعلم .

بقية اخبار المولى اسماعيل رحمه الله ومآثره وسيرته

قال اليفرنى فى «النزهة» «لم يزل أميـــر المؤمنين اسمعيل رحمه الله فى مقارعة أعدائه الى ان دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها، واستولى على تخوم السودان وانتهى منها الى ما وراء النيل ، وانتشرت دولته فى عمائرها وبلغ من ذلك مالـم يبلغـــه المنصور السعدى ، وامتدت مملكته فى جهة الشرق الى بسكرة من بلاد الجريد ونواحى تلمســان والله أعلـــم حيث يجعل رسالاته » اه وقال فى « البستان » كان للمولى اسمعيل من الولد على ما تواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر ومن البنات مثل ذلـــك أو قريب منه ، قال : والذى عقب من اولاده على ما رأيناه عيانـا فى دفتـــر السلطان المولى محمد بن عبد الله اذ كان يصلهـم فى كل سنة ، وكان يعتنى لتفرقـة الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمس دور كلهـا لاولاده لصلبه ، وامـــا الذين لم يعقبوا أو عقبوا وانقطع نسلهم فليسوا فى الدفتر ، وامـا الحفـــدة والاسباط فكان عددهم فى أيام السلطان المـــولى محمد بن عبد الله ألفـــا وخمسـمائة وستين ، وقد زادوا اليوم فى دولة السلطان المولى سليمان بـــن محمد ، ولم يزل يصلهم الى الآن على ما فى دفتر والده ومن زاد يزاد له ، قال : وأما ما أدركناه من أولاد المولى اسمعيل لصلبه فى دولة السلطـــان المولى محمد فثمانية وعشرون رجلا نعرفهـم بالاسم والعـين . ومن بناتـــه لصلبه مثل ذلك قد أنزلهن السلطان بقصر حمو بن بكة ورتب لهن المؤنـــة والكسوة والصلة فى كل سنة ، وأنزل معهن الحوافد اللاتى لا أزواج لهن ،

وكل واحدة من هذه الدور المائة والخمس التى بسجلماسة لواحد من أولاد صلبه لانه كان رحمه الله اذا رأى أحدا من أولاده الذين لم يرد اقامتهم معه بالمغرب قد بلغ أرسله الى سجلماسة وبنى له بها قصرا أو دارا وأعطاه نخلا وأرضا للحراسة والفلاحة ومماليك يقومون له بخدمة أصله وحراثة أرضه في الشتاء والصيف ، ويعطى كل واحد من ذلك على قدر مرتبته عنده ومنزلة أمه منه ، فتناسلت أولادهم ونمت فروعهم ووفر الله جمعهم وحفظ نظامهم ، وكان رحمه الله سديد النظر فى نقل أولاده بأمهاتهم من مكناسة الى تافيلالت مع بنى عمهم من الاشراف ليتدربوا على معيشتها التى تدوم لهم فكان ذلك صونا لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخصاصة بعد موته وزوال النعمة وانزواء رداء الملك الساتر لهم بين العامة ، فنجحوا وأفلحوا بخلاف اخوانهم الذين ربوا بمكناسة واستمروا بها الى أن توفى والدهم وألفوا عوائدهم ومرنوا على شهواتهم فانهم لم ينم لهم نسل كاخوانهم الذين بالصحراء هذا ما يتعلق بنسل السلطان المولى اسمعيل .

وأما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشيء فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحادثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك ، فلا يلحق ضخامة مصانعه ما شيده الاكاسرة بالمدائن ، ولا الفراعنة بمصر ، ولا ملوك الروم برومة والقسطنطينية ، ولا اليونان بأنطاكية والاسكندرية ، ولا ملوك الاسلام ودوله العظام كبنى أمية بدمشق ، وبنى العباس ببغداد ، والعبيديين بأفريقيا ومصر ، والمرابطين والموحدين وبنى مرين والسعديين بالمغرب ، ومابديع المنصور بقصر من قصوره ولا بستان المسرة بأحد بساتينه ، فقد كان عنده بجنان حمرية مائة ألف قعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين ، ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك ، ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياه وأجرى الماء اليه وأمر باحصاء ما بقى من شجره فوجدوه ستين ألفا فكان رحمه الله يبعث بثمن غلته الى الحرمين تنفيذا لمراد جده وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله .

قال صاحب « البستان » : « ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت أثرا أعظم من آثاره ، ولا بناء أضخم من بنائه ولا أكثر عددا من قصوره ، لان هؤلاء الدول كان من اعتنى منهم بأمر البناء غاية أمره أن يبنى قصرا ويتأنق فى تشييده وتنجيده ، وهذا السلطان لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا عشرين بل جعل مبانى العالم كلها فى بطن تلك القلعة المكناسية كما قيل · « كل الصيد في جوف الفرآ » هذا كلام صاحب البستان رحمه الله . ثم قال .

وكان فى سجونه من الاسارى خمسة وعشرون الفا ونيفا ، كانوا يعملون فى بناء قصوره منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون والمنجمون والمهندسون والاطباء ، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير .

وكان فى سجونه من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفا تظل فى العمل مع أسرى الكفار ويبيتون فى السجون والاهراء تحت الارض ، ومن مات منهم دفن فى البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض . ومما مدح به المولى اسميل رحمه الله قول الفقيه الاديب أبى عبد الله محمد بن عبد الله الجزولى من قصيدة له

مولاى اسمعيل ياشمس الورى ... يامن جميع الكائنات فدى له

ما أنت الا سيف حق منتضى ... الله من دون البرية سله

من لا يرى لك طاعة فالله قد ... أعماه عن طرق الهدى وأضله

ولنذكر ما سلف فى هذه المدة من الاحداث

ففى سنة احدى وسبعين والف توفى الشيخ أبو عبد الله سيدى محمد المفضل ابن الشيخ أبى العباس أحمد المرسى ابن الشيخ الاكبر أبى عبد الله سيدى محمد الشرقى ، كان رحمه الله صالحا خيرا من فضلاء عصره حافظا للقرآن بالسبع ، قد اشتهر قدره فى الناس كثيرا ، وكان يفر من ذلك واذا سأله أحد أن يتخذه شيخا يقول : « نحن اخوة فى الله والدرهم الكامل ينفق منه » أخذ القراءات عن الفقيه الاستاذ أبى زيد عبد الرحمن بن القاضى وكتب له الاجازة بذلك ، وكان له نصيب من العلوم سوى القرآآت ، وانتسب فى

الطريق للولى الصالح أبى عبد الله محمد الحفيان الرتبى السجلماسى من اصحاب الشيخ ابى عبيد الشرقى ، وتخرج عليه نجباء من طلبه القراات و كان رحمه الله كثير الطعام بزاوية جده أبى عبيد الشرقى ، ثم انتقل الى ناحية سلا فسكن باحوازها وبقى هنالك الى ان مات فى التاريخ المذكور فحمل الى المدينة المذكورة ودفن بطالعتها قرب المسجد الاعظم ، وقبره اليوم مزارة عظيمه ، وكان له كلام كثير على طريق العروبى الملحون خاطب به الرئيس محمد الحاج الدلائى حين مشت الوشاة بينهما فوقعت من اجل ذلك بينهما مكاتبات ومعاتبات رحمهما الله .

وفى سنة اثنتين وسبعين وألف توفي الشيخ الربانى أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن عبد الله بن حسين المصلوحى دفين تامصلوحت من أعمال مراكش ، وقد تقدم التنبيه على وفاة جده أبى محمد عبد الله بن حسين المذكور ، وكانت له شهرة عظيمة وكان ابتداء أمره أنه تلمذ له طائفة من الفقراء بمراكش ، واجتمع عليه ناس فأنكر ذلك السلطان زيدان بن المنصور وأمره بالقبض عليه فخرج الى قبيلة سكتانة حيث ضريحه اليوم فاستقر بها الى أن توفى ، وكان يقول : « لا ياتينا الا من أمنه الله لان مقامنا هذا مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا » وكان يقول : « دارنا دار سر لا دار علم » وكان اذا دخل شهر المحرم ترك حلق الشعر والزينة فاذا ليم على ذلك قال : «ما فعلنا هذا الا امتعاضا لقتل الحسين رضى الله عنه وأسفا على ما وقع به » وكان يعمل السماع ويجتمع أصحابه على الحضرة على الكيفية المعهودة وربما تواجد فدخل معهم ، وكانت له مشاركة فى العلوم أخذ عن الشيخ المنجور وأبى محمد بن طاهر الحسنى وأبى مهدى السكتانى وغيرهم . وتوفى فى التاريخ المتقدم عن سن عالية يقال : أناف على المائة وبنيت عليه قبة حافلة وقبره اليوم مزارة عظيمة .

وفى أواخر سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التى بعدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب لاسيما فاس وأعمالها أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمى وخلت الدور وعطلت المساجد ثم تدراك الله عباده بلطفه

وفي سنة خمس وسبعين والف في عاشر رمضان منهـا وقعت زلزلـــة عظيمة بفاس وغيرها من بلاد المغرب . قال الفقيه أبو العباس احمد بن عبـد الهادي الشريف السجلماسي : « وقعت الزلزلة في التاريخ المذكـــور ونحن بمجلس البخاري عند شيخ الجماعة الامام ابي محمد عبـد القادر الفـــاسي رحمه الله ، فقـام كل من بالمجلس حتى الشيخ ظنـا منا ان السقف سيسقط علينا لان خشبه صوت ، وخرج سرعان الناس يلتمسون الخبـر ، فاخبر بها كل من كان راقدا أو جالسا حتى النائم انتبه ، ومن كان ماشيا لم يشعر بهـا، فسئل الشيخ عن ذلك وهل هو كما تزعم العامـة : من أن الثور الذي عليـــه الدنيا أو الحوت يتحرك ، فأجاب : بأن ذلك باطل لا اصل له ، وتلا قولـــه تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفا » وقال أيضا « ذكر بعض الحكمـاء ان ذلك يقع من اختناق الريح في جوف الارض »

وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وألف توفي البهلول المتبرك به سيدي قاسم بن أحمد بوعسرية المعروف بابن اللوشه دفين ضفة وادي ارضم من بلاد آزغار ولم يتزوج قط فلم يكن له عقب هكذا في « نشر المثاني » ولعله تصحيف ، والصواب ما ياتي من أنه توفي سنة سبـع وتسعين بمثناة بمهملتين والله أعلم

وفي سنة خمس وثمانين وألف توفي شيخ السنة وامام الطريقة أبـــو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن نـــاصر ابن عمرو الدرعي ثم الاغلانـــي الشهير بابن ناصر ، نسبة الى جده المذكـــور في النسب قال تلميذه الشيخ أبو علي اليوسي في فهرسته : كان الشيـــخ رضي الله عنه مشاركا في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف ، عابدا ناسكا ، ورعا زاهدا ، عارفا قائما بالطريقة ، شاربـــا من عين الحقيقة ، وكان رضي الله عنه مع اكبابه على علوم القـــوم وانتهاجه منهـــج الطريقة لا يخل بعلـم الظاهر تدريسا وتأليفا وتقييـدا وضبطا ، فنفـع الله به الفريقين وصحبه النـــاس شرقا وغربا . فانتفـع بـه الخلق ، قائما بالتعليـم والتربية للمريدين بقوله وفعله ، والترقية بهمته ، عن همة عالية وحالـــة

مرضية وعلم صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ ، فكان اذا تكلم انتقش كلامه فى القلب ، واذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب . » ثم أطال الشيخ اليوسى فى ترجمته ، وذكر له كرامات عديدة ، وقد أفصح عن حاله ووصفه فى قصيدته الدالية المشهورة الموضوعة فى مدحه ، وأتى فيها من الاجلال لهذا الشيخ والتعظيم بما كان سبب ربحه . ولهذا الشيخ شيوخ وأتباع معروفون فى كتب الائمة الذين تعرضوا لبيان ذلك وطريقته المتصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة أيضا ، وكان والده سيدى محمد ابن أحمد من أكابر الاولياء كثير الاوراد لا يفتر لسانه عن الاذكار حسبما نقله غير واحد والله تعالى أعلم .

قال مؤلفه عفى الله عنه : وهذا الشيخ هو جدنا واليه ننتسب فأنا أحمد ابن خالد بن حماد بن محمد الكبير بن أحمد بن محمد الصغير بفتح الميم بن محمد بن ناصر الشيخ المذكور نفعنا الله به وأفاض علينا من مدده ومدد أمثاله ، وأسلافنا ينتسبون بعد الشيخ المذكور الى سيدنا جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولست الآن من ذلك على تحقيق ، ولعلنا نحققه فى موضع آخر ان شاء الله

وفى حدود التسعين وألف كان انحباس المطر والغلاء . قال الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب القادرى فى « الازهار الندية » : أن القمح قد بلغ فى هذه المدة الى أربعين أوقية للمد بسبب تأخر المطر والمد صاع ونصف. وصلى الناس صلاة الاستسقاء فأول امام خطب فيها القاضى أبو عبد الله محمد العربى بردلة وكررها ثلاث مرات فنزل مطر يسير لم يكف ، ثم أعيدت الصلاة رابعة فكان الخطيب فيها الفقيه أبو عبد الله محمد البوعنانى ، ثم أعيدت خامسة والخطيب القاضى بردلة ، ثم أعيدت سادسة والخطيب أبو عبد الله محمد المرابط الدلائى وفيها بلغ القمح ستين أوقية وهو غلاء لم يسمع بمثله ، ثم أعيدت الصلاة سابعة والخطيب أبو عبد الله البوعنانى ، ثم أعيدت ثامنة والخطيب الشيخ الولى الزاهد ابو عبد الله محمد العربى الفشتالى ، وفى عشية غده نزل المطر مع رعد وبرق ففرح المسلمون وأكثروا من حمد الله

تعالى ، ثم أعيدت الصلاة تاسعة والخطيب القاضي بردلة ، وخرج يومئذ فى جملة الناس شيخ الاسلام وبركة الامة الامام أبو محمد سيدى عبد القادر الفاسي راكبا على حمار جاعلا الاشراف من أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعا بهم الى الله تعالى ، فنزل عند الرجوع مطر قليل ، ومن الغد نزل المطر الغزير الكافى النافع فانحطت الاسعار ونزل القمح الى خمس وثلاثين أوقية بعدما كررت الصلاة تسع مرات ، وكانت الصلاة التاسعة يوم الاثنين خامس المحرم فاتح سنة احدى وتسعين والف .

وفى سنة تسع وثمانين وألف فى ليلة الجمعة الثانى عشر من شعبان منها توفى الشيخ المولى أبو محمد عبد الله الشريف الوزانى الشهير . وكان عمره يوم توفى خمسا وثمانين سنة ، وتوفى ولده الشيخ المولى أبو عبد الله محمد وقت العشاء ليلة الجمعة الثامن والعشرين من المحرم سنة عشرين ومائة وألف ، وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وتوفى ابنه الشيخ القطب المولى التهامى بن محمد طلوع شمس يوم الاثنين فاتح المحرم من سنة سبع وعشرين ومائة والف ، وعمره ست وستون سنة، وتوفى الشيخ مولاى الطيب بن محمد يوم الاحد وقت طلوع الفجر ثامن عشر ربيع الثانى سنة احدى وثمانين ومائة وألف ، وعمره نيف وثمانون سنة ، وتوفى ابنه الشيخ مولاى احمد ضحوة يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف ، وتوفى ابنه الشيخ مولاى على بن احمد يوم الثلاثاء آخر يوم من ربيع الاول سنة ست وعشرين ومائتين والف وتوفى ابنه الشيخ سيدى الحاج العربى بن على يوم الاربعاء فاتح سنة سبع وستين ومائتين والف . وقد أتينا بوفاة هؤلاء السادة الوزانيين مجموعة هنا لما فى ذلك من المناسبة والتقريب ، ويتصل نسبهم بالمولى يملح بن مشيش أخى المولى عبد السلام بن مشيش ثم بالمولى ادريس بن ادريس رضى الله عنهم وأماتنا على محبتهم وحشرنا فى زمرتهم .

وفى سنة تسعين والف وقع الوباء العظيم بالمغرب فكان عبيد السلطان يردون الواردين من الآفاق على مكناسة الزيتون كما مر .

وفى سنه احدى وتسعين و. ب بعد ظهر الاربعاء الثامن مـن رمضان منها توفى شيخ الجماعة بفاس والمغرب الامام الكبير العالم اشهير الشيخ أبو محمد عبد القادر بن على بن يوسف الفاسى ، ولا يحتاج متمه رضى الله عنه الى تعريف فان مآثره اشهر من «فقانبك» ، قالوا : ومع غزارة علمـه وانتفاع أهل المغارب الثلاثة به لم ينصد لجمع كتـاب مخصوص ولا شرح متن من المتون ، وانما كانت تصدر عنه اجوبه يسئل عنهـا فيجيب ويجيد وجمعها بعض أصحابه فجاءت فى مجلد .

وفى سنة خمس وتسعين وألف توفى الولى الصالح ابو محمد عبد الله العونى دفين سلا من اصحاب الشيخ سيدى محمد المفضل

وفى سنة ست وتسعين والف توفى الشيخ العلامة المشارك أبـو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى صاحب نظم عمل فاس و «الاقنوم فـى مبادىء العلوم» وغيرهما من التآليف الحسان .

وفى سنة سبع وتسعين وألف توفى الشيخ العـارف بالله تعـالى ذو الاحوال الربانية والمواهب العرفانية أبو القـاسم ابن أحمد الوشـة السفيانى المعروف بأبى عسرية ،لانه كان يعمل بشماله أكثر من يمينه . كـان مـن المولهين فى ذات الله تعالى ومن أهل الاحوال والشطحات ، يقال : انه حمل وهو صبى الى الشيخ أبى عبيد الشرقى فبرك عليه ودعا بقرب من مـاء فصبت عليه وقال : لولا انا بردنا هذا الصبى لاحرقته الانوار ، ولذا كان يهتف بأبى عبيد كثيرا وينادى باسمه وينسب جميع ما يظهر على يده له .

وفى سنة احدى ومائة والف أمر السلطان الناس بأن لا يلبسوا النعال السود ولا يلبسها الا اليهود وتقدم التنبيه على ذلك عقب فتح العرائش .

وفى سنة اثنتين ومائة والف توفى الشيخ الامام علـم الاعلام آخـر علماء المغرب على الاطلاق ، الذى وقع على علمه وصلاحه الاتفاق ، أبـو على الحسن بن مسعود اليوسى نسبة الى آيت يوسى قبيلة من برابر ملوية وأصلـه اليوسى ، كان رضـى الله عنه غزالى وقته علما وتحقيقا وزهدا وورعا ، قال فى فهرسته : كانت قراءتى كلها أو جلها فتحا ربانيا ، ورزقت ولله الحمـد

قريحة وقادة فكنت بادنى سماع ينفعنى الله ، فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله على في جميعه نتحا ظاهرا ، وأبلغ فيهما لم يبلغه من سمعته منه ، ورب كتاب لم أسمعه أصلا غير أن سماع البعض فى كل فن صار مبدأ للفتح وتتميما لحكمة الله فى سنة الاخذ عن المشايخ ، ولا تستوحش مما ذكرناه ظنا منك أن الربح أبدا يكون على قدر رأس المال ، كلا ، فقد يبلغ الدرهم الواحد ألف مثقال وما ذالك على الله بعزيز .

وكان معظم قراءته بالزاوية الدلائية لم يزل مقيما بها عاكفا على بث العلم ونشره الى ان استولى عليها المولى الرشيد بن الشريف فنقله الى فاس، فأقام بها مدة ، ثم خرج الى البادية فاستوطن بقبيلته الى أن مات رحمه الله ،

وكان رضى الله عنه متضلعا من العلوم العقلية والنقلية حتى قال فى تأليفه المسمى «بالقول الفصل فى الفوق بين الخاصة والفصل» : «أنه بلغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازانى والسيد الجرجانى واضرابهما» وسأله يوما سائل بمجلس درسه فقال له : «اسمع ما لا تسمعه من انسان ، ولا تجده محررا فى ديوان ، ولا تراه مسطرا ببنان ، وانما هو من مواهب الرحمن» ولما دخل مراكش تصدر بها لاقراء علم التفسير بجامع الاشراف فمكث فى تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة أشهر ، وهو يبدى كل يوم اسلوبا غريبا ، وتحقيقا عجيبا ، فعجب الناس من غزارة مادته مع انه ربما بات فى ضريح بعض الاولياء والناس معه فلا يطالع كتابا ولا يراجع مؤلفا فاذا أصبح وجلس على الكرسى أطلق لسانه بما يبهر العقول . وكان الشعر عنده أسهل من النفس وشعره كله حكم وأمثال كشعر العرب القدماء ، وقصيدته الدالية فى شيخه ابن ناصر دالة على امتداد باعه ورسوخ قدمه فى المعارف والفنون ، ولله در الامام أبى سالم العياشى اذ قال :

من فاته الحسن البصرى يصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

وبالجملة فهو آخر العلماء الراسخين ، بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين ، حتى كان بعض الشيوخ يقول هو المجدد على رأس هذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار امام وقته وعابد زمانه رحمه الله

ورضى عنه .

وفى سنة ثلاث ومائة والف فى ليلة الاربعاء السابع من شهر ربيع الاول منها توفى الولى الصالح أبو العباس سيدى احمد حجى . قال الشيخ أبو العباس سيدى احمد بن عبد القادر التستاوتي فى حقه ما نصه : رجل خيرصالح ولقد اجتمعت به بمكناسة سنة ست وتسعين والف فما رأيت منه الا خيرا ، اه . ولما توفى خلفه ولده ووارث سره وضجيعه فى قبره الولى الصالح سيدى أبو محمد عبد الله حجى المعروف بالجزار وضريحهما مزارة شهيرة بسلا .

وفى سنة تسع او عشر ومائة والف توفى الفقيه العدل النوازلى الفارض الحاسب أبو الحسن على بن محمد المعروف بابى شعرة السلاوى ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه .

وفى سنة خمس عشرة ومائة والف توفى الامام الفقيه الاديب الناظم الناثر أبو القاسم ابن الحسين الغريسى ثم السلاوى المعروف بابى زائدة وذلك فى جمادى الاولى من السنة ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه .

وفى سنة ثمان عشرة ومائة وألف فى ضحى يوم الاربعاء الثامن والعشرين من المحرم منها كسفت الشمس كسوفا كليا وسمى ذلك العام عام الظليماء

وفى سنة تسع عشرة ومائة وألف توفى الشيخ الامام العلامة الهمام ذو التصانيف المفيدة فى كل فن، الحجة المتبرك به حيا وميتا أبو سرحان سيدى مسعود جموع الفاسى ثم السلاوى وذلك يوم الثلاثاء سابع جمادى الاولى من السنة ودفن بزاوية الشيخ سيدى أحمد حجى داخل مدينة سلا

وفى سنة عشرين ومائة وألف توفى الولى الصالح العابد الناصح أبو العباس أحمد بن عبد الله معن الاندلسى نزيل المخفية من فاس حرسها الله.
وفى هذه السنة أيضا كان احداث قراءة المسمع الحديث المتضمن لامر الناس بالانصاف وقوله : أنصتوا رحمكم الله ثلاثا عند خروج الامام يوم الجمعة

من المقصورة وجلوسه على المنبر

وفى سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف وذلك وقت عصر الثلاثاء الثانى والعشرين من صفر منها توفى الولى الصالح سيدى أبومحمد عبد الله بن سيدى أحمد حجى المعروف بالجزار ودفن بازاء قبر أبيه كما مر .

وفى يوم الاربعاء العشرين من ربيع الثانى من السنة المذكورة توفى الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن الامين الحاج محمد الصبيحى السلاوى ورثاه الشيخ أبو العباس سيدى أحمد بن عبد القادر التستاوتى بقوله :

جزعنا وان كنا على العلم أنه اذا ما أراد الله أمرا تعجلا
لفقد الامام المجتبى العالم الرضى الصبيح ومن فى وقته قد تبلا
والا فمختار الاله اختيارنا ونرجو له خيرا عميما مكملا

ورثاه أيضا صديقه الملاطف الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر الحافى السلاوى رحم الله الجميع

وفى سنة سبع وعشرين ومائة وألف ليلة الاربعاء فاتح رجب منها توفى الولى الصالح العالم العامل العارف الشهير الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوى من كبار أصحاب الشيخ ابن ناصر ومن حفدة الشيخ أبى عبد الله محمد بن مبارك الزعرى المتقدم الذكر ، ومآثر هذا الشيخ أشهر من أن تذكر ، وزواياه عميمة النفع والبركة بالمغرب ، وكانت وفاته بمكناسة الزيتون وضريحه بها شهير عند روضة الشيخ سيدى عبد الله بن حامد رضى الله عنهم ونفعنا بهم .

وفى سنة تسع وعشرين ومائة والف فى الثامن عشر ربيع الاول منها توفى الشيخ القدوة الامام السنى أبو العباس سيدى أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى وهو ولد الشيخ ابن ناصر المتقدم وخليفته ووارث سره وفضله رضى الله عنه أشهر من أن ينبه عليه ، ومن ذلك ما حكاه الشيخ أبو على الحسن بن محمد المعدانى فى كتابه الروض اليانع الفائح فى مناقب الشيخ أبى عبد الله الصالح ، قال : حدث بعض العلماء الاجلة : أنه لما دخل الشيخ أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعى المدينة المشرفة فى حجته الاخيرة جلس

تجاه الحجرة النبوية والناس يزدحمون عليه لاخذ العهد وتلقين الاوراد وهو منبسط لذلك فقلت في نفسي ان هذا الرجل مغرور راض عن نفسه ، كيف يتصدى في هذا المكان الذى تخضع فيه الملوك وجميع الانس والجن والملائكة واذا طلعت الشمس اختفى السراج » قال : فكاشفني بما في نفسي والتفت الى وقال : « والله ما جلست لما ترون حتى أمرني النبي صلى الله عليه وسلم . وما أذعنت له حتى هددت بالسلب . قال : « فسقطت على يديه أقبلها وقلت له : « ياسيدى أنا تائب الى الله تعالى فدعا لى وانصرفت » ومما حكاه صاحب الكتاب المذكور قال : « حدث الرجل الصالح البركة الفقيه الناصح سيدى محمد بن ابراهيم المجاصي قال : كان السلطان المولى اسمعيل بن الشريف رحمه الله قد استدعى الشيخ سيدى احمد بن ناصر ، وكان به حنق عظيم عليه ، وعزم اذا وصل اليه أن يفعل به مكروها لا تدرى حقيقته غير ان الامر شديد ، فجاء الى الشيخ جماعة من العلماء الاعلام وأصحابه الملازمين له ، وقد تخوفوا عليه وعلى انفسهم غاية ، فكلموا الشيخ فى ذلك واستفهموه ليعلموا ما عنده من عادة الله تعالى مع اوليائه من النصرة لهم والذب عنهم فلم يسمعوا منه كلمة ، ثم راجعوه فى ذلك حتى هابوه وسكتوا عنه ، وقدم الشيخ المذكور على السلطان فلما انتهى الى قصبة آكراى قرب مكناسة الزيتون اذا برجل مجاطى يقال له : الحاج عمرو لقيه هنالك ، فلما رآه الشيخ نزل عن فرسه ليسلم عليه فقال الشيخ : « ما الخبر ياولدى ؟ » فقال الرجل : « ما الخبر ياسيدى : والله لوددت أن سيدى لم يصل الى هنا ولم يخرج من داره » يعنى أن الامر عظيم . فقال له الشيخ رضى الله عنه بلسان العناية الربانية : « ولا ما يشوش » اذا كان فى رقبتك شبر وأشار بيده فاعمل فيها ذراعا ومد ذراعه » ففرح العلماء الذين معه وكل من حضر بتلك المقالة ، وتيقنوا الامن على الشيخ وعلى أنفسهم لما يعلمون من عادة الله الكريمة معه فكان الامر كما قال ، فان السلطان جاء اليه بنفسه وهو فى روضة الشيخ أبى عثمان سعيد بن أبى بكر ، وتلقاه بالقبول والتعظيم والتبجيل والتكريم . وصافحه بيده ، وجلس معه فى داخل القبة ساعة ، ولما خرج السلطان رحمه

الله من عنده جعل ينادي بلسانه في أصحابه ويقول : « زوروا سيدى أحمد ابن ناصر يا الناس زوروا سيدى أحمد بن ناصر يا الناس » ويكررها من صميم قلبه . قال سيدى محمد بن ابراهيم : « فلما انصرف السلطان من عند الشيخ رضى الله عنه جئت اليه وقلت له : ياسيدى انا نخاف أن ينزلنا السلطان بضريح الشيخ سيدى عبد الرحمن المجذوب ويطول بنا المقام » فقال لى : « لا نبقى الا هنا وبعد غد ننصرف الى بلادنا ان شاء الله » فكان الامر كما قال بعد أن جاء الامر من السلطان يأمره بالنزول بضريح الشيخ المجذوب فقال : « لا أنزل الا هنا » فبقى فى موضعه ثم بعث اليه السلطان يأمره بالتوجه الى بلاده معظما مكرما » اه

وفى سنة تسع وعشرين ومائة وألف فى ليلة عيد الفطر منها توفى الفقيه العالم القاضى أبو العباس أحمد بن العلامة أبى الحسن على المراكشى وصلى عليه من الغد ودفن بالموضع المسمى بالعلو من رباط الفتح .

وفى سنة احدى وثلاثين ومائة وألف فى ليلة الاحد ثامن عشر المحرم منها توفى الشيخ الصالح أبو على الحسن بن عبد الله العايدى السجيرى ودفن بزاوية من حومة السويقة من سلا وفرغ من بناء قبته فى رجب من السنة بعدها .

وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف يوم الاثنين خامس عشر رجب منها توفى الفقيه العلامة خاتمة المحققين وآخر قضاة العدل بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد العربى بن أحمد بردلة الفاسى ، وفى التاريخ المذكور توفى الشيخ العلامة المتبرك به أبو العباس أحمد بن سليمان ذو التآليف العديدة فى الحساب وغيره بحضرة مراكش رحمه الله .

وفى سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف كانت جائحة الجراد بالعدوتين سلا ورباط الفتح وأعمالهما وخلفه قمله المسمى فى لسان المغاربة بآمرد فكان كالسيل العام لم يترك ورقة خضراء الا أكلها وكان ذلك فى شوال من السنة المذكورة .

وفى سنة تسع وثلاثين ومائة وألف يوم الاربعاء ثانى عشر صفر منها

توفى الشيخ العارف بالله تعالى سيدى محمد الصالح ابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدى محمد المعطى بن سيدى عبد الخالق بن سيدى عبد القادر ابن الشيخ الاكبر سيدى محمد الشرقى ، ومناقبه قد تكفل بها كتاب « الروض الفائح فى مناقب الشيخ أبى عبد الله الصالح » لابى على المعدانى .
وفى هذه السنة ضحى يوم السبت ثامن ذى القعدة منها توفى الفقيه العلامة المحقق سيدى أبو بكر بن على الفرجى المراكشى ثم السلاوى واحتفل الناس لجنازته وازدحموا على نعشه حتى كادوا يقتتلون عليه ودفن قرب داره بزاوية سيدى مغيث من طالعة سلا حرسها الله .

الخبر عن الدولة الاولى لامير المومنين المولى ابى العباس احمد بن اسماعيل المعروف بالذهبى رحمه الله

لما توفى أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله فى التاريخ المتقدم اجتمع قواد العسكر البخارى وقواد الودايا وأعيان الدولة وكتابها وقضاتها وبايعوا المولى أبا العباس أحمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى لبسط يده بالعطاء ، قال أكنسوس : بايعوه باشارة العبيد الشبيهة بالجبر ولم يكن ذلك عن عهد من أبيه وكتبوا بيعته الى الآفاق . ولما اتصل بأهل فاس خبر موت السلطان كان أول من بدأوا به أن قتلوا قائدهم أبا على الروسى ، ثم بايعوا السلطان المولى أحمد وكتبوا بيعتهم وتوجه بها أعيانهم الى مكناسة فدخلوا على السلطان المولى أحمد وأدوا البيعة والطاعة فقبلهم ولم يظهر لهم سوء بما ارتكبوه من قتل قائدهم ، بل أعطى العلماء والاشراف جائزة البيعة وولى عليهم القائد المحجوب العلج وردهم مكرمين .

ثم قدم عليه قواد القبائل والامصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوادى مبايعين ومؤدين الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلا على قدر مرتبته ، وردهم الى بلادهم ، وتفرغ لشأنه فافتتح عمله بقتل عمال أبيه وأركان دولته ، فقتل

على بن يشى القبلى أمير البربر ، وثنى بأحمد بن على أمير الاعمال الفاسية وما اتصل بها من بلاد الهبط ، والصحيح أن أحمد بن على المذكور كان عند بيعة المولى أحمد فى السجن فدس اليه على بن يشى من ذبحه فيه فسلط الله عليه السلطان فقتله وكان جزاؤه من جنس عمله ، وقتل السلطان أيضا الباشا ابن الاشقر ومرجان الكبير قائد عبيد الدار وصاحب بيوت الاموال ، وكان لنظره ألفان ومائتان من المفاتى ، كلها موزعة على أبواب القصور وكل واحد من هؤلاء الخصيان له عبدان وثلاثة وأكثر يخدمونه .

واعلم أن المولى أحمد رحمه الله كان مستبدا عليه فى كثير من الاحوال يشير العبيدعليه فيفعل وماقتل من قتل من رؤساءالدولة الاباشارتهم، وقتل جماعة من القوادوالكتاب سوى من تقدم، وطاف على بيوت الاموال ومخازن السلاح والكسى فأمر باخراج ذلك وتفرقته على العبيد وقواد الجيش وأعطى من ذلك فوق الكفاية وعم العلماء والاشراف والطلبة بالنوال وخص أفرادا من العسكر بألوف فاغتبط الناس به وحمدوه رحمه الله .

اغارة القائد ابى العباس احمد بن على الريفى على تطاوين وما دار بينه وبين الفقيه ابى حفص عمر الوقاش

كان القائد المجاهد أبو العباس أحمد بن على الريفى يلى رئاسة المجاهدين هو وأبوه من قبله بالثغور الهبطية أيام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وكانت له ولابيه اليد البيضاء فى فتح طنجة والعرائش وغيرهما حسبما سلف بعضه فكانت له بذلك وجاهة كبيرة فى الدولة خصوصا ببلاد الهبط ، وكان بتطاوين يومئذ الفقيه الاديب أبو حفص عمر الوقاش من بيوتاتها وأهل الرياسة بها ، كان أولا كاتبا مع السلطان المولى اسمعيل رحمه الله . وكانت له المنزلة العالية عنده ، ثم لما ضعف عن الخدمة السلطانية بكبر سنه ولاه على

تطاوين وأعمالها ، فحدثت بينه وبين القائد أبي العباس الريفي منافسة أوجبها المجاورة والمعاصرة ، فكان يبلغ كل واحد منهما عن صاحبه ما يحفظه ، واستمر الحال على ذلك الى أن توفي السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وأفضى الامر الى ابنه المولى أحمد فضيع الحزم وأهمل أمر الجند حتى سقطت هيبة السلطان من قلوب الولاة في النواحي ، فانتهز أبو العباس الريفي الفرصة في أهل تطاوين وزحف اليها في جيش كثيف ، ودخلها على حين غفلة من أهلها وحاول الفتك فيهم ، فبرز اليه الفقيه أبو حفص الوقاش في أهل تطاوين وحاربه فانتصر عليه ، وأوقع به وقعة أعظم مما كان أضمر له وقتل من اخوانه عددا كثيرا ، ونجا القائد أبو العباس بجريعة الذقن

ولما اتفق للفقيه أبي حفص هذا الفتح الذي لم يكن له في حساب استخفه النشاط وغلبت عليه حلاوة الظفر حتى طمع في الملك وفاه من ذلك بما كان ينبغي له ولكل عاقل كتمانه ، فقال قصيدته المشهورة ينعى فيها على أهل الريف فعلتهم وينتقص دولتهم ويفتخر على أهل فاس فمن دونهم ، ويخبر عن نفسه بما يؤول اليه أمره ، فازرى بادبه على كبر سنه ، مع أنه كان من أهل الادب البارع والعلم والرياسة والقصيدة المشار اليها هي قوله

بلغت من العلياء ماكنت أرتجي * وأيامنا طابت وغنى بها الطير
ونادى البشير مفصحا ومصرحا * هلم أبا حفص فأنت لها الصدر
نهضت مجيبا للندا راقصا به * وما راعني اذذاك زيد ولا عمرو
شرعت بحمد الله للملك طالبا * وقلت وللمولى المحامد والشكر
أنا عمر المعروف ان كنت جاهلي * فسل تجد التقديم عندي ولا فخر
أنا عمر الموصوف بالبأس والندى * أنا عمر المذكور في ورد الجفر
ظهرت لاحيي الدين بعد اندراسه * فطوبى لمن أمسى يساق له الامر
ولم يبق ملك يستتب بغربنا * فعندي انتهى العلم المبرح والسر
أنا عمر المشهور في كل غارة * أنا البطل المقدام والعالم الحبر
ضبطت بلادي وانتدبت لغيرها * وعما قليل يعظم الجاه والقدر
وجئت بعدل للامامين تابعا * أنا الثالث المذكور بعدهما وتر

يعني أنه ثالث العمرين وقد كان يصرح بذلك ثم قال :

وغرطوط والرحمون والكوط عصبتي * وراغون كنزي والصغير به القهر
أولئك أنصاري وارباب دولتي * وأهلي واصهاري هم الانجم الزهر
وقد دام بالديمان مجدي وسؤددي * وفخري في الاقطار باد كما الفجر
هلالي بدا لما هلالي أجابني * وغيلان اذ لبى به عظم الوفر
ودولة أهل الريف حتما تمزقت * فلم يبق بالتحقيق عندي لها جبر
أذقناهم لما أتوا شر بأسنا * فابوا سراعا والصوارم والسمر
تطير الاكف والسواعد منهم * هنيئا فحق للانام بنا البشر
بخفي حنين آب عنا كبيرهم * وما فاته منا نكال ولا خسر
فمن ذا يضاهيني ومالي وافر * وذكري مغمور به البر والبحر

الى غير هذا مما لا غرض لنا في جلبه وقد اجابه الفقيه أبو عبد الله محمد بن بجة الريفي ثم العرائشي بقصيدة يقول فيها :

في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر * منها ادعاء الحمار أنه بشر
من مر عنه الصبا وما رأى عجبا * خبره بعجاب دهره الكبر

وهي طويلة الا ان قائلها لم يحكم صناعة الشعر فلذا تركناها .

ولما اتصل خبر هذه الوقعة بامير المؤمنين المولى أحمد رحمه الله أعضى عن الفريقين ودخل داره وعكف على لذاته وترك الناس وشأنهم ، وثار ببلاد الغرب والقصر واعماله فساد كبير بين القبائل واصحاب المخزن ، وهلك في ذلك بشر كثير وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمرة لاسيما مع ما دهاها من قتل رجالها القائمين بأمورها، وكان ذلك منتهى مراد العبيد ، فقد كان علي بن يشي أمير الامراء ورئيس البربر وغيرهم ، وكان أحمد بن علي أمير جبال مرموشة وبني وراين وعرب الحياينة وبرابرة غياثة والجبال فكان رديف علي بن يشي ومباريه في نصح الدولة وجباية الاموال ، وكان ابن الاشقر امير الزراهنة وعلى يديه أعشار القبائل كلها من اهل الغرب وبني حسن وغيرهم رديفا للاولين ، وكان القائد مرجان صاحب بيوت الاموال وبيده دفتر الدخل والخرج عارفا بقدر ما يدفعه العمال كل سنة ،

فلما أتى عليهم القتل رحمهم الله خف على الرعية ما كانوا يحملونه من ثقل وطأتهم ، واستراحوا ممن كان يحول بينهم وبين الفساد ويزجرهم عن القبيح، خصوصا البربر فانهم كانوا فى اقماع النحاس فخرجوا منها بمهلك على بن يشى ، وأخذوا فى اشتراء الخيل واقتناء السلاح . » وعادت هيف الى اديانها، وتبعهم على ذلك غيرهم من قبائل العرب فكانما كانوا على ميعاد ، وامتدت ايدى النهب فى الطرقات ، وكثرت الشكايات بباب السلطان فما وجدت الناس من يشكيهم هذا حال مكناسة وأعمالها ، فأما فاس فقد كفى الودايا أمرها ونابوا عن البربر فى العيث باطرافها وعظم الخطب واشتد الامر

ثم دخلت سنة أربعين ومائة وألف ففى المحرم منها اغار الودايا على سوق الخميس من فاس فنهبوا وقتلوا وقبضوا على طائفة من أهل فاس فأودعوهم السجن بفاس الجديد ، فبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم الى السلطان بمكناسة يشكون اليه ما نالهم من جور الودايا فلما وصلوا اليها وثب عليهم محمد بن على بن يشى قبل أن يجتمعوا بالسلطان فسجنهم أيضا فلما اتصل باهل فاس ما جرى على اخوانهم بمكناسة أخذهم ما قدم وما حدث فأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وشمروا لحرب الودايا،فكتب الودايا الى السلطان يعلمونه بأن أهل فاس قد شقوا العصا وخرجوا عن الطاعة فسرب السلطان اليهم العساكر بكل صارم وذابل ، وتفاقم الامر واختلط الحابل بالنابل ، وركبت المدافع والمهاريس والمجانيق لحصار فاس ، واستمر القتال الى أن بعث السلطان أخاه المولى المستضىء فى جماعة من أشراف مكناسة ومعهم أشراف فاس الذين سجنهم محمد بن على بن يشى لتلافى الامر وعقد الصلح بين الودايا وأهل فاس ، فانعقد الصلح ونهض عسكر السلطان الى مكناسة ، فما ساروا يوما او يومين حتى انتقض ذلك الصلح وغدا الودايا على حصار فاس ورميها بالكور والبنب ، واستمر الحال على ذلك الى أن قدم من جانب السلطان القائد أبو عمران موسى الجرارى ساعيا فى الصلح ، فاجتمع أهل فاس وفاوضهم فى ذلك فأذعنوا وبعثوا معه جماعة من الاعيان والعلماء والاشراف يفدون على السلطان ليتم لهم ذلك بعد أن أخذوا جماعة من أصحاب أبى

عمران توثقا باخوانهم ، ولما قدم أولئك الوفد مكناسة منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا الى فاس مخفقين ، واستمر الامر على حاله الى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتولية أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم الى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا وفدهم وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد الى مكناسة شاكرين ، ففاوضوا من بها من قواد الجند وتذاكروا فيما وقع فيه الناس من الفساد وانقطاع السبل وتعذر الاسباب ، وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير فى تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المنة غير مطلع باعباء الخلافة فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به ، ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا الى أخيه المولى عبد الملك جريدة من الخيل وكتبوا اليه كتابا يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعا نحو مكناسة ، ولما انتهى الى وادى بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعا ، وسجنوه بداره التى كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبة، وكان ذلك فى شعبان سنة أربعين ومائة وألف .

الخبر عن دولة أمير المومنين المولى ابى مروان عبد الملك ابن اسماعيل رحمه الله



لما خلع السلطان المولى أحمد رحمه الله وسجن خارج القصبة كما مر اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملاقاة المولى أبى مروان عبد الملك بن اسمعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة واتفقوا عليه ودخلوا به الحضرة فى زى الملك وأهبة السلطان ،ثم حضر أعيان الدولة وأمراؤها وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه ، وكتب بيعته الى الآفاق ، ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه ،

ثم قدمت عليه الوفود للتهنئة من حواضر المغرب وبواديه فجلس للاقاتهم وقابلهم بما يجب من البشر الى ان فرغ من شانهم ، وتفقد اخاه المولى احمد المخلوع فامر به الى فاس كي يسجن بها ثم بدا له فامر بتوجيهه الى سجلماسة .

قال في « الازهار الندية » لما بعث السلطان المولى أبو مروان بأخيه المولى أحمد المخلوع الى تافيلالت كتب الى عامله بها أن يسمل عينيه بفور بلوغه فنما ذلك الى المولى أحمد ففر الى زاوية الشيخ أبي عثمان سيدى سعيد آحنصال ، وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف بن الشيخ سعيد المذكور ، وكان يتكلم في الحدثان فقال للمولى أحمد : «انك سترجع الى الملك » فكان كما قال ، ورجا الناس أن يكون السلطان المولى أبو مروان كابيه ، وأن يسير فيهم بسيرته ويسد مسده ، فخاب الظن وأخفق المسعى

وابن اللبون اذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم ، فكان ذلك من أكبر الاسباب في اختلاف أمره وتفسخ دولته ، فطلب العسكر البخاری منه جائزة البيعة على العادة فبعث اليهم بأربعة آلاف مثقال ، وكان راتبهم على عهد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله مائة ألف مثقال ، ولما بويع السلطان المولى أحمد زادهم في الراتب خمسين ألفا ، فلما وصلت اليهم جائزة المولى أبي مروان سقط في أيديهم وعلموا أنهم لم يصنعوا شيئا في بيعته ، وتناجوا بعزله واضمروا ذلك وتحينوا وقت الفرصة فيه ، فنما اليه ذلك عنهم فاخذ حذره وصار يكاتب قبائل العرب ويعدهم ويمنيهم ويحضهم على اجتماع كلمتهم كي ينفعوه يوما ما ، ظنا منه أنهم يقاومون العبيد ، ثم كتب الى البربر أيضا يغريهم بالعبيد وأغرى العبيد بالبربر وقال لهم في جملة من ذلك : « انه لا يستقيم لنا أمر الا بعد الايقاع بهؤلاء البربر » وشغلهم بالاستعداد لغزوهم ، وكتب الى أهل فاس يأمرهم أن يبعثوا رماتهم الى حضرته لغزو البربر وأخذ في التضريب بين العسكر والبربر ، واطلع العبيد على خبثه فحاصوا عنه حيصة حمر الوحش ، وأصفقوا على عزله ورد أخيه المولى

أحمد للملك لسخائه وبسط يده ، وكذبوا ، فان المولى أبـا مروان رحمه الله كان أنسب حالا بالخلافة من أخيه المولى أحمد لنجدته وحزمه ، وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبساط الدولة من افتيات العبيد وتحكمهم على أعياصها الا أنه لم يحكم التدبير فى ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم .

ولما تحقق المولى أبو مروان بما عزم عليه العبيد من خلعه بعث اليهم الشيخ البركة مولاى الطيب بن محمد الوزانى واعظا ومذكرا فأتاهم ووعظهم ووعدهم الخير ان أقلعوا ، ونهاهم عن الخروج على السلطان واتباع سبيل الشيطان ، وخوفهم فى ذلك من سخط الله فما زادهم الا نفورا ، ثم بعثوا بجريدة من الخيل الى سجلماسة ليأتوا بالمولى أحمد ، وفى أثناء ذلك ركب العبيد من الديوان وأغاروا على مكناسة فاكتسحوا سرحها ، ثم اقتحموا المدينة فنهبوها واستباحوا حرماتها ، وقتلوا من ظفروا به من أعيانها ، ثم دخلوا دار الملك للقبض على السلطان المولى أبى مروان فلم يجدوه لانه لما سمع بما فعله العبيد بمكناسة ركب فى جماعة من اصحابه وفر الى فاس ، فدخل حرم المولى ادريس رضى الله عنه واستجار به ، وبعث الى أهل فاس فاستجار بهم فوعدوه الدفاع عنه والقيام بامره .

ولما علم العبيد بموضع المولى أبى مروان من فاس وما وعده به أهلها حبسوا رماتهم الذين كانوا قد قدموا مكناسة بقصد غزو البربر كما تقدمت الاشارة اليه ، وثقفوهم حتى يقدم السلطان المولى أحمد من سجلماسة ويرى فيهم وفى أخيه رأيه ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة أربعين ومائة وألف .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المومنين المولى ابى العباس أحمد الذهبى رحمه الله

لما راسل العبيد المولى احمد بن اسمعيل بسجلماسة وأعلموه بما عزموا عليه من عزل أخيه ورد الملك اليه بادر بالقدوم الى مكناسة فدخلها فى التاريخ المتقدم ، وحضر أعيان الدولة من القواد والقضاة والكتاب ، وبايعوه البيعة الثانية وكتبوا بذلك الى الآفاق ، ثم دخل دار الملك وفرق الاموال والكسى فى العسكر والعلماء والاشراف وبالغ فى ذلك تفصيا مما نقمه العبيد على اخيه ، وكان فعل أخيه أقرب الى الصواب لو هلك الوسعد ، وأحكم أمره ورتبه ترتيب ذو الحزم ، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

حصار أمير المومنين المولى احمد لفاس والسبب في ذلك

لما بويع المولى أحمد البيعة الثانية قدم عليه الوفود من القبائل والامصار فأكرم وفادتهم ، وتخلف عنه أهل فاس فلم يقدم عليه أحد منهم لانه لما قدم من سجلماسة وأعلم بمكان اخيه منهم وبمكان رماتهم المثقفين بمكناسة أمر بسجنهم والتضيق عليهم فأوجسوا منه شرا وحذروه ، ولانهم كانوا قد ارتكبوا العظيمة اولا فى قتل أبى على الروسى ونهب داره وماله ومال المخزن الذى كان تحت يده ، فكانوا يتوقعون سطوة السلطان المولى أحمد بهم اول ما بويع ، ثم لم يلتفت اليهم لشغله بنفسه ، فلما عادت الدولة اليه ارتابوا به وحادوا عن طاعته وتقدموا الى المولى عبد الملك وجددوا له البيعة وأعلنوا بنصره والقيام بأمره ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان المولى أحمد يأمرهم أن يسلموا اليه أخاه ويدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا

بحربه ، فجهروا بالخلاف وأغلقوا الابواب ووطنوا انفسهم على الحصار ، ثم بعث اليهم السلطان القائد اليديني قائد الرماة المسجونين بمكناسة وأمره أن يعرض عليهم الدخول فى الطاعة ويسرح لهم اخوانهم المسجونين ، وحمله كتابا اليهم يتضمن ذلك وغيره ، فلما فرغ القائد المذكور من قراءة كتاب السلطان عليهم وثبوا عليه فقتلوه ثم جروه برجله وصلبوه على التوتة التى بحومة الصفارين ثم وثبوا على الحاج الخياط عديل فقتلوه على باب داره وخرج الشريف أبو محمد عبد الله بن ادريس الادريسى فى كتيبة من الخيل والرماة الى زواغة فأغار على سرح الودايا واستاق من البقر والغنم شيئا كثيرا ، فدخل به فاسا وبيع بأبخس ثمن وتوزعته الايدى ، فبيعت البقرة بست موزونات والشاة بموزونة على ما قيل ، وهاجت الحرب بين أهل فاس والودايا ، ثم نهض السلطان المولى أحمد فاتح محرم من سنة احدى وأربعين ومائة وألف فى عسكر العبيد وودايا مكناسة ،فزحف الى فاس ونزل عليها ثانى يومه ونصب عليها المدافع والمهاريس وآلات الحصار ، وانثلى العسكر على بساتينها وبحائرها فاتسفوا ثمارها واجتاحوا غللها ، وأمر الطبجية بموالاة الكور والبنب والحجارة عليها ليلا ونهارا ففعلوا ، ودام ذلك الى أن عمها الخراب وتهدم الكثير من دورها وهلك عدد وافر من رجالها ، بعضهم فى القتال وبعضهم بالهدم والحجارة ، واستمر الحصار نحو خمسة أشهر فضاق بهم الحال وضعفوا عن القتال ، وقلت الاقوات وارتفعت الاسعار ، فاذعنوا للطاعة وصالحوا المولى احمد على اسلام اخيه المولى عبد الملك اليه وتمكينه منه على الامان ، فبعث السلطان المولى احمد الى أخيه المولى عبد الملك يخيره بين التغريب الى سجلماسة والمقام بالحرم الادريسى ، فاختار المقام بالحرم .

ثم ان السلطان تقدم الى أهل فاس فى أن لا يجتمع أحد منهم بأخيه ولا يجالسه ولا يكلمه ولا يبيع من أحد من أصحابه شيئا ولا يشترى منه ، ومن فعل شيئا من ذلك فانه يعاقب ، فلما رأى المولى عبد الملك ما عامله به أخوه من التضيق بعث ولده الى العبيد يطلب منهم ان يؤمنوه ويخرج معهم

الى حيث شاءوا ، فقدم عليه الباشا سالم الدكالى فى خمسين مـن القـواد وعاهدوه بالحرم الادريسى أن لا يصيبه مكروه ، فخرجوا به حتي قدموا بـه على أخيه ، فلما مثل بين يديه أمر به أن يحمل الى مكناسة مقبوضا عليـه ، فوصل الى مكناسة وسجن بدار الباشا مساهل ، ثم رحل السلطان المولى احمد عن فاس قافلا الى مكناسة وعند حلوله بها مرض مرض موته ، ولما أحس من نفسه بالموت أمر بخنق أخيه المولى عبد الملك فخنق ليله الثلاثاء اول يوم من شعبان ، ثم توفي السلطان المولى أحمد يوم السبت رابـع شعبان المذكور سنة احدى واربعين ومائة والف فكان بين وفاتهما ثلاثة أيام رحمهما الله .

واعلم ان ما ذكرناه من هذه الاخبار هـو الذى عند صاحب البستان وقلده أبو عبد الله أكنسوس حذو النعل بالنعل ، ورأيت بخط جدنا مـن قبل الام وهو الفقيه الاستاذ أبو عبد الله محمد بن قاسم الادريسى اليحيوى الجبارى عرف بابن زروق ، وكان حيا فى هذه المدة ما نصه :

«بويع المولى احمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى يوم وفاة والده رحمه الله بعد أن ثار بالمغرب والقصر وحوزه فساد كبير بين القبائـل واصحاب المخزن ، وهلك فى ذلك بشر كثير ، وبعد مكثه فى الملك سنة واحدة وثمانية أشهر خلع ، وبويع اخوه المولى عبد الملك فى الآخر من رجب سنة احدى واربعين ومائة والف ، وهو بالسوس الاقصى بمدينة تارودانت » ثم ورد على دار المملكة بالحضرة المكناسية ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم مـن السنة المذكورة ، ثم ثار عليه أخوه المولى احمد المخلوع فى عاشر المحـرم فاتح سنة اثنتين وأربعين ومائة والف ، واقتحم عليه دار الملك مـن مكناسة عنوة ، ووقع فساد كبير بالمدينة المذكورة ، وهلك بشر كثير فـى الحرب ، ومنهم من قتل صبرا ، وفر المولى عبد الملك ناجيا بنفسه الى فاس ، ثم حاصره بها المولى أحمد نحوا من اربعة اشهر حتى خرج اليـه على الامان فأمـر بسجنه بمكناسة ، ثم قتـل المولى عبد الملك صبرا مخنوقا فـى أواخر رجب المذكور ايضا» اه كلامه والله تعالى أعلم بحقيقة الامر .

قالوا وكان المولى احمد رحمه الله اشبه الناس بالامين بـن الرشيد

العباسي في زيه ولهوه واكبابه على شهواته وتضييع الحزم والجد حتى فسدت الاحوال وتراكمت الاهوال ، وذكر معاصروه أنه لم يكن شهد حربا قط قبل خلافته وكان مع ذلك جوادا متلافا فآلت به الامور الى ما ذكرنا ولله الامر من قبل ومن بعد .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى عبد الله بن اسماعيل رحمه الله

كان المولى عبد الله بن اسمعيل ، وهو ولد الحرة خناثى بنت بكر المغفري أيام خلافة اخيه المولى احمد منحاشا الى اخيه المولى عبد الملك ومقيما معه ببلاد السوس ، فلما خلع المولى احمد وبويع المولى عبد الملك وقدم مكناسة قدم المولى عبد الله في ركابه ، واستمر مقيما بها الى ان ثار العبيد بالمولى عبد الملك وفر الى الحرم الادريسي ، فخرج المولى عبد الله من مكناسة الى سجلماسة ، واقام بداره بها الى ان توفي السلطان المولى أحمد في التاريخ المتقدم ، فاجتمع أعيان الدولة من العبيد والودايا وسائر القواد والرؤساء واتفقوا على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل ، وهو يومئذ بسجلماسة ، فنادوا باسمه واعلنوا بنصره في المحلة ومكناسة ، وبعثوا جريدة من الخيل لتأتي به وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس يعزونهم عمن هلك من اخوانهم أيام الحصار ، ويحضونهم على الموافقة على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل .

ولما وصل الكتاب الى فاس قرئ على منبر جامع القرويين فأجابوا بالموافقة ان حضر ، ولما وصلت الخيل الى المولى عبد الله واعلموه بما اتفق عليه الناس في شأنه أقبل مسرعا حتى نزل بظاهر فاس بالموضع المسمى بالمهراس ، فخرج أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم لملاقاته فسلموا عليه واستبشروا بقدومه فسر بهم والان لهم القول ووعدهم بالجميل . وأعلمهم بانه من الغد يدخل لحضرتهم لزيارة المولى ادريس رضي الله عنه ،

فرجعوا مسرورين مغتبطين . ومن الغد أخـذوا زينتهم ولبسـوا أسلحتهم ونشروا ألويتهم وخرجوا لميعاده ، فركب السلطان فرسه وركب معه خاصته وأهل موكبه ، وفي جملتهم حمدون الروسي عدو أهـل فاس ، وتقـدم السلطان فدخل على باب الفتوح وتوسط المدينة ، فرأى بعض سماسرة الفتن من أولاد ابن يوسف ،حمدون الروسي . وكان قد قتـل أباهم حسبما مر ، فصمدوا اليه : فلما رآهم تنحى عنهم قليلا فتبعوه ، فعلم أنهـم عزموا عـلى اغتياله ، فركض فرسه الى السلطان وهو على قنطرة الرصيف ، واخبره خبر أولاد ابن يوسف ، وخص وعم بالارجاف في حق أهـل فاس ، فعـدل السلطان عن قصده ، ورجع على طريق جامع الحوت ثم على جزاء ابن عامـر وخرج على باب الحديد الى فاس الجديد ولم يزر ، ولم يعلـم الناس موجب الرجوع عن الزيارة الى ان شاع الخبر بذلك ، فمشى علماء فاس وأشرافهـا الى السلطان ورفعوا اليه بيعتهم ، واعتذر اليه بعض الفقهاء بان ما وقع فـي جانب حمدون انما هو من بعض السفهاء ، فاعرض السلطان عن ذلك وصم عن سمـاعه .

وكانت البيعة التي رفعها أهل فاس من انشاء الفقيه العالـم الوجيـه أبي العلاء ادريس بن المهدي المشاط المنافي ، نسبة الى عبد مناف بن قصي ، وهذا الفقيه هو الذي كان السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بعثه قاضيا عـلى تادلا مع ابنه المولى أحمد الذهبي حين ولاه عليها كما مر ، ونصها :

الحمد لله الذي جعل العدل صلاحا للملك والرعية والعباد ، كما جعل الجور هلاكا للحرث والماشية والبلاد ، وسدد العادل بعنايته وأعد للجائر مـا هو معلوم له يوم المعاد ، وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كمـا جعل القاسطين في العذاب والحسرات والانكاد ، فأسعد الملوك يـوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد ، وأصلح ما أظهره الجائر في الارض مـن الفساد ، نحمده أن تفضل علينا بامام عادل ، ونشكره ان حكم فينـا من لا يصغي في الحق لقول عاذل ، فولى علينا الخليفة من نسل الشفيع يوم التناد ، ونشهد ان لااله الا الله وحده لا شريك له لا يسأل عما يفعل يؤتي الملـك

من يشاء وينزع الملك ممن يشاء في أي وقت شاء واراد ، ونشهد أن سيدنا ونبيا ومولانا محمدا عبده ورسوله الشفيع في امته يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يقبل من القاسطين فداء بطريف ولا تلاد ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أظهروا الشريعة ومحوا الظلم محو المداد ، أما بعد حمد الله الذي أمر بطاعة اولي الامر ، ووعد من نصر دينه بالظفر والنصر ، فقال عليه السلام : «ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قال : «من أراد ان يفرق أمر هذه الامة وهو جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان» . وفي صحيح مسلم ايضا عنه صلى الله عليه وسلم قال : «من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه» . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كره من أميره شيئا فليصبر فان من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية» . وفيه أيضا عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني» . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن عقبة لعلك لا تلقاني بعد اليوم فعليك بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة للامير وان عبدا حبشيا » .

واتفق أئمة الدين على ان نصب الامام واجب على المسلمين وان كان من فروض الكفاية ، كما ان القيام بذلك من الواجبات كما دلت عليه نصوص الاحاديث والآيات : وقال الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ولما كان من امر الله سبحانه ما اراده وقدره ، فقبض اليه خليفته وأقبره ، دهش المسلمون وخافوا من توالي الشرور والفتن فتوجهوا اليه سبحانه في أن يغمد عنهم السيوف ، وطلبوا من فضله المعهود ان يصرف عنهم ضروب المحن والحتوف ، فأجاب الكريم الدعوات ونفس الهموم والكربات، ونشر رحمته ، وازاح نقمته ، فصارت القلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه

ضاحكة بعد عبوسها ، والشرور والفتن قد ادبرت ، وأعلام الامن والعافية قد اقبلت ، فوفق الله جيوش المسلمين للاعمال المرضية ، والهمهم لما فيه صلاح الدنيا والدين والراعي والرعية ، فاقتضى نظرهم السديد ، ورأيهم الموفق الرشيد بيعة من في افق السعادة قد طلع ، وظهر في سماء المعالى بدره وارتفع ، الامام الهمام العلوى الهاشمي العدل في الاحكام ، الموصوف بالكرم والشجاعة والشهامة ، والحزم والنجدة والزعامة ، المتواضع لله المتوكل في جميع اموره على الله ، أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن الشريف الجليل، الماجد الاصيل أمير المؤمنين مولانا اسمعيل ، بن مولانا الشريف ، فبايعوه أعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول ، واقامة العدل الذى هو غاية المامول، بيعة التزمتها القلوب والالسنة ، وسعت اليها الاقدام والرؤوس خاضعة مذعنة، لا يخرجون له من طاعة ، ولا ينحرفون عن مهيع الجماعة ، أشهدوا على أنفسهم عالم الطويات ، المطلع على جميع الخفيات ، قائلين انا بايعناك وقلدناك لتسير فينا بالعدل والرفق ، والوفاء والصدق ، وتحكم بيننا بالحق ، كما قال تعالى لنبيه في محكم وحيه : «ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق» وقال تعالى وقوله الحق: «ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما» وقال تعالى : «ولا تكن للخائنين خصيما» وهذه الرعية تطلب من ربها ان يعين مالكها ويساعده ، ويقذف الرعب في قلب من يريد أن يعانده ، وان يفتح عليه ما عسر على غيره ، ويمده بعزيز نصره ، انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ، وبيده القوة والحول ، نعم المولى ونعم النصير، شهد بذلك على نفسه ومن معه العبد الفقير المذنب الحقير ممليها وكاتبها ادريس بن المهدى المشاط بمحضر فلان وفلان ، وجمهور الفقهاء والاعيان في يوم الاثنين سابع رمضان سنة احدى واربعين ومائة والف .

ثم سافر السلطان في الحين الى مكناسة كما نذكره .

■

حدوث النفرة بين امير المومنين المولى عبد الله وأهل فاس والسبب في ذلك

قد قدمنا ما كان من وسوسة حمدون الروسى للسلطان المولى عبد الله فى جانب أهل فاس واعتذار بعض الفقهاء لدى السلطان عن ذلك ، ثم أن السلطان أمر أهل فاس ببعث طائفة منهم تكون معه على العادة ، فعينوا الخمسمائة التى كانت تغزو مع الملوك قبله ، فذهبت معه الى مكناسة .

ولما استقر بالحضرة قدم عليه أعيان الديوان وعمال القبائل ووفود الحواضر والبوادى ، ففرق المال ولم يحرم احدا سوى أهل فاس ، فانه لم يعطهم شيئا ، ثم حضر عيد الفطر فقدمت وفود الامصار ليشهدوا العيد مع السلطان على العادة ، وقدم وفد فاس لهذا الغرض وحضروا صلاة العيد مع السلطان بالمصلى ، ولما قدم الناس هداياهم بعد رجوع السلطان الى منزله قدم أهل فاس هديتهم على العادة فاعطى الناس وحرمهم ثانيا .

قلت : ولست أشك فى ان شيطانا من شياطين الانس كان موكلا بهذا السلطان يغريه بأهل فاس ، ويوغر صدره عليهم ويفسد ما بينه وبينهم ، والا فكيف تقتضى السياسة أن يعمد ملك كبير الى اخص رعيته ولبها وصميمها فيفسد ضمائرها عليه ويزرع بغضه فى قلوبها ، وهب انهم أساءوا الادب أليس التغافل مطلوبا فى مثل هذا ما أمكن ؟لا سيما فى حق السلطان ، وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيحلم عنهم ، وقال له بعض اصحابه : «الا نقتلهم ؟» فقال له صلى الله عليه وسلم «كيف يتحدث الناس أن محمدا يقتل اصحابه» ومن الحكم المأثورة قولهم : «التعامى يدفع شرا كثيرا» وقال الشاعر :

ليس الغنى بسيد فى قومه * لكن سيد قومه المتغابى

ومن الغد أمر السلطان باحضار أهل فاس بالمشور ثم خرج عليهم

فقاموا اليه وأدوا واجب التحية ، فقال لهم : «ياأهل فاس ، كاتبوا اخوانكم يسلموا الينا البساتين والقصبات فانها للمخزن ومن وظائفه فان أبـــوا فانـــى آتيهم وأهدم عليهم تلك القرية» فأجابوا بالسمع والطاعة وعادوا الى رحالهم.

ولما كان المساء اتخذوا الليل جملا وأسروا ليلتهم كلها ولم يصبحوا الا بباب فاس ، فاجتمعوا باخوانهم وقرروا لهم مقالة السلطان وما عزم عليـــه فى حقهم ، فاجتمع اعيانهم وتفاوضوا فـــى شأنهم وشأن السلطان وأحضروا نسخة البيعة وتصفحوا شروطها وقالوا : «انا لم نبايعه على هذا الذى يعاملنا به» ثم أعلنوا بخلعه والامر لله وحده .

حصار المولى عبد الله مدينة فاس



لما أعلن أهل فاس بخلع السلطان المولى عبد الله عزمـــوا على الحرب ووطنوا أنفسهم على الحصار ، ونادوا فى المدينة من أراد الخروج الى بلـــد ومامنه من غير أهل البلد فليتهيأ فى ثلاث ، ثم أغلقوا ابواب المدينة واستعدوا للقتـــال .

ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزوهم فأخذ أهبته وخرج من مكناسة فى الخامس والعشرين من شوال سنة احدى واربعين ومائة والف ، فنـــزل على فاس ووزع الجنود عليها من كل ناحية ، وأطلق يد الجيش بالعيث فـــى أطرافها من تخريب المصانع وقطع الاشجار وافساد المزارع ، وأمـــر بطـــم الوادى فانحبس عنهم ماؤه ، وزحفت العساكر فكان القتال على كـــل باب سائر النهار فاذا كان المساء أمـــر الطبجية والاعلاج بارسال الكـــور والبنب وحجارة المنجنيق ، فكان الناس لا يستريحون بالنهار ولا ينامون بالليـــل ، واشتد الكرب وريع السرب ، واستمر الحـــال الى ان دخلت سنـــة اثنتين واربعين ومائة والف فازداد الامـــر شدة ، وارتفعت الاسعـــار وانعدمت

الافوات ، وكثر الهرج ، فبعثوا الى السلطان فى الصلح ، فقال : «على تسليم البساتين والقصاب» فأبوا وتجلدوا ، ثم بعد ذلك وقع الصلح على يد القائد أبى عبد الله محمد السلاوى بضريح المولى ادريس رضى الله عنه» واستصحب معه جماعة من أشراف فاس وعلمائها الى السلطان وهو بفاس الجديد ، فأكرم مقدمهم ووصلهم بألف دينار وكساهم ، وولى عليهم الحاج أبا الحسن عليا السلاوى ، فدخل الوالى المذكور القصبة ثانى ربيع النبوى سنة اثنتين وأربعين ومائة والف ، وشحن البساتين والقصاب بالمقاتلة من أصحابه وافتتح عمله بقتل الشيخ «حمان المنجاد من رؤساء فاس ، ولما اتصل خبره بالسلطان عزله ، وولى على فاس أحد اولاد حمدون الروسى المعروف بالبادسى ، ثم بعد مدة يسيرة عزله وولى عبد النبى بن عبد الله الروسى ، ثم لما عزم على النهوض الى مكناسة عزله أيضا وولى عليهم عدوهم حمدون الروسى ، وارتحل فى العشرين من ربيع الاول من السنة .

وفى هذه السنة بعث السلطان ولده المولى محمدا مع امه السيدة خناثى الى الحجاز بقصد حج البيت ، والمولى محمد يومئذ دون بلوغ ، وفى «نشر المثانى» : «ان هذه الحجة كانت سنة ثلاث بعدها» قال : «ان ام السلطان المولى عبد الله ، وهى السيدة خناثى بنت بكار المغفرية ، التمست من ولدها المذكور السفر الى المشرق بقصد حج بيت الله الحرام فأجابها الى ذلك وهيأ لها جميع ما تحتاج اليه ، ووجه معها ولده الذى أيد الله به الدنيا والدين بعده سيدى محمد بن عبد الله فحج معها فى هذه السنة يعنى سنة ثلاث وأربعين ومائة والف .

■

نهوض السطان المولى عبد الله الى قتال البربر وايقاعه بهم

لما استقر السلطان المولى عبد الله بمكناسة وتفقد حال البربر وجدها قد عادت الى حالها الاول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث فى الطرقات ، فأمر العبيد بالاستعداد لغزوهم وتمهيد البلاد والتقصير من بأوهم فخرج الى تادلا وصمد الى آيت يمور الذين كانوا قد نزلوا بها وأضروا بأهلها حين نفتهم آيت ومالو عن رأس ملوية وغلبوهم عليه فنزلوا تادلا وأوقدوها نارا فكثر شاكيهم بباب السلطان ، فنهض اليهم على ما سبق ، ولما أحسوا بدنوه منهم فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسرى فتبعهم الى أن أوقع بهم على وادى العبيد ، وقتل منهم آلافا وانتهبهم وعاد الى تادلا ظافرا . والله غالب على أمره .

ذكر ما صدر من السلطان المولى عبد الله من العسف المخل بالسياسة والتناقض المغير في وجه الرياسة



لما عاد السلطان المولى عبد الله الى تادلا قتل عشرين رجلا من أعيان رماة أهل فاس ، وكتب الى اخوانهم يعتذر عن قتل من قتل منهم ويأمرهم بتجديد بعث آخر وتوجيهه اليه فعينوا طائفة من رماتهم وجهوها بعد أن عرضها القائد حمدون الروسى برأس الماء ، ثم من الغد قتل القائد حمدون المذكور عبد الواحد تيير ، ومحمد بن الاشهب من أهل فاس بباب السجن وأمر بجرهما فى سكك المدينة ، ثم أصبح غاديا على أبواب فاس فتتبعها بالهدم فهدم باب المحروق وباب الفتوح وباب الجيسة وباب بنى مسافر وباب الحديد ، وحمل مصاريعها كلها الى فاس الجديد ، وفى أول يوم من المحرم من سنة ثلاث وأربعين ومائة والف شرع حمدون الروسى فى هدم سور

مدينة فاس وجر الانقاض التي بها الى فاس الجديد ، وفي أثناء ذلك ورد كتاب من السلطان يتضمن العفو عن أهل فاس والرضا عنهم ، فارتاب حمدون الروسي وفر الى زرهون ، ثم قفل السلطان من تادلا فأقام بمكناسة مدة يسيرة وخرج غازيا بلاد السوس فقدمها ومهدها وعاد مؤيدا منصورا ، وفي هذه السنة أمر ببناء باب منصور العلج بمكناسة فجاء في غاية الضخامة والفراهة وأكمل سوق القصبة فجاء على ما ينبغي والله أعلم .

هدم السلطان المولى عبد الله مدينة الرياض من حضرة مكناسة وما اتصل بذلك

كانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها اذ كان بها آثار أكابر دولة أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله ، وبها دور العمال والقواد والكتاب وسائر أعيان الحضرة الاسماعيلية ، بل كل من كان له وظيف في خدمتها السلطانية بنى داره بها وتنافس الاكابر والرؤساء في تشييد الدور وتنجيد القصور ، وتناهوا في ذلك حتى كان بدار علي بن يشي القبلي أربع وعشرون حلقة يجمعها باب واحد ، وكانت دار القائد عبد الله الروسي وأولاده على ذلك المنوال بل أعظم ضخامة وأكمل حضارة حتى كأنها حومة مستقلة، وكان لامثالهما من القواد مثل ذلك أو قريب منه فخلدوا بها الآثار العظيمة والمعالم الفخيمة ، وبنى كل عامل مسجدا في حومته ، وكان بوسطها المسجد الاعظم الاسماعيلي ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه ، وكانت تنفق بها البضائع التي لا تنفق في غيرها فأتى عليها من أيام النحوس يوم ركب السلطان المولى عبد الله عند فجره ، ووقف على تل عال يشرف منه عليها وأمر النصارى والشعابنية بهدمها ، فتسارعوا اليها وشرعوا في هدمها من كل ناحية والناس نيام ، فلم يرعهم الا بيوتهم تتساقط

عليهم ، فمن أسرع وخف بحمل متاعه وأثاثه نجا ، ومن لا معين لـــه أو تراخى فى حمل متاعه ضاع تحت التراب ، وكان بها طائفة كبيـــرة مـــن أخواله الودايا وغيرهم ، فارتحل الودايا الى فاس الجديد وانضمـــوا الى اخوانهم الذين بها ، وتفرق غيرهم بمدينة مكناسة ، ولم تمض عشرة أيـام حتى صارت مدينة الرياض كدية من التراب ولم يبق بها الا الاسوار قائمة الاشخاص والجدران مائلة للعيان والامر لله وحده .

قالوا : وفى هذه السنة بعث السلطان المولى عبد الله بعثا مـــع القائـــد أبى عمران موسى الجرارى الى بعض الجهات . وكانوا نحو ثلاثمائـــة ، فلما قدموا عليه قتله وقتل أصحابه معه ، وقدم عليه أيضا وفد من عند الباشا أحمد بن على الريفى فى مثل هذا العدد من طنجة ومعهم هدية الباشا المذكور فقتلهم ، فكان قتلهم سبب نفرة أحمد بن على عنه وسعيه فى افساد دولته ، وقتل أيضا من قبيلة حجاوة مائتى رجل على دعوى قطع الطريق ببلادهم ، ولما أمر بقتلهم وأخرجوا الى المحل المعد لذلك خرج النظارة والبطالـــون من أهل البلد للفرجة عليهم بباب البطيوى ، فبينماهم كذلك اذا بالسلطـان قد برز من الباب ، ولما رأى اجتماع الناس قصد نحوهم فلمـا رأوه فـــروا الى كهف هناك قريب ، فاختفوا فيه فأتى السلطان حتى وقف عـــلى باب الكهف ، وكان من قربه أكوام من حجر أعدت للبناء بها ، فأمر الاعوان من المسخرين بوضع أسلحتهم وردم باب الكهف بذلك الحجر مـــع التراب ففعلوا ، وهلك ذلك الجمع الكثير غما ، ولم يوقف لهم بعد على خـــبر ولا عرف لهم عدد ، ولما صدرت منه هذه الافعال الشنيعة عفا الله عنه كتب اليـه أهل الديوان من مشرع الرملة ينكرون عليـه قتله للمسلمين دون موجب فبعث اليهم بالراتب وأمرهم بالتهيؤ لغزو أهل فازاز فشغلهم بذلك .

وفى هذه السنة بعث محمد بن على بن يشى الزموزى القبلى واليـا على فاس وقال له : « خذ منهم المـال واطرحه فى وادى أبى الخراريب ولا تتركه لهم ، فما أطغاهم الا المال حتى استخفوا بأمر الملك » فقدم محمد بن على المذكور فاسا ونزل بدار أبى على الروسى بالمعادى وعين من كل حومة

نقيبا عارفا بأهل اليسار ، فجمعوه لهم حتى كانوا بين يديه فأمر بسجنهم ، ثم وظف عليهم أولا خمسمائة ألف منقال وزعها على التجار وأهل اليسار دون غيرهم من العشرة آلاف الى الالف ، ثم شرع فى قبض المال الموزع ومن تراخى منهم فى الدفع ضرب وسجن ، ومن تغيب من أهل اليسار حبس ولده أو أخوه أو زوجته الى أن استوفى العدد المذكور ثم عطف على أهل الصنائع والحرف وأرباب الاصول من الفلاحين وغيرهم فوزع عليهم قدرا وافرا من الالف الى المائة وما دون ذلك حتى لم يبق فى المدينة أحد الا وفد غرم ، ففر الناس الى البوادى والقرى والجبال ، ومنهم من رحل الى السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس الا النساء والذرية ومن لا عبرة به من الرجال حتى ان الذين كانوا بالسجن فبنفس خروجهم منه فروا بانفسهم ولم يعرجوا على أهل ولا ولد ، وأقام محمد بن على على هذا العمل بفاس ثلاثة عشر شهرا وكلما اجتنى مالا بعث به الى السلطان بمكناسة ، وكانت هذه الخطوب كلها فيما بين سنة ثلاث وأربعين الى سنة خمس واربعين ومائة وألف .

بعث السلطان المولى عبد الله جيش العبيد الى فازاز وايقاع اهله بهم

وفى سنة ست وأربعين ومائة وألف جهز السلطان المولى عبد الله جيشا من العبيد يشتمل على خمسة عشر ألفا من الخيل وعقد عليهم للباشا قاسم بن ويسون ، وأضاف اليهم ثلاثة آلاف من جيش الودايا وعقد عليهم للقائد عبد الملك بن أبى شفرة ووجههم الى جبال آيت ومالو ، فلما عبر الجيش وادى أم الربيع على قنطرة البروج ونزلوا بسيط آدخسان كادهم البربر بأن أظهروا الفرار أمامهم وتوغلوا فى الجبال فتبعهم العبيد الى أن توغلوا فى تلك الجبال ونشبو فى اوعارها ، والبربر تفر منهم فى كل وجه

وهم يتبعونهم الى ان حان وقت المساء فبعث البربر ليلا طائفة منهم لسد الثنايا والانقاب التى دخل منها جيش السلطان ، فأحكموا سدها بشجر الارز والحجارة ، ولما اصبحوا هجموا على الجيش من كل ناحية وصدقوهم القتال الى أن ردوهم على أعقابهم ، فلما انتهى العبيد الى الثنايا التى دخلوا منها وألفوها مسدودة دهشوا وخشعت نفوسهم وازدحموا عليها بعد أن ترجلوا وتركوا الخيل والسلاح والابنية فيها من الاثاث ، فنهب البربر جميع ذلك ، ثم جردوا باقى العسكر من الثياب ، ولم يقتلوا أحدا ورجع العبيد الى مكناسة راجلين متجردين من المخيط والمحيط فكان ذلك من أقوى الاسباب التى بغضت السلطان المولى عبد الله للعبيد ، لان ذلك كان باشارته بزعمهم مع اسرافه فى قتل رؤسائهم كما سياتى ، ومع ذلك فقد أنعم عليهم بالمال والكسى ووعدهم باخلاف جميع ما ضاع لهم ورجعوا الى مشرع الرملة ممتعضين لتلك الفعلة .

ثورة العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره الى وادى نول وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة سبع وأربعين ومائة وألف فسد ما بين السلطان المولى عبد الله رحمه الله وبين العبيد لاسرافه فى قتلهم حتى كاد يأتى على عظمائهم ، وكان ذلك منه جزاءا لهم على قتلهم لاخيه المولى عبد الملك ، حسبما سبق اذ كان ما بينه وبينه صالحا كما مر ، فقتل منهم كل من سعى فى قتله أو شارك فيه أو وافق عليه ، حتى بلغ عدد من قتل منهم أزيد من عشرة آلاف ، فأجمعوا على خلعه وقتله ودس اليه بعضهم بما عزموا عليه فى شأنه ، ففر ليلا من مكناسة ولم يصبح الا بحلة آيت أدراسن فاجلوا مقدمه وتباروا فى اكرامه .

ولما عزم على النهوض عنهم ركبوا معه وصحبوه الى تادلا ثم ودعوه ،

وعادوا الى بلادهم ومضى هو الى مراكش ومنها ذهب الى السوس فنزل بوادى نول على أخواله المغافرة ، وكان معه يومئذ ولداه المولى أحمد فى سن البلوغ والمولى محمد السلطان بعده صغيرا وأقام عند المغافرة نحو ثلاث سنين ، واما والى فاس محمد بن على بن يشى فانه لما اتصل به فرار السلطان من مكناسة فر هو ايضا عن فاس ليلا ولم يصبح الا بزرهوز فاطمأن بها جنبه وكان ما نذكره .

الخبر عن دولة امير المؤمنين ابى الحسن على بن اسمعيل المعروف بالاعرج رحمه الله

لما فر امير المومنين المولى عبد الله بن اسمعيل من مكناسة الى وادى نول اجتمع عبيد الديوان واتفقوا على بيعة المولى أبى الحسن على بن اسمعيل المعروف بالاعرج ، وكان يومئذ بسجلماسة ، فكتبوا اليه بذلك وبعثوا بالكتاب مع جريدة من الخيل لتأتى به فأقبل مسرعا ، ولما وصل الى مدينة صفرو لقيه بها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها فبايعوه ففرح بهم وأكرمهم ، وعادوا فى صحبته الى فاس الجديد فولى عليهم مسعودا الروسى وذلك فى ربيع الثانى سنة سبع وأربعين ومائة وألف ، وأمره أن لا يقبض منهم الا الزكوات والاعشار الشرعية وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة .

وكان رحمه الله موصوفا بالحلم والعقل متوقفا فى الدماء فستره الله فى آخر أمره وأجمل خلاصه ثم نهض الى مكناسة ولما قدمها بايعه الجيش بوا البيعة العامة هكذا فى « البستان » .

ورأيت بخط جدنا للام الفقيه الاستاذ أبى عبد الله محمد بن قاسم ابن زروق الحسنى الادريسى ما نصه : «وفى اليوم الاول من جمادى الاولى من سنة سبع واربعين ومائة والف ثار عبيد الرملة على أمير المؤمنين المولى عبد

الله بن اسمعيل ونقضوا بيعته وأعلنوا بنصر أخيه المولى على ولـد عائشة مباركة ، وخرج لهم المولى عبد الله عن دار الملك بمكناسة بعد أن أخذ ما كان بها مما أعجبه من خيل وعدة ومال من غير قتال ولا محاربة ، ودخل أخوه المولى على دار الملك بمكناسة يوم الجمعة فاتـح جمادى الثانية مـن السنة المذكورة وكتبه فى الثانى عشر من الشهر المذكور محمد بن زروق كان الله له بمنه. » اهـ كلامه بحروفه .

ولما استقر السلطان المولى أبو الحسن بمكناسة قدمت عليه الوفـود ببيعاتهم وهداياهم من جميع البلدان فأجازهم ، وفرق المال على الجيش الى أن نفذ ما عنده واحتاج فقبض على الحرة خناثى بنت بكار ام السلطان المولى عبد الله فاستصفى ما عندها ثم امتحنها لتقر بما عسى أن تكون قد أخفتـه فلم يحصل على طائل ، وكانت هذه الفعلة معدودة من هناته عفا الله عنه .

قال أبو عبد الله أكنسوس : « وخناثى هذه هى أم السلاطين أعزهم الله وكانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم فى كفالة والدها الشيخ بكار » وقال : « رأيت خطها على هامش نسخة من الاصابة لابن حجر وعرف بـه بعضهم فقال : هذا خط السيدة خناثى أم السلطان المولى عبد الله بلا شك» اهـ

ثورة اهل فاس بعاملهم مسعود الروسى وانتقاضهم على السلطان ابى الحسن رحمه الله

ثم أن مسعودا الروسى عامل فاس عدا على الحاج أحمد بودى رئيس اللمطيين فقتله ، وأمر بجره الى باب الفتوح اذ كان هو الـذى سعى فى قتل أخيه أبى على الروسى عقب وفاة السلطان المولى اسمعيل كما مر ، فلما ارتكب مسعود هذه الفعلة اجتمع أهل فاس وأخذوا أسلحتهم وتقدموا الى القائد مسعود ليقتلوه بصاحبهم ، ففر مسعود ولم يدركـوه فعطفوا عـلى السجن فكسروه وقتلوا الحرس والاعوان الذين به وسرحوا المساجين الى

حال سبيلهم . ولما اتصل خبرهم بالسلطان المولى أبى الحسن غض الطرف عنهم وبعث اليهم أخاه المولى المهتدى ومعه القائد غانم الحاجى ، وكتب اليهم يقول : انى قد عزلت عنكم مسعودا الروسى ووليت عليكم غانما الحاجى فلم يقبلوه ، ورجع من الغد الى مكناسة ثم رجعوا بصائرهم باشارة أهل المروءة منهم ، وبعثوا جماعة من العلماء والاشراف بهدية كبيرة مع المولى المهتدى الى السلطان تلافيا لما فرط منهم ، ولما دخلوا على السلطان قبض هديتهم وعدد عليهم ذنوبهم ثم أمر بهم الى السجن . ولما انتهى الخبر الى أهل فاس قامت قيامتهم وأغلقوا أبواب المدينة وأعلنوا بالخلاف ثم عطفوا على أصحاب مسعود الروسى وكل من كان له به اتصال فقتلوهم فى كل وجه ، وأنشبوا الحرب مع الودايا فى كل ناحية .

وفى رمضان من السنة المذكورة قدم من عند السلطان القائد أبو محمد عبد الله الحمرى من قواد العبيد فاجتمع بأهل فاس واعتذر اليهم عن السلطان وطلب منهم أن يبعثوا معه جماعة منهم الى السلطان لرتق هذا الفتق فاسعفوه ، وبعثوا طائفة من علمائهم وأشرافهم وأصحبوهم هدية نفيسة الى السلطان ، وكتب عبد الله الحمرى الى السلطان يعتذر اليه عنهم ويشفع لهم عنده ، فدخلوا على السلطان وعاتبهم ثم عفا عنهم ، وسرح لهم اخوانهم الذين كانوا فى السجن وولى عليهم عبد الله الحمرى . ثم لما دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة وألف عزله وولى عليهم عبد الله بن الاشقر وسكنت الهيعة واستقام الامر بعض الشىء .

غزو السلطان ابى الحسن اهل جبل فازاز فى جيش العبيد وهزيمتهم اياه

لما كانت أواخر سنة ثمان وأربعين ومائة وألف أخذ السلطان أبو الحسن فى الاستعداد وتجهيز العساكر لا يت ومالو وكان ذلك منه اسعافا للعبيد ليأخذوا بثارهم من البربر فى الوقعة السابقة أيام السلطان المولى عبد الله ، فخرج اليهم فى المحرم فاتح سنة تسع وأربعين ومائة وألف فى جيش كثيف من العبيد فلما نذروا باقباله اليهم ودنوه منهم أظهروا الفرار أمامهم مثل الفعلة الاولى ، فصاروا يتأخرون ويتبع آثارهم فينزل منازلهم الى أن عبروا وادى أم الربيع ودخلوا فى الجبال ، فعبر السلطان خلفهم وتقدم العبيد الى الجبال والاوعار فاقتحموها عليهم فلما توسطوها كرت البربر عليهم وانقضوا عليهم من الثنايا انقضاض العقبان ، وأحاطوا بهم من كل وجه فولوا منهزمين وازدحموا على الثنايا وسلكوا سبيلهم فى المرة الاولى من ترك الخيل والسلاح والابنية والاثاث والنجاة بمجرد أعناقهم ، وسلبهم البربر حتى من الثياب ولم يتعرضوا للسلطان فى موكبه وخاصته الى أن عبر وادى أم الربيع فرجعوا عنه ، ولما دخل مكناسة طالبه العبيد بالكسوة والسلاح والراتب فلم يكن عنده ما يعطيهم فنبغوا عليه ومرضوا فى طاعته .

وقد أجمل صاحب نشر المثانى هذه الاخبار فقال : وفى هذه السنة يعنى سنة تسع وأربعين ومائة وألف أهلك الله كل من خرج على السلطان مولاى عبد الله وقويت الفتن وارتفعت الاسعار وانحبست الامطار وقاسى الناس الشدائد من الغلاء وقل الادام وانقطع اللحم وهلكت رقاب كثيرة ولم يزل الامر فى شدة وفر الناس كل فرار .»

تحرك السلطان المولى عبد الله من السوس وفرار السلطان ابى الحسن الى الاحلاف وما كان من امره الى وفاته

لما كان شهر ذى الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بان السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادى نول ووصل الى تادلا فاهتز العبيد له ، وتحدثت فرقة منهم برده الى الملك وخالفهم سالم الدكالى فى جماعة من شيعته ، وقالوا : « لا نخلع طاعة مولانا على » اذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا فى خلع المولى عبد الله وتولية أخيه المولى على .

ثم ان شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا ببيعته ففر سالم فيمن معه من القواد الى زاوية زرهون مستجيرا بها .

ولما سمع بذلك السلطان المولى أبو الحسن فر من مكناسة الى فاس الجديد فصده الودايا عن الدخول اليها فعدل الى قنطرة وادي سبو فنزل هنالك يوما أو بعض يوم الى أن قضى بعض اربه ثم أصبح غاديا الى تازا فاحتلها ، ثم انتقل عنها الى عرب الاحلاف فأناخ بديارهم ففرحوا به وأكرموه وصاهروه ، وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه الى أن رجع الى مكناسة فاستوطنها باشارة أخيه السلطان المولى عبد الله حين وفد عليه بدار الدبيبغ من فاس سنة تسع وستين ومائة وألف ، فأعطاه مالا وجنات ومزارع مما كان لجانب المخزن بمكناسة وبعثه الى داره بها ، فأقام يسيرا ثم وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا به الى أخيه السلطان المولى عبد الله وقالوا : « ان هذا قد أفسد علينا بلادنا » فأخذه وسرحه الى تافلالت فاستقر بها الى ان مات رحمه الله كما سياتى .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله

لما فر السلطان المولى أبـو الحسن من مكناسة الى الاحـلاف اجتمعت كلمة العبيد والودايا على بيعة السلطان المولى عبد الله فبايعوه وهو بتادلا ، وتبعهم على ذلك أهل فاس وسائر القبائل ، ثم ان سالما الدكالى الذى بزرهون كتب الى أهل فاس يقول لهم : « ان الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله وبيعة سيدى محمد بن اسمعيل المعروف بابن عريبـة والمشورة لعلمائكم » فأجابوه بأن قالوا : « نحن تبع لكم » فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالـم الدكالى وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة الى زرهون وقبضوا على سالـم الدكالى ومن معه من القواد وبعثوا بهم الى السلطان المولى عبد الله بتادلا ، فاستفتى فيهم القاضى أبا عنان ، وكان يومئذ معه ، فأفتاه بقتلهم فقتلهـم . ثم نميت مقالة سالم الدكالى الى المولى محمد بن عريبة وهـو بتافيلالت فظن أن الامر صحيح ، فأقبل مسرعا الى أن وصل الى مدينة صفرو ، فوجد الناس قد بايعوا السلطان المولى عبد الله وراجعوا طاعته فسقط فى يده ، ثم دخل فاسا مستخفيا وأقام بدار الشيخ أبى زيد عبد الرحمن الشامى ، وكان صديقه معتقدا اه ، وكان أبو زيد يعده بالملك .

ولما أقبل السلطان المولى عبد الله من تادلا خرج للقائه أهـل فـاس وفيهم الاشراف والعلماء ، وكذلك أهل مكناسة ، فوافوه بقصبة أبى فكران ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ما سلف منهم ثم أمر بأعيانهم فقتلوا ، وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم ، وعزل قاضيهم أبا القـاسم العميرى ورجع أشراف فاس وعلماؤها مذعورين مما نابهم بعـد أن ولى السلطان عليهم محمدا بن على بن يشى ، واستمر هو مقيما بقصبة أبى فكران ولـم يتقدم الى فاس لعدم ثقته بهم .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى محمد بن اسمعيل المعروف بابن عريبة والسبب فيها

لما فعل المولى عبد الله بأعيان فاس ومكناسة ما فعل من القتل والاستباحة وأقام منكمشا بقصبة أبى فكران نبغت رؤوس الفتنة من الودايا بفاس الجديد وأخذوا فى نهب الطرقات ثم أغاروا فى يوم خميس على سرح فاس وأجلاب سوقها فاستاقوها حتى لم يتركوا لهم بقرة ولا شاة ولا بهيمة غيرهما .

ولما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد بن عريبة فمشوا اليه وهو بدار الشيخ أبى زيد الشامى فأخرجوه وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه فى عاشر جمادى الاولى سنة خمسين ومائة والف ، وهيأوا له كل ما يحتاج اليه من خيل وسلاح وآلة حرب وتباروا فى طاعته وخدمته ، وكتبت بيعته فى خامس عشر الشهر المذكور ، وكتب عليها الفقهاء خطوطهم وامتنع بعضهم من ذلك ، وقالوا : « بيعة السلطان المولى عبد الله فى أعناقنا فلا نخلعها » فعزلوا عن الخطط وامتحنوا ، ثم كتب أهل فاس الى عبيد الديوان يعرفونهم ما صنعوا ويطلبون منهم موافقتهم فاجابوهم الى ذلك وبايعوا السلطان المولى محمد بن عريبة وتم أمره .

ولما رأى السلطان المولى عبد الله أن أمر أخيه قد تم فر الى جبال البربر وأقام هنالك ثم فتحت أبواب فاس وانتقل السلطان المولى محمد الى فاس الجديد ، ومن الغد نهض الى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه الوفود من سائر الاقطار بهداياهم فاجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد وكان ما نذكره .

بدء اختلال امر السلطان المولى محمد بن عريبة وما تسبب عن ذلك

لما فرق السلطان المولى محمد بن عريبة على العبيد ما عنده من المال لم يقنعهم ذلك ، واستزادوه فأطلق عفا الله عنه أيدى النهب فى أموال المسلمين ، وأخذ هو فى استخراج الحبوب والاقوات من دور أهل مكناسة غصبا ، وبحث عنها فى الاهراء والمطامير وكل من ذكر له أن عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه ، وصادره الى أن يظهر ما عنده ، وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس فى حيص بيص والامر لله وحده .

اغارة السلطان المولى عبد الله على الاصطبل من مكناسة وما نشأ عن ذلك

ثم ان السلطان المولى عبد الله الذى كان مقيما عند البربر قدم ذات ليلة فى جماعة من أصحابه حتى دخل الاصطبل وقتل من وجد به من العبيد وحرق أخصاصهم ورجع عوده على بدئه ، ولما نذر به السلطان المولى محمد ابن عريبة نادى فى الناس بالنفير وركب فى خيله ورجله وقصد السلطان المولى عبد الله وهو بالموضع المعروف بالحاجب ، ولما رأى العساكر مقبلة اليه والخيل تتعادى خلفه فر بنفسه وترك ابنيته بما فيها فانتهبها العبيد وتبعوه الى أن بلغوا وادى ملوية فتوغل فى الجبال ولم يقفوا له على أثر ، ولما قفلوا راجعين اعترضهم البربر وتسايلوا عليهم من المخارم والشعاب ، فصدقوهم القتال وهزموهم واستلبوا ما معهم من الانقال ورجعوا بخفى حنين .

قال فى « البستان » : « ولما انتهوا الى أحواز صفرو بعث المولى محمد ابن عريبة جماعة من جيشه الى من هنالك من المستضعفين من أهل المزادغ

وغيرها من القرى وأمر بقطع رؤوسهم وبعثها الى فاس موهما أنها رؤوس البربر » اه والله أعلم .

بقية اخبار السلطان المولى محمد بن عريبة وما تخللها من الهرج والشدة

لما قفل السلطان المولى محمد بن عريبة من خرجته فى اثر أخيه المولى عبد الله وكان حيث ذكرنا بعث أخاه المولى الوليد بن اسمعيل الى فاس ، وأمره بضرب البعث عليهم توصلا الى ما فى أيديهم من المال بحيث أن من أعطى المال منهم يقيم بداره ، ومن أبى يخرج فى البعث ، فتحير الناس وقدم المولى الوليد حضرة فاس وقبض على الحاج أبى جيدة برادة ، وكان مثريا فقتله وأخذ أمواله وباع أصوله ، وقبض على الحاج عبد الخالق عديل فأخذ أمواله ، ثم تسلط على أهل الزوايا وكل من ذكر له أنه من أهل اليسار الى ان استوفى غرضه ، ثم سار الى مكناسة ففعل باهلها مثل ذلك حتى لم يسلم منهم الا القليل ، هذا والناس فى محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الدور بالليل بحيث كان أهل اليسار لا ينامون ، وصار جل الناس لصوصا ، والودايا يعيشون فى الجنات خارج المدينة ويغيرون على القصارين بوادى فاس ، وبعد أن صار الناس يقصرون كانهم بمصمودة انتهبوه منهم بها ، بل تناولوا القفل من الفنادق والسلطان معرض عن جميع ذلك لا يلتفت اليه ، ولقد هلك فى هذه المدة من الجوع جم غفير أخبر صاحب المارستان أنه كفن فى رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى الذين كفنهم أهلهم وعشيرتهم . وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عريبة هذا أيام نحس ووبال على المسلمين ، وكذا أيام أخيه المولى المستضىء الذى اليه يساق الحديث ، وكل ذلك والله تعالى أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتياتهم عليها وتحكمهم فى أعياصها طوع أهوائهم وحسب

أغراضهم ، اذ معلوم انه لا ينشأ عن كثرة الخلع والتولية الا هـذا وشبهـه ، نسأل الله تعالى اللطف، والحفظ في الاهل والدين والمال في الحال والمآل .

وقد تكلم صاحب « نشر المثاني » على هذه السنة أعني سنة خمسين ومائة وألف فقال : « وفي هذه السنة هزم جيش الثائرين على مولاى عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير وذلك على يد البربر ، وارتفعت الأسعار جدا وجعل اللصوص يهجمون على النـــاس في دورهم ليلا ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وبلغ الخوف الى أبواب الدور المتطرفة بفاس نهارا فلا يستطيع أحد أن يخرج عن باب مصمـــودة في العدوة ولا عن باب القصبة القديمة في الطالعةولا عن حومة الحفاريـن بباب عجيسة ، وكثر الهدم في الدور لاخذ خشبها وكـثر الخـراب وخلت الحارات فتجد الدرب مشتملا على عشرين دارا وأكثر وكلها خاليـة» . وفي هذه المدة قتل الفقيه العلامة أبو البقاء يعيش الشاوى بداره بالدوح وقتلـه كان سبب خلاء الدوح وافتضح أهل المروءة من الناس ومن يظن به الدين، وكل من قدر على الفرار فر من فاس ، وقل من سلم منهم بعد خروجه عن البلد ، وخرج جماعة وافرة من أهل فاس الى تطاوين ومـــا والاها لجلب الميرة اذ كان الله تعالى قد سخر العدو الكافـر بحمــــل الطعــام الى بلاد المسلمين ، فاشتري أهل فاس منه شيئا كثيرا لكن امتنع الجمالون من حملـه لهم وماطلوهم ، فشكوهم لوالى تلك البلاد ورئيسها حينئذ أحمد بن عـلى الريفي فأظهر لهم النصح وأبطن الغش لانحرافه عن السلطان ومن يتعلـق به . فنبط الجمالين وهم قبيلة بداوة فازدادوا امتناعا وتعاصيا حتى بقى أهـل فاس معطلين بميرتهم نحو ستة أشهر . فهلك بسبب ذلك خلائق لا يحصون جوعا . وكلهم في عهدة أحمد بن على الريفي وما أغنى مال ولا متاع في طلب القوت ، ولولا أن الله سخر العدو الكافر بجلب الميرة للمغرب لهلك أهله جميعا فيما أظن ، وذلك كله من شؤم الفتن والخروج على الملوك .

وأما الاصول والسلع فلم يكن شيء منها يبلغ عشر ثمنه المعتاد ، ولم يقيض الله لهذا المغرب راحة حتى من برجوع السلطان مولاى عبد الله ،

هذا كلام صاحب « نشر المثاني » وهو الفقيه المؤرخ سيدى محمد بن الطيب ابن عبد السلام القادرى . وقد حكى هذه الاخبار عن معاينة لانه كان يومئذ حاضرها وشاهدها .

ثم دخلت سنة احدى وخمسين ومائة وألف ، والناس فى شدة ، وفى الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد على السلطان المولى محمد بن عربية فقبضوا عليه ، وعلى قائده على فاس الشريف أبى محمد عبد المجيد الشامرى ووضعوا فى رجلى كل واحد منهما قيدا ، وأخرجوا ابن عربية وعياله من دار الملك الى داره التى على وادى ويسلن بجنان حمرية ، ووكلوا به جماعة من العبيد يحرسونه ، وكتبوا الى أخيه المولى المستضىء ابن اسمعيل بتافيلالت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى المستضىء بن اسمعيل رحمه الله

لما قبض العبيد على السلطان المولى محمد بن عربية أعلنوا ببيعة أخيه المولى المستضىء بن اسمعيل ، وكتبوا بذلك الى الافاق ، فساعدهم الناس عليها وبعثوا جريدة من الخيل على عادتهم لتأتى به ، فأقبل مسرعا ، ولما انتهى الى مدينة صفرو لقيه أهل فاس بها فى أشرافهم وعلمائهم وأدوا بيعتهم ورجعوا معه الى فاس الجديد . فأراح به ، وولى عليهم القائد أبا العباس أحمد الكعيدى فاستناب الكعيدى عليهم من قبله شعشوع اليازغى والحال ما حال والظلم ما زال ، ثم ارتحل السلطان المولى المستضىء الى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة ، وقدمت عليه وفود القبائل والامصار بهداياهم فقابلهم بما يجب واستتب أمره .

ذكر ما صدر من السلطان المولى المستضيء من العسف والاضطراب

لما استقر السلطان المولى المستضيء بمكناسة كان أول ما بدأ به أن بعث بأخيه المولى محمد بن عربية مقيدا الى فاس ، ومنها الى سجلماسة فسجن بها ، وبعث بقائده السيد عبد المجيد المشامري والشيخ أبي زيد عبد الرحمن الشامي يسجنان بفاس الجديد ، ونهبت دار المشامري وصودر الى أن مات تحت العذاب ومثل به ، ثم بعث السلطان كتابه الى أهل فاس ولكن رسم أن يقرأ بفاس الجديد ويحضر أعيان أهل فاس لاستماعه فارتابوا وتغيبوا ولم يحضر منهم الا نحو العشرين فقبض عليهم وسجنوا هنالك ، ثم وظف عليهم مال ثقيل لم يقوموا به .

وافتقرت الدولة في أيام هذا السلطان واحتاج الى المال ليقطع عنه لسان العبيد ، فأخذ في البحث عما في المخازن الاسماعيلية التي لم يلتفت اليها الملوك قبله ، فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه ، ووقع على الخزين الكبير ، وفيه آلاف من قناطير الكبريت ، فباعها أيضا ، ووجد شيئا كثيرا من ملح البارود والشب والبقام وغير ذلك مما كان يجلب الى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله ، ثم اقتلع شراجب القبة الشطرنجية ، وكانت من نحاس مذهب ، واقتلع الدرابيز التي عن يمينها وشمالها من الحديد المنتخب من باب الرخام الى قصر المولى يوسف ودفعها لاهل الذمة . وألزمهم أداء ثمنها فأجحف بهم ، ثم أنزل المدافع النحاسية التي كانت بأبراج الحضرة فكسرها وضربها فلوسا فما أغنى ذلك شيئا ، وقتل في هذه المدة نيفا وثمانين رجلا من عرب بني حسن ، وسلط العذاب على مساجين أهل فاس ليغرموا المال فغرموا ما قدروا عليه ، ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشتروا أصول مساجينهم فعذبوا الى أن أدوا بعض المال ، وعجزوا ، وأفتى العلماء أن هذا البيع الواقع في هذه الاصول صحيح تقديما لخلاص الانفس على الاموال .

ثم قبض هذا السلطان على شريف من الاشراف العراقيين من أهل حومة كرنيز اتهمه بان الحرة خناثى بنت بكار استودعته مالا فضرب وامتحن ثم ولى على فاس المولى أبا حفص عمر المدني وكان رفيقه وجليسه ، فاستناب المولى ابو حفص على فاس رجلا يقال له ابن زيان الاعور ، وتقدم اليه في مصادرة أشراف فاس واستصفاء أموالهم ، فامتثل ابن زيان امره وما قصر، وكان الحامل لابى حفص على هذا ان داره بفاس كانت قد نهبت أيام المولى محمد بن عريبة ولم ينكر ذلك احد من أهل فاس ، فحقدها أبو حفص عليهم الى ان ادالته الايام منهم في هذه المرة ، ففعل ابن زيان ما فعل ، فأمر السلطان المولى المستضيء بالقبض على ابن زيان وأن يطاف به على حمار والسياط في ظهره وهو يقول : «هذا جزاء من يؤذى الاشراف» فطيف به ثم ازيل رأسه وعلق على باب المحروق ، هذا والاشراف لا زالوا في العذاب ، ثم أمر بمساجين أهل فاس فحملوا اليه في السلاسل والاغلال ثم قتلوا بباب القصبة عن آخرهم ، وأمر باخراج ولد مامى من الحرم الادريسي فلما وصل اليه قتله ، وأسرف المولى المستضيء في القتل والعسف وأراد أن يتشبه بأخيه المولى عبد الله الذي جرد السيف وبسط الكف فغطى سخاؤه عيبه ، وهيهات، فقد كان المولى المستضيء مسيكا مهزوم الراية، على ما قيل ، تغمدنا الله واياه والمسلمين بالرحمة والعفو والغفران ، ثم قتل القائد غانما الحاجي ، ووالى مكناسة القائد سعدون ، وستة من أولاد الزياتي أصحاب السجن .

ثم ان السلطان المولى عبد الله اغرى البربر الذين كان مقيما فيهم بشن الغارات على الودايا والعيث في طرقاتهم ففعلوا ، وانقطعت السبل وتعذر المعاش ، وكان المولى زين العابدين بن اسمعيل محبوسا عند أخيه السلطان المولى المستضيء فأمر باخراجه واحضاره بين يديه فاحضر وضرب ضرب التلف ، وبعث به مقيدا الى تافلالت ليسجن مع بعض اشرافها ، فبعث العبيد جماعة منهم فانتزعوه من يد حامليه وبعثوا به الى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي ببني يازغة ، وتقدموا اليه في الاحتفاظ به والاعتناء بشأنه .

ايقاع الباشا ابى العباس احمد بن على الريفى بأهل تطاوين

قد قدمنا ما كان من اغارة الباشا أبى العباس أحمد بن على الريفى صاحب طنجة على أهل تطاوين ، وهزيمة أبى حفص الوقاش له وفتكه باصحابه فاستحكمت العداوة بين الريفى والوقاش من يومئذ ، وبقى الريفى يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل الى أن بويع السلطان المولى المستضىء فى هذه المدة ، فلم يقدم عليه أحد من أهل تطاوين ولا دخلوا فى بيعته فوجد أبو العباس الريفى السبيل بذلك اليهم وأغرى بهم السلطان المذكور ودس اليه أنهم شقوا العصا وخالفوا الامر ، مع ما كان قد نقل عن الفقيه أبى حفص فى تلك القصيدة من التصريح بطلب الملك ، فنجع ذلك فى المولى المستضىء ، وكتب اليه يأمره بالايقاع بأهل تطاوين ، فاغتنمها أبو العباس الريفى واقتحم تطاوين فى جموعه على حين غفلة من اهلها وانتهبها ، وقتل من أعيانها نحو الثمانمائة ووظف على من بقى منهم مالا ثقيلا وهدم أسوارها ونظمها فى سلك ما كان مستوليا عليه وبنى بها دار الامارة الموجودة الآن .

شغب العبيد على السلطان المولى المستضىء وفراره الى مراكش

لما كان منتصف ذى القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة والف شغب العبيد بمكناسة على السلطان المولى المستضىء وتآمروا فى عزله ومراجعة طاعة أخيه المولى عبد الله ، ولما أحس المولى المستضىء بما أجمعوا عليه خرج من مكناسة فى شيعته وانصاره قاصدا ضريح الشيخ أبى محمد عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، فتبعه المولى عبد الله فى جمع من العبيد فأدركوه ببعض الطريق فكر عليهم وقاتلهم حتى رجعوا عنه ، ومضى لوجهه الى أن

وصل الى طنجة فأقام بها نحو الشهرين عند أحمد بن على الريفى ، ومنهـا توجه الى مراكش فانهم كانوا قد بايعوه ، وكان أخوه المولى الناصر نائبـا عنه بها ، ولما استقر بمراكش كاتب قبائل الحوز يستصرخهم على أخيه المولى عبد الله ويستنفرهم للخروج معه اليه ، فتقاعدوا عنه لان غبـدة والرحامنة وأهل السوس كانوا شيعة للمولى عبد الله ، ولم يبـق فى حـزب المـولى المستضىء الا أهل دكالة أخواله وبنو حسن عرب الغرب ، ولما رأى المـولى المستضىء تقاعد قبائل الحوز عنه أقام بمراكش يزجى الايام الى سنة خمس وخمسين ومائة والف ، والباشا أبو العباس الريفى صاحب طنجـة يفتـل للعبيد فى الذروة والغارب الى ان بايعوه ثانية بعد أخيه المولى زين العابدين، وبعد خلع السلطان المولى عبد الله حسبما نذكره بعد ان شاء الله .

مراجعة العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله ودخولهم في دعوته

قد قدمنا ان السلطان المولى عبد الله كان مقيما فى هـذه المدة عنـد البربر وانه تبـع المولى المستضىء عنـد خروجه مـن مكناسة ثم رجع عنـه ولمـا بلغـه خبر مسيره الى مراكش سار فـى اعتراضه الى ان بلغ قصبة وادى آلزم فلم يقف لـه على خبر فأقـام يتجسس أخباره الى ان اتفق العبيد على بيعته وهو بآلزم ، فبايعوه أوائل سنـة ثلاث وخمسين ومائة والف ، وكتبوا بيعتهم وبعثوا بها اليه مـع بعض خاصتهم ، وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس والودايا فى الموافقـة ، فوافقوهم وبايعـوا السلطان المولى عبد الله وخطبوا به على منابرهم وزينت فاس،ولما انتهى الحال الى هذا الحد فر الوزير ابو الحسن على العميرى مـن مكناسة اذ كـان وزير المولى المستضىء ، واحترم اخوه القاضى أبو القاسم العميرى بضريـح بعض صلحاء مكناسة ، وبعث أهل فاس جماعة مـن أشرافهم وعلمائهم ببيعتهم الى السلطان المولى عبد الله ومعهم جماعة من التجار وحجـاج الركب الحجازى

بهدإياهم ، هذا كله ، والسلطان لا زال مقيما بقصبة آلزم ، وتولى العبيد بمكناسة النقض والابرام لتأخر مجيء السلطان ، وظهر منهم الادلال والاستبداد على الدولة ، وبعثوا من قبلهم القائد أبا محمد عبد الله الحمرى واليا على فاس وقالوا : عن أمر الديوان ، وكثر القطاع بالطرقات واللصوص بالمدينة وعادت هيف الى أديانها .

مجيء السلطان المولى عبد الله الى مكناسة وما ارتكبه من اهلها

وفى خامس عشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة والف تحرك السلطان المولى عبد الله من آلزم وقدم مكناسة فقبض على قاضيها الفقيه أبى القاسم العميرى ، والسيد ابى العباس احمد الشدادى، والعباس بن رحال ، والفقيه المليتى وأزال عمائمهم وفضحهم وقال لهم : «كيف تزوجون حرمى من أخى وانا حى» ونكل بهم النكال الشديد ، ثم أمر بسحبهم الى السجن، وأعطى دار القاضى العميرى أحد العبيد ، وقال لهم : من أراد منكم دارا بمكناسة فليأخذها، فامتدت أيدى العبيد فى الناس حتى صاروا يقفون بالابواب ويقول العبد لصاحب الدار : «ان سيدى قد اعطانى دارك أو أعطانى ابنتك» فيفتدى منه بالمال ، ولحقهم من العبيد فوق ما يوصف ، ومن شكى منهم عوقب وسجن ، والسلطان مقيم بباب الريح لم يدخل القصبة التى كان بها المولى المستضيء .

وولى فى هذه المدة على فاس شيخ الركب الحاج عبد الخالق عديل ، وولى على قضائها الفقيه أبا يعقوب يوسف بن ابى عنان ، وتقدم اليه فى أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بالمولى المستضيء فى سائر البلدان .

واما الودايا فانه لم يقدم على المولى عبد الله منهم أحد ولا بايعوه وكذا الباشا أحمد بن على الريفى واهل الريف والفحص وقبائل الجبل فاغتم المولى عبد الله لذلك ، ثم شفعت الحرة خناثى أم السلطان فى قومها الودايا وبعثت اليه جماعة منهم فقبلهم وعفا عنهم .

ايقاع ابى العباس احمد بن على الريفى بقبائل الغرب وما تخلل ذلك

■

وعلى اثر ما تقدم بلغ السلطان المولى عبد الله ابن القائد أبـا العباس آحمد بن على الريفى قد أغار على اعمال القصر الكبير ، وانتهب أموالا كثيرة لاهل الغرب وشيعتهم ممن ليس على رأيه فى الخروج عن طاعة السلطان ، فبعث المولى عبد الله جيشا كثيفا من عبيد مشرع الرملة ينزلون بالقصر الكبير لحراسته وحراسة أعماله ، فلما سمع بذلك الريفى فرق العطاء على جيشه وتهيأ للنهوض الى العبيد ، فوردت عليه شرذمة من الودايا واخرى من عبيد مكناسة واخبروه بان ذلك الجيش قد رجع ، لان ذلك الوقت لم تجتمع فيه كلمة لاحد لا من الرعية ولا من الجيش .

وكان السلطان المولى عبد الله قد وجه عامله القائد أبا العباس أحمد الكعيدى عاملا على عرب الحياينة واهل جبل الزبيب لجباية الزكوات والاعشار ، فلما توسط بلاد الحياينة عدوا عليه فقتلوه ، ولما اتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله اغتم لذلك غما شديدا لانه كان عماد دولته فانحل نظامها بموته ، وفسدت الطرقات وكثر النهب فى كل موضع .

ثم ان السلطان أمر المسخرين الذين معه بنهب زروع أهل مكناسة فوقع من ذلك شر عظيم ، وذلك أوائل سنة أربع وخمسين ومائة والف ، ثم وظف عليهم وظائف كثيرة من دفع المؤنة له ولاصحابه واعطاء العملة للبناء بباب الريح وغير ذلك فتشفعوا اليه مرارا فلم يقبل . والله تعالى أعلم .

■

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره ثانية الى البربر

لما كان شهر ربيع الاول من سنة أربع وخمسين ومائة والـف شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وهموا بخلعه والايقاع به ، فنذرتم بذلك امه الحرة خناثى بنت بكار ، ففرت من مكناسة الى فاس الجديد ، ومن الغـد تبعها ابنها السلطان المولى عبد الله ونزل برأس الماء ، فخرج اليه الودايـه وأهل فاس واجلوا مقدمه واعتزوا له ، فاستعطفهم السلطان وقال لهـم : «أنتم جيشي وعدتـي ويميني وشمالي واريد منكم ان تكونوا معي على كلمة واحدة» وعاهدهم وعاهدوه ورجعوا ، وفي أثناء ذلك بلغه أن احمد بن على الريفي قد كاتب عبيد مشرع الرملة وكاتبوه واتفق معهم على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة اخيه المولى زين العابدين ، وكان يومئذ عنده بطنجـة وانهم وافقوه ، فوجم لها السلطان المولى عبد الله ، ثم استعجل أمر المولى زين العابدين ففر المولى عبد الله الى بلاد البربر كما سياتى ان شاء الله .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى زين العابدين بن إسمعيل رحمه الله

كان إبتداء أمر السلطان المولى زين العابدين انه قدم مكناسة في أيام أخيه المولى المستضيء ، فلما سمع به أمر بسجنه قبل أن يجتمع بـه فسجن مدة ثم أمر يوما باخراجه وضربه فضرب ، وهو في قيـده ، ضربا وجيعا أشرف منه على الموت كما مر ، ومع ذلك فلم ينطق بكلمـة ، ثـم رده الى السجن ، ثم أمر ببعثه مقيدا الى سجلماسة كي يسجن بها مع بعض الاشراف المسجونين هنالك، فلما سمع بذلك قـواد رؤوسهم من العبيد بعثوا من رده من صفرو الى فاس ومن هنالك بعثوا به الى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي بنى يازغة وأمروه أن يحتفظ به مكرما مبجلا .

ثم لما فر المولى المستضيء عن مكناسة وراجع العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله دخل المولى زين العابدين مدينة فاس فاطمأن بها ، وسر بولاية المولى عبد الله وخلع المولى المستضيء ، ثم ذهب الى مكناسة واقام بها مدة ، ثم سار الى طنجة فقدم على صاحبها الباشا أحمد بن على الريفى فأكرم وفادته وأحسن مثواه ، واستمر مقيما عنده الى ان كاتب عبيد الديوان فى شأنه ووافقوه فى بيعته ، فبايعه الباشا احمد وبايعه أهل طنجة وتطاوين والفحص والجبال وخطبوا به على منابرهم ، ثم هيأ له الباشا احمد كتيبة من الخيل من عبيد الديوان وغيرهم ، وبعثهم معه الى مكناسة فدخلها فى ربيع سنة اربع وخمسين ومائة والف وبويع بها البيعة العامة وقدمت عليه وفود القبائل والامصار فقابلهم بما يجب ، وتم أمره .

وفر السلطان المولى عبد الله من رأس الماء ودخل بلاد البربر ، ولم يقدم على المولى زين العابدين أحد من الودايا ولا من أهل فاس . وكان فيه أناة وحلم لم يظهر منه عسف ولا امتدت يده الى مال احد الا أنه لقلة ذات يده نقص العبيد من راتبهم فكان ذلك سبب انحرافهم عنه كما سياتى .

بقية اخبار المولى زين العابدين وانقراض امره

لما استقر السلطان المولى زين العابدين بحضرة مكناسة وتم أمره أقام بها نحو الشهرين ، ثم تهيأ لغزو الودايا واهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته ، فنهض اليهم فى جيش العبيد منتصف جمادى الاولى سنة أربع وخمسين ومائة والف . ولما بات جيشهم بسيدى عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمة العبيد ، ومن الغد قوضوا ابنيتهم وارتحلوا الى مكناسة وكفى الله الودايا واهل فاس شرهم . الا انهم حرقوا بيادر الزرع التى كانت للودايا بالخميس ، ولما وصلوا الى مكناسة نهبوا ثمار جناتها وأفسدوا ما قدروا عليه منها ، وانصرف جمهورهم الى مشرع الرملة ، والذين دخلوا مكناسة

مع السلطان طالبوه فى الراتب وشددوا فى اقتضائه ، فلم يكن عنده ما يرضيهم به فشغبوا عليه ومرضوا فى طاعته .

هذا ، والسلطان المولى عبد الله مقيم بجبال البربر مطل على الحضرة ومتحفز للوثبة ، فلما علم بما المولى زين العابدين فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتى دخل فاسا الجديد وذلك فى سادس عشر جمادى الآخرة من السنة ، فلقيه الودايا واهل فاس واهتزوا لمقدمه وطاروا به سرورا ، ثم خرج من يومه الى دار الدبيغ فاحتل بها .

ولما اتصل خبره بأخيه المولى زين العابدين ضاق ذرعه وخشعت نفسه، واصبح غاديا من مكناسة الى حيث يأمن على نفسه معرضا عن الملك وأسبابه ، فكان ذلك آخر العهد به الى ان توفى رحمه الله .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المومنين المولى عبد الله رحمه الله

لما فر السلطان المولى زين العابدين عن مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على ان يراجعوا طاعة السلطان المولى عبد الله ، فبعثوا طائفة من قوادهم ووجهوها اليه فقدموا عليه منتصف رمضان من السنة المذكورة ، وهو بدار الدبيغ ، فحيوه ، وأخبروه بان اخوانهم قد خلعوا المولى زين العابدين وبايعوه ، فسر المولى عبد الله بقدومهم وخرج الودايا الى العبيد فاختلطوا بهم وسروا بمقدمهم ، واجروا الخيل فى ميدان المسابقة واللعب بالبارود ، وزينت مدينة فاس ، وجددت البيعة العامة من الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر . واستمر الحال على ذلك الى آخر ذى القعدة من السنة فكان ما نذكره .

مجيء المولى المستضيء من مراكش ومحاربته لاخيه المولى عبد الله وما يتبع ذلك

لما اجتمعت كلمة العبيد والودايا وسائر أهل بلاد الغرب على طاعة السلطان المولى عبد الله أقام رحمه الله بدار الدبيبغ ، واستمر الحال على ذلك الى آخر ذى القعدة من سنة اربع وخمسين ومائة والف ، فارتاب العبيد بمقامه هنالك ورفضه المقام بين أظهرهم بمكناسة التى هى دار الملك يومئذ ، فقلبوا له ظهر المجن ، على عادتهم ، واستدعوا المولى المستضيء من مراكش ليبايعوه .

واتصل خبرهم بالمولى عبد الله وأنهم قد بعثوا الخيل الى المولى المستضيء لتأتى به ، فأخذ السلطان من ذلك المقعد المقيم ، وشمر عن ساعد الجد وأخذ فى تأليف قبائل العرب والبربر ، ووصل يد بعضهم ببعض ، ثم ألف بينهم وبين الودايا وأهل فاس وآخى بين الجميع فأعطوه صفقة أيمانهم بأنهم يموتون دونه فتم له منهم ما أراده ، وفى أثناء ذلك قدم الحاج أحمد السوسى من مراكش ودخل فاسا فتحدث عنه بأنه قد دس الى أهل فاس فى مراجعة طاعة المولى المستضيء والتمسك بدعوته ، ونمى ذلك الى السلطان المولى عبد الله فامر بقتله فقتل .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة وألف ففى المحرم منها زحف المولى المستضيء من مراكش الى بلاد الغرب ودخل مكناسة فى جيش العبيد وبنى حسن وغيرهم ، وقدم فى ركابه الوزير أبو الحسن العميرى ، وأخوه القاضى أبو القاسم ، وفى آخر المحرم المذكور ورد كتاب من عند القائد أبى العباس أحمد الريفى الى أهل فاس يدعوهم الى بيعة مخدومه المولى المستضيء والدخول فى طاعته ، فصموا عن ذلك ونبذوه .

وفى ربيع الاول من السنة المذكورة زحف المولى المستضيء فى جيش

العبيد الى فاس وعسكر بظهر الزاوية خارجها ففر السلطان المولى عبد الله من دار الدبيغ الى آيت دراسن ، ومن الغد هاجت الحرب بين العبيد وبين الوداية وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع . وهلك فيها من الفريقين عدد كثير . وفى رابع ربيع الثانى قدم السلطان المولى عبد الله يجر أمم البربر خلفه من زمور وبنى حكم وجروان وآيت ادراسن وآيت ومالو فى عدد لا يحصيهم الا خالقهم ، وفى شارة من اللباس وشكة من السلاح تسر الصديق وتسوء العدو .

ولما عاين المولى المستضىء وعبيده تلك الجموع وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربهم اتخذوا الليل جملا وأسروا الى مأمنهم ونجو بأنفسهم وأصبحت الديار منهم بلاقع ، فسر الناس بذلك وشكروا الله على انفضاض تلك الجموع بلا قتال .

وفى سادس جمادى الاولى من السنة توفيت أم السلطان الحرة خناثى بنت بكار المغفرية رحمها الله ، وكانت فقيهة أديبة ، ودفنت بقبور الاشراف من فاس الجديد .

وفى جمادى الثانية منها حدثت فتنة بفاس بين الحاج عبد الخالق عديل والشريف المولى أبى عبد الله محمد الغالى الادريسى فشكاه عديل الى السلطان فامر بالقبض عليه فعاذ الشريف بضريح جده رضى الله عنه ، فألزم السلطان أهل فاس اخراجه ، فضيقوا عليه الى أن طلب الامان فأمنوه وساقوه الى السلطان فوبخه ثم ضربه وسجنه ثم أمر أهل فاس بقتل أصحابه فقتلوهم .

هدية السلطان المولى عبد الله رحمه الله الى الحرم النبوى على مشرفه افضل الصلاة والسلام

وفى هذه السنة أعنى سنة خمس وخمسين ومائة وألف سافر الركب المغربي الى الحرمين الشريفين فبعث معه أمير المومنين المولى عبد الله رحمه الله هدية نفيسة فيها ثلاثة وعشرون مصحفا بين كبير وصغير محلاة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت ، ومن جملتها المصحف الكبير العقبانى الذى كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثمانى الذى كان عند بنى أمية بالاندلس، وانتقل الى هذه العدوة المغربية على يد عبد المومن بن على حسبما مر الكلام عليه مستوفى ، وأما هذا المصحف العقبانى فهو مصحف عقبة ابن نافع الفهرى الصحابى المشهور فاتح المغرب ، كان نسخه بالقيروان من المصحف العثمانى على ما قيل ، وبقى متداولا بين أهل المغرب الى أن وقع بيد الاشراف السعديين ، وأخذ فيه المنصور منهم العهد لولده الشيخ على اخوته كما مر .

ولما وصل الى هذا السلطان رحمه الله غربه من المعرب الى الحرم الشريف فعاد به الدر الى وطنه والابريز الى معدنه ، قال الشيخ أبو عبد الله المسناوى رحمه الله : « قد وقفت على هذا المصحف حين أمر السلطان المولى عبد الله رحمه الله باخراجه وبعثه الى الحجرة الشريفة فظهر لى أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما » اه وبعث السلطان رحمه الله معه ألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الالوان للحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى التحية وتقبل الله من السلطان عمله وأجزل ثوابه آمين .

مشايعة الباشا ابى العباس الريفى للمولى المستضىء على المولى عبد الله وزحفه الى فاس وما يتصل بذلك

لما دخلت سنة ست وخمسين ومائة وألف أقبل الباشا أبـو العباس أحمد بن على الريفى فى جموع الفحص والجبل والريف قاصدا فاسا وأعمالها حتى نزل بالعسال من مزارع فاس ، وذلك فى الثـانى والعشرين مـن المحرم منها ، وراود أهل فاس على الانحراف عن طاعة مـولاى عبد الله فأبوا .

وأقبل المولى المستضىء فى جموع العبيـد ، وعليهم القائد فاتح بـن النوينى ، حتى نزل قريبا منه في الثـاني والعشرين من صفر . ولما زحف هذان الجيشان الى فاس اضطربت نواحيها ودهش النـاس من هـول هذا الريفى لانه جاء فى استعداد لم يعهد مثله ، وأرز الحياينة وشراقـة وأولاد جامع الى أسوار فاس ، ونزلت حللهم داخلها وخارجها وبعثـروا مزارعها وجناتها وانتهبوا مواشيها ، وهلك الكثير منها جوعا وهزالا ، وماجت الفتنة موج البحر ، وارتفعت الاسعار ولقى الناس كـل شدة ، وفى كل صبـاح ومساء ترعد المدافع وتقرع الطبول بمحلتي المـولى المستضىء ، والريفى ، فاستعد الناس للحرب . وركب السلطان المولى عبد الله من دار الدبيبغ فى نحو عشرة من الخيل ، وأسرع الى آيت ادراسن ، وهم بسهب عشار ، فدخل حلة عبد الله بن يشى منهم وقلب سرجه وسط جموعهم فالتف عليه من حضر منهم ، وقالوا : « ما الذى ناب مولانا ؟ » فقال : « جئتكم لتنصرونى عـلى هذا الجبلى الذى كان خديمنا وعبدنا وأطغاه ما جمع من المال فى خدمتنا ثم أراد أن يفضحنا وجرأه علينا أخونـا المستضىء وأراد الاستيلاء على بلادنـا وهى فى الحقيقة بلادكم وما قصد الا اهانتكم وأنتم أحق من ينصر أهـل البيت ولا يتحمل العار وعليكم السلام . » ثم ركب فرسـه ورجع عوده عـلى بدئه فلم يبت الا بدار الدبيبغ ، ومن الغد زحف أحمد الريفى الى بـلاد

الحياينة ظنا منه أنهم لا زالوا مقيمين بها ، فلما لم يجد بها أحدا رجع الى محله الذى كان به ، ومن الغد كانت حرب خفيفة بينه وبين الودايا ومن لاءمهم من الحياينة وشراقة وأولاد جامع ، ثم من الغد ركب أحمد الريفي في رماته وتقدم حتى وقف على كدية تامزيزت فوق القنطرة وعبرت جموعه لارورات ، ثم عبر المولى المستضيء في جموع العبيد وخلفوا رماتهم ومدافعهم وأثقالهم بالمحلة ، وكتب المولى المستضيء كتائبه وصف جنوده بذلك البسيط وزحف الودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع ، وجاءت البربر بجموعها فأشرفوا عليهم بالعين المقبوة الى دار ابن عمرو ، ولما وقعت عينهم على جموع المولى المستضيء ووزيره الريفي بذلك البسيط صاحوا بهم وشدوا عليهم شدة رجل واحد فكانت الهزيمة، واستحر فيهم القتل والسلب وازدحموا على القنطرة وتساقطوا في الوادى فهلك الكثير منهم والبربر في أثرهم يقتلون ويسلبون، وأما الريفي فانه لما رأى الهزيمة عليه لم يزد على أن ركب فرسه ونجا برأس طمرة ولجام على الحالة التى وصفها أبو الطيب اذ قال :

لا يأمن النفس الاقصى فيدركه فيسرق النفس الادنى ويغتنم

ولم يعرج هؤلاء ولا أحد من المنهزمة على المحلة حتى انتهى اليها البربر فتركوا اتباع المنهزمة واشتغلوا بنهبها فأتوا على ما فيها من الاخبية والكراع والاثاث الفاخر ، ولم يتركوا بها الا المدافع والمهاريس وآلتها من كور وبنب وبارود ، فان القائد أبا عزة صاحب الشربيل وقف على ذلك حتى حازه ، وعاد الناس وقد امتلات أيديهم من الغنائم ، فلقيهم طوائف من البربر لم يكونوا قد شهدوا الوقعة فاستلبوا ما بايديهم .

قال صاحب «البستان» : حدثني السلطان المرحوم سيدى محمد بن عبد الله عن هذه الوقعة ، وكان قد شهدها وهو في سن البلوغ ، قال : « بعثني والدى مع أخوالنا الودايا فلما هبت رياح النصر وانهزم العدو فى ساعة واحدة وكنت يومئذ فى خمسين فارسا بين ودايا وأصحاب تقدمنا الى المحلة فوقفنا على قبة الباشا أحمد وأحرزناها ، ثم أمرت الحمارة فحملوا

لنا من صناديق الريال على عشرين بغلة ومن الملف والكتان على ثلاثين جملا لعرب بداوة أصحاب الابل ، وحملوا لنا قبتين احداهما لاحمد الريفي والاخرى أظنها للمولى المستضيء ، وأما العرب والبربر والودايا وأهل فاس فقد أخذت كل طائفة بناحية تحمل ما قدرت عليه ؛ ثم لما انفصلنا عن المحلة قافلين لقيتنا كتائب من البربر الذين لم يحضروا الوقعة وبنفس ما خالطونا طاروا بما في أيدينا حتى لم ندر أين البغال ولا الابل ، وانفرد بكل بغلة وجمل جماعة من الخيل خمسون أو ستون أو أكثر ، ولم يجتمع منا اثنان وعدنا كما جئنا ، وهكذا وقع لكل من انتهب شيئا من حزبنا الا من دخل مع البربر في حصتهم ، ولما فرغ الناس من النهب اشتغل عبيد السلطان بجمع الرؤوس فكان عددها ما بين أبيض وأسود نحو التسعمائة ، فيها رأس الباشا فاتح بن النويني ، ثم بعث السلطان المولى عبد الله البغال لجر تلك المدافع والمهاريس وحمل الكور والبنب فسيق ذلك كله الى دار الدبيبغ ثم بعث بغالا أخرى لحمل البارود وكان ثلاثمائة برميل في كل واحد قنطار من البارود الجيد فادخل ذلك كله لخزين فاس » قال السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله في حديثه : « وكان هذا أول بعث بعثني فيه والدي وأول حرب شهدتها وأنا يومئذ في سن البلوغ وكان لي ولوع باللعب بالرمح والمطاعنة به الى أن مهرت فيه » اه كلامه .

ولما اجتاز المنهزمة بجبل الزبيب اعترضهم أهله وقاتلوهم فقتلوا في جملتهم سيدي محمد بن المستضيء يظنونه من أهل الريف ؛ ثم خلص الريفي واصحابه الى طنجة بعد غصب الريق وكان أمر هذه الوقعة فتحا عظيما على أمير المؤمنين المولى عبد الله وشيعته .

قال في « نشر المثاني » : « فراجع طائفة من العبيد طاعة مولاي عبد الله ، وجاءته قبائل المغرب بالهدايا من كل ناحية فتألفهم والان لهم القول، وأمرا العبيد بالمسير الى طنجة لحرب الريفي فساروا ثم رجعوا ولم يلقوا كيدا » .

معاودة احمد الريفي غزو فاس وما كان من امره مع السلطان المولى عبد الله الى حين مقتله

لما وصل أحمد الريفي الى طنجة أخذ في اخلاف ما ضاع لـه ولقومه من خيل وسلاح وأخبية ونحوها وجدد لجيش العبيد من ذلك ما جـدده لاهل الريف وأخذ في الاستعداد لمعاودة غزو فاس ، وأقسم أن لا يأكـل لحما ولا يشرب لبنا حتى يدخل فاسا وينهبها كما انتهبوا محلته .

وبعث الى سلطانه المولى المستضيء بمائتي فرس ومائتي خباء وألـف مكحلة وخمسين ألف مثقال يفرقها على العبيد يتقوون بهـا ، وضرب لـه موعدا يجتمعون فيه على حرب السلطان المولى عبد الله وشيعته من الوداب وأهل فاس فكان أمر الريفي فيما أنفقه كما قال تعالى : « فسينفقونها ثـم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

ولما كان شهر جمادى الاولى من سنـة ست وخمسين ومائـة وألف خرج أحمد الريفي من طنجة قاصدا حضرة فاس فـي أكمل شكة وأحسن استعداد ، ولما انتهى خبره الى السلطان المولى عبد الله لم يسعه التخلف عن لقائه ، فكتب الى عرب الحياينة وشراقة وأولاد جامـع ، وكتب الى عـرب الغرب من سفيان وبني مالك وسائر شيعته يستنفرهم ويحضهم على نصرته ، وفرق الراتب على العبيد والودايا وزرارة ، وأخرج أهل فاس بعثهم الذي عينوه على العادة ، وكتب السلطـان الى آيت أدراسن وجروان يخبرهـم بعزمه على مصادمة الريفي وجمعه ، ويقول لهم : « ان أردتم المـال والغنيمة فتأهبوا للنهوض الى طنجة » . فخف ناس منهم وقدم عليه منهم ألفان مـن الخيل وأكثر منها رماة .

ثم خرج السلطان من فاس أواخر جمادى الاولى ونزل عـلى وادي سبو وأقام به الى ان عرض عساكره ورتبها فجعل رماة عبيده ورماة أهـل فاس رحى واحدة وعقد عليهم للقائد أبي عزة صاحب الشربيل ، وجعـل

الودايا وزرارة وأهل السوس خيلهم ورماتهم رحى واحدة وعقد عليهم لحاجبه القائد عبد الوهاب اليمورى ، وسار على هذه التعبية فلقيه شراقة وأولاد جامع وأولاد عيسى فجعلهم رحى واحدة وعقد عليهم للشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الشرقى ، ولما عبر وادى ورغة لقيه أهل الغرب فى جموعهم ينتظرونه هنالك فباتوا معه تلك الليلة بعين قرواش ومن الغد جعل بنى مالك فى رحى وعقد عليهم لقائدهم أبى سلهام الحمادى ، وجعل سفيان فى رحى وعقد عليهم لقائدهم عبد الله السفيانى ، وسار على هذه التعبية فى ظل النصر والسعادة .

وأما المولى المستضىء فى العبيد وبنى حسن فانه لما بلغه نهوض السلطان المولى عبد الله من فاس خالفه الى مكناسة دار الملك فدخلها على حين غفلة من أهلها وعاث وانتهب ، وفعل فيها بنو حسن الافاعيل من سبى النساء والذرية وغير ذلك ، ثم تدارك أهل مكناسة أمرهم وتجمعوا لحرب عدوهم فقاتلوا بنى حسن فى وسط المدينة وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم مالا يحصى ورجعوا منهزمين ، وأما أحمد الريفى فانه زحف الى القصر فى جموع لا تحصى من أهل الريف والفحص والجبل وأهل العرائش والقصر والخلط وطليق وبداوة وغيرهم ، وأقام ينتظر سلطانه المولى المستضىء وجمعه .

ولما ابطأ عليه واتصل به خبر زحف السلطان المولى عبد الله اليه ارتحل من القصر عامدا نحوه فالتقى الجمعان عشية ذلك اليوم بدار العباس على وادى لكس . وقال فى « نشر المثانى » : كان اللقاء بالموضع المسمى بالمنزه من أحواز القصر فى رابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ومائة وألف .

ولما تراآ الجمعان هم جيش السلطان المولى عبد الله بالنزول ، فقال السلطان رحمه الله : « لانزول الا على الغنيمة او الهزيمة » ثم عبر اليهم فى جنوده وأعجلهم على النزول وصمد اليهم فى كتيبة من أخواله وعبيده فخالط مقدمتهم ففضها ، وكان فيها أهل الفحص وبداوة وطليق والخلط

ثم ظهرت كتيبة أهل الريف التي فيها قلب العسكر وحده ، وفيهـا الباشا أحمد بن علي ، فحمل عليها السلطان حملة ثانية ألحقهـا بالمقدمة ، وتقوضت جموع الريفي من كل جانب وانهزموا للحين ومروا على وجوههم لا يلوى حميم على حميم ، ومضى جيش السلطان في أثرهم يقتلون ويسلبون الى أن جنهم الليل ، وقتل الريفي في المعركة ، وبقيت الابنية والاثقال بيد السلطان كما هي ، فنزل بها بدار العباس ، وعادت العساكر مساء بالغنائم وبـرأس الباشا أحمد بن علي الريفي ، عرفه بعضهم بين القتلى فازال رأسه وأتى به السلطان فسر به ، وبعث به الى فاس فعلق بباب المحروق ، وانقضى أمـل أحمد الريفي وذهبت أيامه و «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» . وقد خلف هذا الريفي آثارا كثيرة بطنجة وتطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته رحمه الله .

زحف السلطان المولى عبد الله الى طنجة واستيلاؤه عليها

لما فرغ السلطان المولى عبد الله رحمه الله من أمر الريفي أصبح غاديا يؤم طنجة ولما شارفها خرج اليه رجالها يحملون المصاحف على رؤوسهم والصبيـان يحملون الالواح بين أيديهم مستشفعين تائبين فعفا عنهم الا من كان من بطانة احمد الريفي ، ودخل السلطان طنجة واستولى عليها وامر بالاحتياط على دار الريفي ومتاعه ، ثم أمر الخواجا عديلا في جماعة مـن تجار فاس باحصاء ما بدار الريفي فدخلوها وتطوفوا خزائنها واستخرجوا ما فيها مـن مال وسلاح وسروج وكسى وملف وكتان وفرش وخرثي وأثاث يفـوق الحصر ، فأحصى ذلك كله وأحصى العبيد والاماء والخيل والبغال وجميـع الماشية من ابل وبقر وغنم فجيء من ذلك بشيء كثير فأعطى الماشيـة كلهـا للبربر ، ثم أطلق يد الجيش على الامراس فانتشلوا ما فيها من قمـح وشعير فأتوا عليه ، ثم تتبع حاشية الريفي من عمال وكتاب وغيرهم ممن كان لـه

به اتصال فاستصفى ما عندهم من المال والذخيرة الى ان استوفى غرضه .
وكان هذا الريفي قد رسخ مجده بطنجة وأعمالها ، وعظمت ثروته لامتداد الدولة له ولابيه بها منذ الفتح ، فكان ظفر السلطان المولى عبد الله بخزائنه من باب الظفر بالكنوز القارونية ، وقدمت عليه في أثناء ذلك وفود القبائل التي هنالك فعفا عنهم وأمنهم واقام رحمه الله بطنجة أربعين يوما وانقلب راجعا الى فاس مؤيدا منصورا وبالله التوفيق .

اعتراض المولى المستضيء للسلطان المولى عبد الله وعود الكرة عليه ومقتل بني حسن

لما انهزم المولى المستضيء من مكناسة بعد ايقاعه باهلها خرج الى حلة بني حسن وأقام بين أظهرهم فاتصل به خبر مقتل ناصره ووزيره على أمره أحمد الريفي ففت ذلك في عضده وهد أركانه ، ثم لما بلغه فتح طنجة واستيلاء السلطان عليها استأنف جده وازهف حده وأخذ في تحريض العبيد وبني حسن على تجديد البعث والنهوض لاعتراض اخيه السلطان المولى عبد الله مرجعه من طنجة ، فخرج كبير بني حسن يومئذ ، وهو قاسم أبو عريف ، يطوف في أحيائها ويستنفر جموعها ، وخرج المولى المستضيء في لمة من وجوه العبيد الى مشرع الرملة فجهز بها عشرة آلاف فارس من عبيده ، ووافاه قاسم أبو عزيف بمثلها من بني حسن ، فكان مجموع الجيشين عشرين الفا سوى من انضاف اليهم ، ثم ساروا لاعتراض السلطان ، ولا علم له بهم .
وقدم المولى المستضيء أمامه الطلائع والعيون فعادوا اليه بخبر السلطان وأنه بائت تلك الليلة بدار العباس فصبحه المولى المستضيء في جموعه على حين غفلة منه ، فلم يرع السلطان المولى عبد الله الا نواصي الخيل مقبلة اليه ،

فعبأ جيشه على عجل ، واقام الرماة حوالى المحلة ، ثم صمد اليهم فى الخيل ، وانشب القتال فلم تكن الا ساعة حتى انهزم بنو حسن وولــوا الادبار ، وكانوا ميمنة الجيش ، وثبت المولى المستضىء والعبيد فى الميسرة ، فصمــد اليه السلطان وصدقه القتال فهبت ريح النصر وتمت الهزيمة على المــولى المستضىء وعبيده ، ومروا على وجوههم لا يلوون على شىء ، فجرد السلطان مع القائد أبى عزة صاحب الشربيل كتيبة من الخيل فى أثرهم وتقدم اليهم أن لا يقتلوا احدا من العبيد وانما يجردونهم لا غير . فلم يقتل أحد مــن العبيد فى هذه الوقعة ، واستحر القتل فى بنى حسن فهلك منهم ما ينيف على الالف ، وانتهب منهم أكثر من خمسة آلاف فرس ومن السلاح مثل ذلك ، وهذه الوقعة هى التى خضدت شوكة بنى حسن وفلت من غربهم ، ونجــا المولى المستضىء فى فلهم وأقام بحلتهم ينتظر أن تدول له دولة لانهم كانــوا شيعته كأهل دكالة واهل مراكش ، وكان اخوه المولى الناصر خليفته عــلى مراكش كما مر .

وقفل السلطان المولى عبد الله الى فاس الجديد فاحتل بها وفرق المال على أحواله وعبيده ولسهم لاهل فاس ، وأقام بدار الدبيبــغ الى ان دخلت سنة سبع وخمسين ومائة والف فقدم عليه فى شهر ربيع الثانى منهـا جماعة من قواد العبيد تائبين خاضعين متنصلين مما فرط منهم ، فعاتبهم وقال لهــم : «لا كلام اليوم بينى وبينكم حتى أقطع دابر بنى حسن ومن معهم من شيعة المستضىء» ثم عفا عنهم واعطاهم الراتب وأمرهم بالقدوم عليــه الى مكناسة بقصد غزو بنى حسن ، فعادوا الى مشرع الرملة عازمين على ذلك ، واخـذ هو فى الاستعداد ايضا ، ونهض من فاس فى جيش العبيد والودايا وأهــل فاس والحياينة وشراقة واولاد جامع وعرب الغرب ، ولما انتهى الى مكناسة ولفاه بها عبيد مشرع الرملة فى وجوههم واهل الحـل والعقد منهم فجددوا التوبة واستأنفوا البيعة بمحضر القضاة والعلماء واعطوا صفقة الطاعة من عند آخرهم ، والله غالب على امره .

نهوض السلطان المولى عبد الله الى بلاد الحوز وتدويخه اياها واجفال المولى المستضيء عنها

كان المولى المستضيء في هذه المدة مقيما عند بنى حسن كما قلنا ، ولما بايع العبيد السلطان المولى عبد الله واجتمعت كلمتهم عليه خرج في طلبه وطلب شيعته من بنى حسن ، فسلك طريق الفج ليحول بين بنى حسن والشعاب فصبحهم ببسيط زبيدة وهم غارون ، والمولى المستضيء بين أظهرهم، فلم يرعهم الا الخيل تجوس خلال بيوتهم وتسوق أنعامهم وشاءهم وتنتهب أثاثهم ومتاعهم ، فانفضوا في كل وجه وتفرقوا شذر مذر ، وافلت المولى المستضيء رحمه الله بجريعة الذقن ، وتوزعت العساكر السبى .

وجاء بنو حسن يهرعون الى السلطان طالبين عفوه فامر بالكف عنهم ورد عليهم سبيهم وترك لهم خيلهم ، ومضى الى قبائل دكالة اذ اتصل به ان المولى المستضيء قد فر اليها ، فلما نزل قصبة ابى الاعوان ونزلت عساكره أمامه بذلك البسيط من دكالة فر أهلها مع المولى المستضيء الى التلول ونزلوا قرب دمنات ، وشرعت عساكر السلطان في انتشال الحبوب من الامراس واستخراج الدفائن من الهميل وتخريب القرى وتقطيع الاشجار ، وكلما فرغت من ناحية انتقلت الى غيرها متقلبة في ذلك البسيط نحو السنة ، والسلطان مقيم بالقصبة الى ان اكتسح أرض دكالة وتركها أنقى من الراحة ليس بها ما يأكله الطائر أو يتظلل الحائر ، ثم انتقل الى بلاد السراغنة ولما توسطها قدمت عليه وفودها ووفود سائر قبائل تلك الجبال بمؤوناتهم وهداياهم فقبلهم وعفا عنهم ، ثم انتقل الى ناحية دمنات ففر أهل دكالة ، والمولى المستضيء أمامه الى جبال مسفيوة فتحصنوا بها ، وكانت مسفيوة قد بايعته ودخلت في دعوته ، فتقدم السلطان المولى عبد الله حتى نزل بوادى الزات فقدمت عليه هنالك عرب الرحامنة وزمران وسائر أهل الحوز ، وكانوا متمسكين بطاعته ، فنزلوا معه بالوادى المذكور ، وعاثت العساكر في بلاد

مسفيوة واوسعوها نهبا وتخريبا ، والحرب في ذلك كله قائمة مـع المولى المستضيء على ساق ، الى ان صار وادي الزات أخرب من جوف حمار . ثـم انتقل السلطان الى وادي كجي فعاثت فيه العساكر على عادتها ، وعجز أهـل الدفاع فهدمت حصونهم وحرقت قراهم وقطعت أشجارهم ، وصـار وادي كجي أوحش من وادي الزات ، فطلبوا الامان واعلنوا بالطاعة ، وجـاءوا مستشفعين بصبيانهم . فقال لهم السلطان : «على شرط أن تأتـوا بالمستضيء» فقالوا : «انه قد فر بالأمس ولو كان عندنا لاتيناك به» فقبلهم وعفا عنهـم . ثم جاء أهل دكالة بنسائهم وذراريهم وقالوا : «هذه نساؤنا واولادنا لـك ، وأما المال فقد ذهب وما عندنا ما نقتاته فافعل بنا ما بدا لك» فعفا عنهم وأذن لهم في الرجوع الى بلادهم . وكان ذلك أواخر سنة سبـع وخمسين ومائة والـف .

ولما دخلت سنة ثمان وخمسين بعدها ارتحل عن بلاد مسفيوة ونـزل بقصبة آلصم باشمام الصاد زايا وبها قدم عليه وفد مراكش كما يأتي :

واما المولى المستضيء فانه لما فر من مسفيوة قدم مراكش ، وحـاول الدخول اليها فصده أهلها عنها ورفضوا دعوته ، وأعلنـوا بنصر السلطـان المولى عبد الله بمرأى منه ومسمع فلم يبق له حينئذ بمراكش مطمع ، وكان أخوه المولى الناصر قد مات يومئذ فاخرجوا اليه أثاثـه فتسلمه منهم وكـر راجعا الى بلاد الفحص ، فلم يزل تلفظـه أرض الى أرض الى ان احتـل بطنجة قانعا من الغنيمة بسلامة المهجة وسياتي تمام خبره بعد ان شاء الله .

وفادة اهل مراكش على السلطان المولى عبد الله بآلصم واستخلافه ولده سيدي محمدا عليهم

■

لما طرد أهل مراكش المولى المستضيء عن بلادهم تآمروا فيما بينهم وأجمعوا الدخول فى طاعة السلطان المولى عبد الله وعينوا جماعة من وجوههم واوفدوها عليه وهو بقصبة آلصم فانتهوا اليه وقدموا بيعتهم، واخبروه بما كان من المولى المستضيء وما عاملوه به من الصد والابعاد فقبلهم وعفا عنهم بعد العتاب ، ثم طلبوا منه هم وقبائل الحوز أجمع ان يطأ بلادهم ويدخل مصرهم فوعدهم بذلك ، ولم يبرح من مكانه الى ان وفدت عليه قبائل الدير كله ، فلما تفقد الجيش الذى خرج بهمن مكناسة وجد أكثره قد فر ولم يبق معه من العسكر المخزنى الا النصف ، واما القبائل فلم يبق معه منهم الا أعيانهم فى الاخبية لطول الغيبة وكثرة الحروب وقلة الزاد ، فلم يمكنه التقدم الى مراكش على تلك الحال ، وانما تألفهم بأن دفع لهم ولده المولى محمدا رحمه الله وقال لهم : «انى استخلفته عليكم» فرضوا به وقرت أعينهم، فكان ذلك اول ما انغرست شجرة الدولة العلوية بمراكش حتى صارت حضرتها ودار ملكها بعد ان كانوا لا يبغون بمكناسة بدلا .

ثم بعث السلطان ولده المولى احمد وكان اسن من المولى محمد خليفة عنه برباط الفتح ، واضاف اليه قبائل الشاوية وبنى حسن ، ثم أذن السلطان لعامل فاس عبد الخالق عديل فى الرجوع الى فاس فمرض بالطريق ومات بعد ان دخل فاسا ودفن بزاوية سيدى عبد القادر الفاسى .

ثم رجع السلطان الى مكناسة على طريق تادلا بعد ان أقام ببلاد الحوز سنة كاملة فقدمها فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وخمسين ومائة والف ، ولما شارف مكناسة لم يدخلها ونزل بقصبة ابى فكران ، فقدم عليه بها جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الريفى وولداها منه . فقدمت هدية عظيمة ، فقبض السلطان الهدية وقتل

الولدين ومن معها من أهل الريف ، ثم قتل معهم ثلاثمائة من بنى حسن كانوا قدموا عليه للتهنئة ، فكان ذلك سبب نفرة الناس عنه ، فساءت عنه الاحدوثة وكثرت القالة من الجيش والرعايا حتى في الاسواق ، وانقبض الناس عنه حتى أهل فاس فضلا عن غيرهم .

مكر السلطان المولى عبد الله باعيان البربر واخفار ذمة محمد واعزيز فيهم ثم اطلاقهم بعد ذلك

لما صدر من السلطان المولى عبد الله ما صدر من قتل اهل الريف وبنى حسن وانقبض الناس عنه ، انقبض فى جملتهم البربر فلم يأته منهم أحد . وكانوا قد حرثوا باحواز مكناسة ، فلما ادرك زرعهم امر السلطان العبيد بانتهابه ، فعمدوا اليه وحصدوه ودرسوه وأكلوه ، فازدادت نية البربر فيه فسادا .

ولما رأى انقباضهم عنه كاتب كبيرهم محمدا واعزيز وكانت بينهما خلة ومصافاة حتى كان يقول له : «أنت أبى» اذ كان محمد واعزيز هذا هو الذى حشد له جموع البربر وشايعه على عدوه أحمد الريفى حتى قتله ، فكتب اليه يلومه على انقباضه عنه وتخلف قبيله عن الحضور ببابه مع أنهم شيعته ومواليه ، فلما ورد عليه كتاب السلطان لم يسعه التخلف عن اجابته ، واستشار فى ذلك قومه فلم يوافقوه فراجعهم ، فقالوا : «الا ترى الى ما وقع بمن وفد عليه من غيرنا» فقال : «لا ترون الا الخير» ولم يزل بهم حتى غلبهم على رأيهم ، وتفرقوا عنه لجمع الهدية وتعيين الوفد فجمعوا من ذلك ما قدروا عليه ثم أتوه فاعادوا عليه القول وحذروه الغدر ، فقال : «هذا لا يكون ولستم مثل اولئك» ، فما وسعهم الا اجابته ، واقبلوا معه حتى انتهوا الى قصبة ابى فكران حيث هو السلطان ، فاجتمعوا بالحاجب أبى محمد عبد الوهاب اليمورى فلما رآهم بهت ، وتحركت منه الرحم البربرية لكنه لم

يمكنه ردهم بعد بلوغهم الى ذلك المحل ، وكانوا نحو المائة ، كلهم أعيان فترجلوا عن خيولهم ووضعوا اسلحتهم ، ثم دخلوا على السلطان المولى عبد الله فوجدوه جالسا على كرسيه بوسط القلعة ، فادوا واجب التحية فاجابهم وامرهم بالجلوس فجلسوا بين يديه ، ثم دخل الحرس والزبانية فوقفوا على رؤوسهم وأحاطوا بهم ، واخذ السلطان فى معاتبتهم على ما يرتكبونه فى الطرقات والغارات على المستضعفين من الاعراب وغيرهم وانتهاب بضائع التجار ، وما كانوا يعاملون به عساكر الملوك من النهب والسلب ، وعدد عليهم الحسائف القديمة والافعال الذميمة ، ثم أمر الحرس بالقبض عليهم فانقضوا عليهم انقضاض العقبان ، ولم يكن بأسرع من ان القوا بين يديه مقرنين فى الحبال ، ولم يقبض على محمد واعزيز من بينهم ، فقال له : «يامولانا أعدرا بعد أمان ولست من أهله ؟» فقال له : «ان هؤلاء القوم قد حادوا عن الدين وحل مالهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة وشقهم عصا الجماعة وقد أعيانى أمرهم وما عدت الى هذا الامر بعد خروجى منه الا من أجلهم ، أردت أن اقابل هذا التيس الاسود «يعنى العبيد» بهذا الكبش الابيض «يعنى البربر» واستريح من غصة من هلك منهما وأتمسك بالآخر ، ولولا انك بمنزلة والدى ما أطلعتك على ما فى ضميرى فقم فى حفظ الله ولا بأس عليك» فقال محمد واعزيز : «والله لا أقوم ولا اكون الا مع اخوانى حيثما كانوا فان هلكوا هلكت معهم ويكون لك غدرك ، وان سلموا سلمت معهم ولا يتحدث الناس أنى سقتهم الى الذبح ورجعت أنا سالما ، فأى وجه أسير الى أولادهم ؟ وأى ارض تحمينى من عشيرتهم ؟ والى أين أقصد ؟ فان كان لا بد من القتل فقتلك لى معهم أجمل بى ، ولا اثم عليك فى ذلك ولا عار ، لانى أنا الذى سقتهم اليك وأرحتهم عليك بعد أن عرضوا على هذا كله فلم أقبل منهم » فلما سمع السلطان هذا الكلام العالى وتمكنت منه صولته الحقة حعل يتدبره ثم التفت الى الحاجب عبد الوهاب وقال : « يا عبد الوهاب لاخير فى الرجل يقول للرجل أبة ثم لا يشفعه فى حماعة من قبيله خلوا عنهم » . فسرحوهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور

فركبوا خيلهم وساروا الى حلتهم ولسان حالهم ينشد ما قاله الاعرابى الذى
بال بواسط فضربه الحجاج وسجنه ثم أطلقه :

اذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرئنا وبلنا لا نخاف عقابا

زحف البربر الى السلطان المولى عبد الله بابى فكران وفراره الى مكناسة

لما خلص جماعة البربر الى حلتهم أقبلوا على محمد واعزيز وعاتبوه
على ما حملهم عليه من الوفادة على السلطان والقرب منه حتى جرى عليهم
ما جرى ، مع أنهم كانوا فى غنى عن ذلك كله ، وقالوا لـه : نحن متنا
وبعثنا ولابد لنا من الاخذ بالثار ، فقال : « شأنكم وما تريدون » فخلصوا
نجيا ، وتفاوضوا فى شأنهم الى أن اجمع رأيهم على غزو السلطان لمضى ثلاث
ومن تخلف عنها احرقت خيمته ، فقال لهم محمد واعزيز : « اياكم
والطرقات ثم افعلوا ما بدا لكم » فتفرقوا لحللهم واس[illegible] للحرب ، وأقبلوا
فى اليوم الرابع يجرون الشوك والمدر فلم يرع السلطان ، وهوبابى فكران
الا الرايات قد اطلت عليه من الحاجب ، والخيل تسيل بها الاودية والشعاب ،
فلم يسعه الا أن حمل أثقاله وأركب عياله وجعلهم أمامه مع رحى من
رماة المسخرين وأردفهم رحى أخرى من الخيل ، ثم تلاهم هو فى موكبه
وردفته رحى ثالثة من خيل العبيد جاءت من خلفه ، وانحدر فى بطن
الوادى وتفرق الجند عن يمين الوادى ويساره وسار السلطان على هذه
التعبية ، وكلما دفعت خيل البربر على المسخرين من الجند أطلقوا عليهم
شؤبوبا من الرصاص فيسقط منهم الاربعون والخمسون ، واذا دفعت خيلهم
على رحى الخيل فكذلك ، وعلى موكب السلطان فكذلك ، وهكذا الى أن
دخل باب القزدير فاحتل بمكناسة ، وهلك من العبيد فى هذه الوقعة نحو
الثلاثمائة ، ومن البربر على ما قيل نحو الخمسمائة ، وجمعوا قتلاهم

فكفنوهم فى أخبية العبيد اذ كانت بأيديهم ولم يرجعوا بسوى ذلك ، وكانت هذه الوقعة أواسط سنة تسع وخمسين ومائة وألف .

واعلم أنه قد وقع هنا لفظ الرحى ولفظ المسخرين وغير ذلك ، وهى ألقاب لطوائف من جيش هذه الدولـــة السعيدة فلا بد من بيان الاصطلاح فى ذلك تتميما للفائدة فنقول : ان الجيش السلطانى اليـوم بهذه الدولـــة الشريفة ينقسم أولا الى ثلاثـة أقسام : أصحاب ومسخرين وجيش . فأما الاصحاب فهم : طائفة من الجند تلازم السلطان حضرا وسفرا لا يفارقونه بحال ، وهم أرباب الوظائف المخزنية ، منهم الكتاب الذين هم الى نظـــر الوزير الاعظم ، ومنهم أرباب الفراش ، ومنهم القهارمة القائمون على طعام السلطان وشرابه ، ومنهم أرباب الوضوء ، وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم ، وكل طائفة برئيسها . واما المسخروز فهم : ملازمـــون للسلطان حضرا وسفرا أيضا ، وشأنهم أن يكونوا فرسانـــا فى الغالب ، وقـــد يكون فيهم الرماة ، وهم أهل الشوكة والغناء ، وهم الموجهون فى المهمات لان عليهـم المدار فى الامور المخزنية كما يقتضيـــه تسميتهم بالمسخرين ، واذا ركب السلطان فى سفر أو نحوه انقسموا قسمين ، فالعبيد منهم يكونون خلفـــه لانهم الموالى ، والواديا وشراقة يكونون أمامه . وأما الجيش فهـــو : أهل الجميع كما يقتضيه لفظه ومنه تنتخب الطوائف السابقة وهو عسكر السلطان الذى يحويه ديوانه الا أن معظمه يكون متفرقا فى حلله وبلاده الا اذا أراد السلطان غزوا فيوجه على ما يحتاج اليه منه ، اما الجميع أو البعض ويكون ذلك مناوبة على ما هو معروف عندهم . وأما الرحى فهى : عبارة عن ألف من الجيش خيلا أو رماة وربما زادت أو نقصت بحسب ما يتفق والله أعلم.

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وانتقاله الى فاس وانتقال عبيد الديوان من مشرع الرملة الى مكناسة

لما وصل العبيد الذين كانوا مع السلطان المولى عبد الله بأبى فكران الى مكناسة واجتمعوا باخوانهم الدين كانوا هنالك تكلموا بما فى أنفسهم على السلطان من الغيظ ونفثوا بما فى صدورهم عليه من الاحنة ، وقالوا انه قد قال لمحمد واعزيز : « أردت أن أصدم هذا التيس الاسود بهذا الكبش الابيض » ودارت بينهم هذه الكلمة وأخذت منهم كل مأخذ . وقالوا : « لم يبق لنا شك فى أن هذا الرجل لا غرض له الا فى هلاكنا فانظروا لانفسكم أو دعوا » ثم كتبوا الى عبيد الديوان يخبرونهم بما صدر من السلطان فى جانبهم ويستشيرونهم فى أمره ، فجاء بعض عيون السلطان من عبيد مكناسة اليه وأخبروه بما دار بين العبيد ، وبما كتبوا به الى أهل الديوان فطير السلطان بالكتابة الى ودايا فاس الجديد يقول لهم : « ان كانت لكم حاجة بابن أختكم عبد الله فاقدموا عليه الساعة » ثم أخذ فى جمع أثاثه وتنضيده وحمل ماله وشده واسراج خيله وانهاض رجله ، وقال لخاصته : « غدا ان شاء الله نرجع الى أبى فكران » فلما كان وقت العشاء وصل الى باب القزدير من جيش الودايا أربعمائة فارس فاخرج اليهم السلطان أثاثه وماله وعياله ، ثم ركب فى خاصته وأسروا ليلتهم ولم يصبحوا الا بفاس الجديد فدخل السلطان داره وأمن على نفسه . وأما عبيد الديوان فانه لما بلغهم كتاب اخوانهم الذين بمكناسة وقرأوه قالوا : «انه لا يجمل بنا المقام فى وسط بنى حسن لا ننفع اخواننا ولا ينفعوننا » فأجمعوا الرحيل والانتقال الى مكناسة ، وبعد ثلاث انتقلوا اليها وأعروا مشرع الرملة ، واستراحت تلك البلاد من عيثهم لاسيما سلا وأحوازها فانهم كانوا قد أشجوا أهلها ولاقوا منهم عرق القربة ..

ولما وصلوا الى مكناسة نزلوا بالمدينة وبالقصبة وبالاصطبل وبريمة

وبهدراش وبالرحاب المتسعة فملأوها واجتمعوا باخوانهم واطمأن جنبهم
ولما كان عيد الفطر من سنة تسع وخمسين ومائة وألف قدم على السلطان بفاس جماعة من قوادهم مع القاضي والفقهاء والاشراف من أهل مكناسة فحضروا معه العيد على العادة وطلبوا منه أن يرجع الى مكناسة وتنصلوا مما بلغه عنهم واعتذروا اليه ، فوعدهم الرجوع وأعطاهم مالا وانصرفوا الى منازلهم . ولما كانوا بالجديدة قرب مكناسة اعترضهم البربر وجردوهم وأخذوا ما معهم ولم يتركوا الا القاضي أبا القاسم العميرى على بغلته ، وأصبح الوفد على باب مكناسة عراة ينظر بعضهم الى بعض .

اجلاب محمد واعزيز على السلطان المولى عبد الله وانتقاض اهل فاس والقبائل عليه

لما رجع البربر الى بلادهم من وقعة أبى فكران كتب كبيرهم محمد واعزيز الى أهل فاس يتظلم من السلطان المولى عبد الله ويخبرهم بما اتفق له معه من اخفار ذمته وعزمه على الفتك باخوانه ويدعوهم مع ذلك الى أن يكونوا معه يدا واحدة ، فأجابوه الى ذلك ودخلوا فى حزب البربر . ثم كتب واعزيز بمثل ذلك الى عرب الغرب من سفيان وبنى مالك ، وكبيرهم يومئذ حبيب المالكى ، فقالوا : « نحن لكم تبع وحربنا حربكم وسلمنا سلمكم » واتقضت الفتوق على السلطان من كل جهة وهاجت الحرب بين الودايا وأهل فاس ، وبعد أيام ورد الخبر بأن ركب الحاج قد وصل الى تازا ، وهو محصور بها ، فاستغاث أهل فاس بالبربر ليأتوهم باخوانهم ، فجردوا منهم خمسمائة من الخيل الى تازا ، فمروا فى طريقهم بعرب الحياينة فانضموا اليهم ودخلوا فى حزبهم وصاروا بأجمعهم الى تازا فخلصوا الركب الذى بها وقدموا بهم الى فاس ، فدخلوا على باب الفتوح

ونزل البربر والحياينة بالزيتون ، ودخل جماعة منهم المدينة لقضاء أغراضهم .

وفى أثناء ذلك أغار عليهم الودايا ففضوهم وقتلوا منهم كثيرا ، فأمرهم السلطان أن يعلقوا رؤوسهم على سور قصبة شرافة ففعلوا ، ثم بدا لاهل فاس فى مراجعة طاعة السلطان فبعثوا اليه فى ذلك ، فأجابهم بأن يقدموا عليه فخرج اليه العلماء والاشراف والاعيان ، فلما مثلوا بين يديه عدد عليهم أفعالهم ووبخهم وشرط عليهم شروطا منها أن يعطوه زرع أهل الغرب المخزون عندهم وأن يهدموا دورهم ويبنوا بأنقاضها دار الدبيغ ، ويختاروا احدى خصلتين اما أن يكونوا جيشا واما أن يكونوا نائبة ، فقالوا : « نجتمع على هذا الامر مع اخواننا ويكون الجواب » . ولما رجعوا من عنده أغلقوا أبواب مدينتهم وقالوا : « لا نقبل شيئا من ذلك كله » وعادت الحرب جذعة وارتفعت الاسعار وعظمت الاخطار . وفى سابع ذى الحجة من سنة تسع وخمسين ومائة وألف نهب عامة فاس قفاطين المخزن التى كانت بفندق النجارين على يد الامين الحاج الخياط عديل وأرادوا مصادرته على مال المخزن الذى عنده فافتدى منهم بثلاثة آلاف مثقال فأطلقوه بعد القبض عليه . وكانت القفاطين ثلاثة آلاف قفطان فرقوها على رماتهم يعيدوا بها عيد الاضحى ، واستمرت الحرب بينهم وبين الودايا وسائر شيعة السلطان الى أن دخلت سنة ستين ومائة وألف .

وفى أوائل جمادى الاولى منها قدمت قبائل البربر وقبائل الغرب لمشايعة أهل فاس على حرب السلطان ، فنزل محمد واعزيز فى بربره بجبل الطفات ، ونزل حبيب المالكى فى أهل الغرب وطليق والخلط بدار الاضياف ، وانحجر الودايا بفاس الجديد والعبيد بقصبة شراقة ، والسلطان بدار الدبيغ ، وضاق الخناق على السلطان وشيعته ، ومن الغد ركب حبيب فى عربه وزحف الى السلطان بدار الدبيغ والبربر على أثره . ولما وصل الى حريمها بلغه أن البربر قد نهبوا محلته فرجع منهزما وعبر الوادى وتوجه الى بلاده ، وأما البربر فانهم لما فرغوا من محلة أهل الغرب اجلوا

الى سايس ، ويقال : أن السلطان دس بالليل الى محند واعزيز بمال على أن يخذل عنه هذه الجموع ويفرقها ، ففرقها بنهب محلة أهل الغرب وبجبهة العين يفدى حافر الفرس ، ولما انقضت هذه الجموع الى بلادها بقى أهل فاس فى القتال والحصار سنتين وزيادة كما سياتى ، وبعثوا فى أثنه ذلك الى المولى المستضىء المقيم باحواز طنجة ليقدم عليهم فيبايعوه وتجتمع كلمتهم عليه فرد رسلهم بمخ العرقوب ووعد عرقوب .

ذكر السبب الذى هاج بعث السلطان المولى عبد الله الجيوش الى اهل الغرب ومراجعتهم طاعته

وفى سنة ستين ومائة وألف أثناء حرب الودايا لاهل فاس قدم جماعة من عرب بنى حسن على السلطان المولى عبد الله شاكين اليه عرب الغرب ، وانهم لما انقلبوا راجعين بجموعهم الى بلادهم مروا بحلة بنى حسن فأغاروا عليها وانتهبوها ، فحركوا من السلطان ما كان كامنا فى صدره عليهم ، وبعث اليهم جيشا كثيفا من العبيد والودايا وأمرهم بالفتك بأهل الغرب ونهب أموالهم وأن لا يبقوا لهم على سبد ولا لبد ، فخرج الجيش يؤم بلاد الغرب فنذروا به وانجفلوا أمامه عن بلادهم وتبعهم طليق والخلط فأرزوا الى مدينة العرائش وتحصنوا بسورها ، فتبع الجيش آثارهم حتى نزل عليهم بها وحاصرهم ثلاثة أشهر هلكت فيها ماشيتهم جوعا ، وبعقب ذلك وردت عليهم جماعة من الودايا بأمان السلطان ومصحفه وسبحته ، فعاهدوهم على ذلك وأفرج الجيش عنهم وخرجوا مع الودايا فقدموا على السلطان بهديتهم فعفا عنهم ، وولى عليهم كبيرهم حبيبا المالكى وأضاف اليه قبائل الجبل كلها ، وأما الجيش الذى كان على العرائش فانهم لما قفلوا باتوا بقصر كتامة فضيفهم أهله بما قدروا عليه من الطعام والعلف ومن الغد

دخلوا القصر فاستباحوه ونهبوا وسبوا وقتلوا وفعلوا الافاعيل العظيمة ، واستمروا على ذلك ستة أيام ، وكان الحادث عظيما ، وعز ذلك على الناس كلهم وتأسفوا له وكان ذلك فى محرم سنة احدى وستين ومائة وألف .

زحف البربر الى الودايا ومظاهرة اهل فاس لهم عليهم

لما كان جمادى الثانية من سنة احدى وستين ومائة وألف عزم السلطان المولى عبد الله على غزو البربر فخرج من فاس الجديد حتى اتى أبا فكران فعسكر به ظنا منه أن العساكر ستقدم عليه هنالك كما هى العادة فلم يأته احد ، فبعث الى العبيد يستنفرهم لغزو البربر فقالوا : « حتى يأتى الودايا والقبائل ونأتى نحن أيضا » ولما رأى تثاقل الناس عنه عاد الى منزله واعرض عما كان هم به . ولما سمع البربر برجوعه عنهم طمعوا فيه وأجمعوا غزوهم فقال لهم محمد واعزيز : «الرأى ان ننزل بسايس ونحول بينه وبين العبيد حتى لا يصل اليهم ولا يصلوا اليه» فاقبلوا حتى نزلوا بسيط سايس ، ثم تقدمت جموعهم حتى شارفوا مزارع فاس الجديد فأغاروا على الودايا ونهبوا ماشيتهم وزروعهم وضيقوا عليهم ثم وصلوا ايديهم باهل فاس فدخلوا مدينتهم وتسوقوا بها فباعوا واشتروا عشرة ايام وانقلبوا الى اهلهم فاكهين .

وفى أول رجب من السنة المذكورة ورد الخبر بأن أهل الريف قد قبضوا على المولى المستضىء المقيم ببلادهم ونهبوا خيله وأثاثه وماله وثقفوه حتى يدفعوه لاخيه المولى عبد الله لانه كان قد اشتغل بظلم الناس بالفحص وطنجة ، وقبض على القائد عبد الكريم بن على الريفى وهو أخو أحمد بن على المتقدم الذكر فأخذ ماله وسمل عينيه ، وأما أهل تطاوين فلم يبايعوه ولا عرجوا عليه ، وفى شعبان احرق الودايا باب المحروق ليلا ففطن لهم الحرس ودافعوهم عن الباب ومن الغد ركبوا به أبوابا جددا .

مراجعة اهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله وانعقاد الصلح بينهم وبين الودايا

لما طال الحصار على أهل فاس وأضرت بهم معاداة جيرانهم من الودايا وسئموا الحرب راجعوا بصائرهم وجنحوا للسلم وطاعة السلطان فاتفق ان كان عندهم رجل من أشراف تافيلالت فأرسلوه الى السلطان واسطة بينهم وبينه ، وبعثوا معه كتابا بالاعتذار والتوبة فقبل السلطان ذلك وسر به ووقع منه الموقع ، وكتب اليهم ينفى ظنونهم ويسل سخائمهم ويقسم لهم أنه لم يأمر بحربهم ولا اضرارهم قط ، وانما فعل ذلك الودايا من قبل أنفسهم ، فلما وصل اليهم كتاب السلطان بذلك طابت نفوسهم وفرحوا وعينوا جماعة من فقهائهم وأشرافهم وأهل الخير منهم فأوفدوها على السلطان بمكناسة فى شوال من السنة المذكورة ففرح بهم وأكرمهم ، وصرح لهم بالعفو والرضا عنهم ، فاغتبطوا بذلك ، وانقلبوا الى اهلهم فرحين مستبشرين. ثم كان الصلح بينهم وبين الودايا بضريح المولى ادريس رضى الله عنه وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار سنتين وثلاثة أشهر ، وكان ذلك فى ذى القعدة من سنة احدى وستين ومائة والف ، ولما حضر العيد قدموا على السلطان وهو بمكناسة بالخبر وعادوا به خوفا من البربر

خروج العبيد على السلطان المولى عبد الله وبيعتهم لولده سيدي محمد والسبب في ذلك

لما راجع أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله واصطلحوا مع الودايا وهدأت الفتنة ساء البربر ذلك وكرهوه ، وبلغهم مع ذلك ان السلطان قد استنفر العبيد لغزوهم فاحتالوا في تفريق الكلمة على السلطان بأن أخذوا في شن الغارات على العبيد بمكناسة والتضيق عليهم واختطاف أولادهم من البحائر والجنات ، فراسل العبيد البربر في المسالمة والصلح فقالوا لهم : «ان السلطان أمرنا بهذا» فلما سمع العبيد ذلك منهم لم يشكوا في صدقهم بسبب ما كانوا أسلفوه من التقاعد عن السلطان والتثاقل عن النهوض معه لغزو البربر حتى عاد الى منزله بعد المعسكرة بأبي فكران كما مر ؛ ثم اتفق رأي العبيد على الفتك بالسلطان واغتياله ، ونما اليه ذلك منهم فخرج فارا من مكناسة الى دار الدبيبغ فاستقر بها ، وكان ذلك في صفر سنة اثنتين وستين ومائة وألف .

ولما ضاق العبيد ذرعا بفعل البربر كاتبوهم في الصلح فاجابوهم اليه على شرط أن يبايعوا سيدي محمد بن عبد الله فبايعوه بمكناسة وبعثوا اليه بيعتهم وهو بمراكش مع جماعة من أعيانهم ، وخطبوا به بمكناسة وزرهون والسلطان بدار الدبيبغ لا يملك من أمره شيئا ، ولما قدم وفد العبيد على سيدي محمد بن عبد الله رد بيعتهم وعاتبهم على ما ارتكبوه في حق والده وتألفهم بشيء من المال وأعرض عن الخوض في أمر البيعة ، اذ كان رحمه الله بارا بوالده ساعيا في مرضاته ، وبعث اليه في صفر من هذه السنة بهدية قدرها على ما قيل ثلاثون ألف مثقال ، فرجع وفد العبيد من عند سيدي محمد وقد أيسوا من اجابته اياهم ، ومع ذلك استمروا على الخطبة بمكناسة وزرهون .

ثم ان السلطان المولى عبد الله رحمه الله لما رأى أن القلوب قد نفرت عنه وان العبيد والبربر قد امتدت عيونهم الى ولده سيدى محمد وتعلقت آمالهم به تلافى أمره ، واخذ في استصلاح الرعية وتألفها ، فامر في شعبان من السنة المذكورة بان ينادى باسواق فاس على العبيد الذين بها من لم يحضر الى دار الدبيغ لوقت كذا فلا يلومن الا نفسه ، فحضر العبيد الذين بفاس كلهم فاعطاهم خمسة دنانير لكل واحد ، وقال لهم : «ابعثوا الى اخوانكم الذين بمكناسة فمن إتى منهم الى قبض مثل ما قبضتم فكتبوا اليهم فلم يزدهم ذلك الا نفورا ، وبعثوا الى البربر الذين بسايس يقولون لهم : «كل من صادفتموه منا متوجها الى فاس فاقتلوه» وأعلنوا بخلع السلطان .

ثم استدعى السلطان بعد ذلك محمدا واعزيز كبير البربر ووعده ومناه فقدم عليه في اخوانه في رمضان فأعطاهم عشرة آلاف دينار ، وحضر العبيد فقدموا عليه أيضا فأعطاهم عشرة آلاف اخرى ، واعطى الودايا عشرة آلاف أيضا ، واعطى أهل فاس مثل ذلك ، ولج العبيد في نفورهم وركبوا رأسهم في جماحهم عن السلطان والقرب منه .

مجيء سيدى محمد بن عبد الله من مراكش الى مكناسة وتوسطه للعبيد في الصلح مع والده رحمهما الله

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة والف ففي اواخر جمادى الاولى منها قدم المولى محمد بن السلطان المولى عبد الله من مراكش الى مكناسة فوجد العبيد لا زالوا يخطبون به فعاتبهم على ذلك ، وقال لهم : «اني بريء منكم ومن فعلكم هذا وانما انا خديم والدى» فتركوا الخطبة وراجعوا

بطائرهم وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم في طاعته ، وكانت هذه هي البيعة السابعة للعبيد مع السلطان المولى عبد الله لانهم خلعوه قبلها ست مرات حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى .

ولما تم لسيدى محمد مع العبيد ما أراد من مراجعتهم طاعة والده ارتحل من مكناسة في جيشه الذى قدم به من الحوز ، وكان نحو أربعة آلاف ، واستصحب معه جماعة من أعيان العبيد ، وقدم على والده بدار الدبيبغ فخرج الودايا وأهل فاس لملاقاته وفرحوا بمقدمه ، ولما دخل على والده أدى التحية وأهدى اليه هدية نفيسة وشفع للعبيد عنده فشفعه فيهم ، وقال له : «لا تبت هنا» فقال : «نعم ياسيدى» ولم يبت الا برأس الماء واصبح غاديا الى مراكش ، ثم حضر العبيد فقدم على السلطان جماعة من جروان وبنى مطير فأعطاهم عشرين ألف مثقال ، وقدم عليه قواد العبيد من مكناسة فلم يعطهم شيئا .

وفي هذه السنة توفي المولى أحمد بن السلطان المولى عبد الله بفاس ودفن بقبوز الاشراف رحمه الله .

انحراف العبيد ثانية عن السلطان المولى عبدالله والتجاؤهم الى ابنه سيدى محمد بمراكش والسبب في ذلك

لما أعطى السلطان المولى عبد الله بنى مطير وجروان عشرين ألف مثقال وحرم العبيد قامت قيامتهم وقلبوا للسلطان ظهر المجن ، واتفقوا على الذهاب الى ابنه سيدى محمد بمراكش فقدموا عليه في ذى القعدة سنة أربع وستين ومائة والف ، وقالوا له : « اما ان تكون سلطاننا واما أن نبايع عمك المولى المستضىء» وشكوا اليه اهمال والده جانبهم وقالوا له : «انه أعطى البربر أعداء الدولة وحرمنا» فرضخ لهم بشىء من المال طيب به

نفوسهم ، وكتب لهم كتابا الى والده يستعطفه لهم ، وانقلبوا من عنده مسرورين .

واما السلطان المولى عبد الله فانه لما سمع بذهاب عبيد مكناسة الى مراكش أعطى الودايا عشرة آلاف ريال ، واعطى العبيد الذين معه ثلاثة آلاف ريال ، ولما قدم عبيد مكناسة على السلطان بكتاب ابنه سامحها وأعطاهم عشرين الف ريال وتم الصلح بينهم وبينه وعادوا إلى مكناسة مغتبطين .

وفي هذه السنة بعث سيدي محمد من مراكش بهدية الى والده مع جماعة من اصحابه فاثنى عليه خيرا ودعا له به ، وفيها ورد الخبر بأن أهل تطاوين قتلوا عاملهم أبا عبد الله الحاج محمدا تميم ، ثم قدم جماعة منهم على السلطان معتذرين من قتله ، فقال لهم : «أنتم وليتموه عليكم وأنتم قتلتموه فاختاروا لانفسكم» فوقع اختيارهم على أبي عبد الله الحاج محمد ابن عمر الوقاش فولاه عليهم وانصرفوا الى بلدهم .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف فيها قدم أهل تطاوين على السلطان المولى عبد الله لحضور عيد المولد الكريم وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون الف مثقال ، وقدم بصحبتهم باشدور الاصبنيول ومعه مائة ألف ريال وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكاك اسرى جنسه ، فقبض السلطان المال وقال للباشدور : «حتى تأتوا باسرى المسلمين» وأعطى العبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد وأعطى نساءهم مثل ذلك ، وكانوا الفين ومائتين .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة والف فيها قدم عبيد مكناسة على السلطان لحضور العيد فأعطاهم عشرة آلاف ريال ، وفيها نهض أهل فاس لشراء الخيل والعدة والاكثار منها .

وفيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين جنس الاصطادوس ، وهم سبع قبائل من الفلامنك ، وهي اثنان وعشرون شرطا مرجعها الى عقد الامان

والصلح بين الايالتين ، وان يجعل جنس الاصطادوس قنصلا أو أكثر بالبلد الذي يختاره من بلادنا ، ويكون يعطي خط يده المسمى بالباصبورط لمن يسافر من مراكبنا الى جهة بلادهم ، وكذلك هم ايضا الى غير ذلك .

وفي هذه السنة أو ما يقرب منها أغار نصارى الجديدة على آزمور واقتحموا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا به عددا كثيرا من أهل آزمور نحو الخمسين ، وكانت الليلة ليلة جمعة ، وعادة أهل آزمور أن يبيتوا ليلة الجمعة بضريح الشيخ المذكور ، فنما ذلك الى النصارى الذين بالجديدة فجاءوا مستعدين حتى اقتحموا عليهم على حين غفلة وأطفأوا المصابيح ووقع القتل حتى كان المسلمون يقتل بعضهم بعضا ورجع النصارى عودهم على بدئهم .

وذكره لويز مارية مؤرخ الجديدة فقال ما ملخصه : «وفي ليلة الثاني عشر من نونبر سنة اثنتين وخمسين وسبع عشرة مائة مسيحية خرج عشرة من برتقال الجديدة وقصدوا آزمور حتى دخلوا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا هنالك اربعين من المسلمين وقامت الهيعة بالبلد وتسابقوا اليهم على الصعب والذلول فرجع النصارى من حينهم وأدركهم المسلمون بالطريق فجرحوا بعضهم ونجوا بعد مشقة فادحة» هكذا زعم لويز وان النصارى كانوا عشرة فقط وأهل آزمور يزعمون أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير والله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة والف فلم يكن فيها حدث في الدولة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين بعدها فيها توفي محمد واعزيز كبير آيت ادراسن ووازعها الذي كانت تقف عند اشارته وتجري امورها على مقتضى ادارته .

فتنة آيت ادراسن و كروان مع الودايا والسبب في ذلك

لما مات محمد واعزيز ولم يبق بآيت ادراسن من يقوم فيهــا مقامه فهاجت الفتنة بينهم وبين جروان ، فزحفوا الى كروان واوقعوا بهم فانهزمت كروان أمامهم ولجأوا الى دار الدبيغ معتصمين بهــا ومستجيرين بالسلطان الذى بها ، وضاق بهم رحب الفضاء وعدموا المرعى فشرعوا فى بيع مواشيهم فبلغت البقرة بسوق فاس خمس اواق والشاة أوقية ، فأمر السلطان المولى عبد الله الودايا بنصرتهم وآخى بينهم وابينهم ، وعقد لهم حلفا مؤكدا معهم نقاموا لحمايتهم والدفاع عنهم ، وانشبوا القتـــال فكانت الهزيمة عـلى آيت ادراسن ، ففرت خيلهم ومقاتلتهم وانكسرت حلتهم وقتلوا فى كل وجه ومن سلم منهم لجأ الى بلاد شراقة فاستجار بها ، فكان عدد من قتـل منهـم بتلك الوقعة نحو الخمسمائة ، وهذا سبب حلف الودايا مع جروان .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة والف فيها قدم على السلطان المـولى عبد الله عبيد مكناسة ورغبوا اليه فى الذهاب معهم اليها اذ هـى دار ملكـه وملك أبيه من قبله فقال لهم : «كيف أذهب معكم وفى وسطكم فلان وفلان؟» لجماعة سماهم منهم كانوا منحرفين عنه فرجع العبيد الى منزلهم ، ولما جـن الليل طرقوا اولئك المسمين وأمثالهم فى رحالهم فقتلوهم ارضــاء للسلطان وتطييبا لنفسه . وكان منهم القائد محمد السلاوى ، والقائـد سليمان بــن العسرى ، والقائد زعبول وغيرهم .

ولما بلغ السلطان ذلك بعث اليهم باربعين الف مثقال راتبـــا وصرفهم الى مكناسة وقال لهم : «اذا فرغت من عملى أتيتكم» .

وفى هذه السنة أيضا قدم عليه القائد أبو عبد الله محمد الوقاش فـى أهل تطاوين بهدية فيها الف ريال وباسارى وسلع من سلع النصارى غنمتها قراصيهم ، فأكرمه السلطان وأعطاه جاريتين وانقلب الى اهله مسرورا .

وفيها قدم على السلطان أخوه المولى ابو الحسن المخلوع بدار الدبيغ

فأعطاه مالا واثاثا قيمته عشرة آلاف مثقال وخيره بين تافيلالت ومكناسة ، فاختار مكناسة فأعطاه مستفاد مكسها وجنات المخزن التى بها وارضا للحراثة فقدم المولى ابو الحسن مكناسة واستوطنها واغتبط بها ، ولما جاء وقت ابان الحرث وحرث وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وقيدوه وبعثوا به الى السلطان مقيدا ، وقالوا له : ان هذا قد افسد علينا بلادنا فحل بيننا وبينه فسرحه وبعث به الى سجلماسة .

وفى هذه السنة ايضا نهب البربر جميع ماشية الودايا وأفسدوا زروعهم وبحائرهم .

ثم دخلت سنة سبعين ومائة وألف فيها كانت بين آيت ادراسن وكروان حرب عظيمة أعان فيها الودايا كروان فهزموا آيت ادراسن ببسيط النخيلة من سايس والله أعلم .

وفاة أمير المومنين المولى عبد الله بن اسماعيل رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله بدار الدبيغ يوم الخميس فى السابع والعشرين من صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف ودفن بقبور الاشراف من فاس الجديد حيث دفن ولده المولى أحمد رحمهما الله .

قال صاحب « البستان » : كان أمير المؤمنين المولى عبد الله فيه شدة وبطش وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه وبقى مهملا بدار الدبيغ سنين لا يأتيه أحد وبيعته فى أعناق الناس وهم فارون منه لكثرة ما سفك من الدماء بغير سبب ظاهر . واستمرت حالته على ذلك مدة من اثنتى عشرة سنة من سنة تسع وخمسين الى سنة احدى وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر لنا وله ولسائر المسلمين . ومما مدح به هذا السلطان قول بعضهم :

عليك سلام يا ضياء العوالم ... ويابهجة الاشراف من آل هاشم
ويامن سما عضبا على كل جاهل ... وأصبح مسرورا به كل عالم
وأصبح ظل الله فى الارض ناظرا ... الى كل مسكين بمقلة راحم
ويامن كساه الله منه مهابة ... تذل لها رغما أنوف الاعاجم
ويامن له حزم وعزم وسطوة ... تفتت ارهابا قلوب الضراغم
كفاك افتخارا ان عزك ظاهر ... وجودك منسى به جود حاتم
وكون سجاياك التى فاح عرفها ... سجايا للملوك الشم أهل المكارم
لعمرى لقد ألقت اليك زمامها ... ضروب العلا اذ كنت أحزم حازم
فقمت على الملك المشيد ركنه ... تذود لديه بالقنا والصوارم
وأغناك رب الناس عن جمع عسكر ... برأى مصيب للعساكر هازم
ونفس علت فوق السماكين همة ... وعقل غنى عن هداية عالم
فجئت وسيل الغرب قد بلغ الزبى ... وأسواقه معمورة بالجرائم
ونار الشرور فى الفجاج تأججت ... فطاب لاهل البغى هتك المحارم
فدوخته من بعدما استنسرت به ... بغاث وقد طالت رعاة البهائم
فأمنتنا من كل طار وطارق ... وحصنتنا من كل داه وداهم

انعطاف الى سياقة الخبر عن آخر امر المولى المستضىء رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد الله خرج سنة سبع وخمسين ومائة وألف فى طلب أخيه المولى المستضىء ، وأنه دوخ بلاد الحوز لاجله وشرده عن جبال مسفيوة ، ولجأ الى مراكش فطرده أهلها ولما لم يجد بالحوز مستقرا رجع أدراجه يقترى البلاد والقرى ، ويصل حرارة التهجير ببرك السرى فاجتاز ببلاد دكالة ثم بتامسنا ثم ببنى حسن فزهدوا فيه فتقدم الى طنجة وأعمالها فاستقر بالفحص منها وطاب له المقام به ، وعسف اناسا فى تلك

المدة الى ان عدا على القائد عبد الكريم الريفي فسجنه وسمله وأخذ ماله كما مر ، فوثب عليه أهل الريف وقبضوا عليه ونهبوا خيله ومضاربه وأثاثه وسلبوا أصحابه وامتحنوه وأوثقوه حتى يبعثوا به الى أخيه المولى عبد الله ثم بدا لهم فسرحوه ، ولما خلص من المحنة كتب الى أخيه المولى عبد الله وهو بفاس يعتذر اليه عما سلف منه ويطلب منه محلا يستقر به فأجابه السلطان المولى عبد الله : « بأنك لم تأت الى ذنبا ولم ترتكب في حقي عيبا انما كنت تطلب ملك أبيك كما كنت أطلب ملك أبي والآن فان أردت الحمو لمثلي فأقم بآصيلا واسكن بها فهي أحسن من دار الدبيغ التي أنا بها وأرح نفسك كما أرحتها ، وان كنت انما تطلب الملك فشأنك واياه فاني لا انازعك فيه والسلام » . فلما وصل اليه كتاب السلطان انتقل الى آصيلا واستوطنها واعتنى بها وأصلح ما يحتاج الى الاصلاح منها ، وأصلح دار الخضر غيلان التي بقصبتها وسكنها سنة أربع وستين ومائة والف ، واجتمع عليه بعض أهل الطمع والشره ممن كان هنالك فدلوه على وسق الزرع للكفار وتوسطوا له في الكلام مع بعض تجار النصارى الذين بطنجة وتعاقدوا معه على وسقه ، فانتقل ذلك التاجر الى آصيلا ، ولما قدم عليه مركبه وسق الزرع وأدى صاكه أي واجبه فظهر للمولى المستضيء الربح في ذلك فشرهت نفسه ورغب في شراء الزرع وبيعه ممن يأتيه من التجار ، وتسامع النصارى بأن الزرع يوسق من مرسى آصيلا ، فلم تمض الا أيام قلائل حتى قدمت مراكبهم من كل وجه وعمرت المرسى وقصد الاعراب البلد بالقمح والشعير من كل فج ، والمولى المستضيء يشتري منهم ويبيع للنصارى ، والمراكب تسق ما قدرت عليه ، فكان يحصل له الربح في ذلك مضاعفا ربح الثمن وربح الصاكة فحسنت حاله وأثرى وكثر تابعوه ، وأخذ في شراء العدة من تطاوين وتسليح أصحابه وتقويمهم .

واتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله فندم على اذنه له في المقام هنالك وكتب الى القائد أبي محمد عبد الله السفياني يأمره بالزحف الى المولى المستضيء وحصاره بآصيلا حتى ينفيه عنها ، وكتب الى ولده سيدي محمد

بمراكش يأمره أن يبعث اليه من يخرجه منها ويكون معه القائد عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل ، فبعث اليه سيدى محمد رفيقه وابن عمه المولى ادريس بن المنتصر في مائة فارس ، وأمره أن يستصحب معه في طريقه عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل كما رسم له والده ويضيقوا على المولى المستضيء بآصيلا حتى يخرجوه منها ، فمضى المولى ادريس والسفياني حتى نزلا عليه وحاصراه فخرج اليهما وراود ابن اخيه المولى ادريس على الافراج عنه وتركه وشأنه ، واعتذر اليه بأن السلطان اذن له في سكنى آصيلا وأعطاه مستفاد مرساها ينتفع به ، فلم يقبل المولى ادريس منه ولم يزل به حتى أخرجه ، واستولى على ما وجد بداره من مال وأثاث وسلاح وبارود وغير ذلك ، فساقه الى عمه السلطان المولى عبد الله .

وأما المولى المستضيء فانه لما خرج من آصيلا سار الى فاس فنزل بضريح الشيخ أبي بكر بن العربي رضي الله عنه ، وقدم ولده الى السلطان المولى عبد الله يشكو له ما فعل به ولده سيدى محمد من تجهيز العساكر اليه ونفيه عن آصيلا ، فكان من جواب السلطان أن قال له : « قل لابيك ذاك لا سبيل لي عليه ، هو أعظم شوكة مني ومنك فسر الى بلاد أبيك وجدك وأرح نفسك من التعب والموت قريب مني ومنك » . فلما بلغه كلام السلطان لم يسعه الا التوجه الى مدينة صفرو بعد أن ترك عياله بدار الشريف المولى التهامي بالجوطيين من فاس ، ونزل هو بدار الامارة من صفرو ، ولما قدم المولى ادريس بن المنتصر على السلطان بمال المولى المستضيء وأثاثه قبض السلطان البارود والسلاح ورد الباقي ، وأرسل الى عامل فاس بأمره أن يكتب الى المولى المستضيء ليبعث وكيلا يحوز اليه متاعه ، فكتب اليه فبعث من حاز ماله وأثاثه ودفعه الى عياله بدار المولى التهامي . ولكن المولى المستضيء لما اطمأنت به الدار بصفرو بعث الى أعيان آيت يوسى على ما قيل فقدموا عليه فندبهم الى نصرته والقيام بدعوته فتخاذلوا عنه وقالوا له : « سر الى آيت ادراسن وكروان فان أجابوك فنحن معهم » ولما لم يتم له أمر بصفرو بعث من حمل اليه عياله وأثاثه من فاس وذهب الى سجلماسة فاستوطنها وذلك

سنة ست وستين ومائة وألف ، وأعرض عن الملك وأسبابه واستمر مقيما بها الى أن توفى سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر له .

انعطاف الى سياقة الخبر عن هؤلاء العبيد الذين جمعهم السلطان المولى اسماعيل من لدن وفاته الى دولة السلطان سيدى محمد بن عبدالله

قد تقدم لنا ان السلطان المولى اسمعيل كان قد اعتنى بجمع العبيد وترتيبهم وتهذيبهم الى أن بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا ، وبلغوا فى أيامه من العز والرفاهية وتشييد الدور والقصور وارتباط الجياد وانتحاب السلاح واقتناء الاموال وحسن الشارة والزى مالم يبلغه غيرهم ، وكان بالمحلة من مشرع الرملة منهم سبعون ألفا ما بين خيل ورماة ، وكان عدد اليكشارية منهم ، وهم أصحاب الباشا مساهل ، خمسة وعشرين ألفا كلهم رماة الا القواد منهم فانهم كانوا أصحاب خيل ، وكان بتانوت ووجه عروس منهم خمسة آلاف يدعون قواد رؤوسهم كلهم أصحاب خيل ، وباقى العدد وهو خمسون ألفا كانوا متفرقين فى قلاع المغرب لعمارتها وحراسة الطريق وحماية الثغور ، وكانوا فى غاية من الكفاية والسعة لان كل قبيلة من قبائل المغرب كانت تدفع أعشارها فى قلعتها المبنية بها لمؤنة جيشها وعلف خيلها ، واستمر ذلك الى أن توفى السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فانقطع بوفاته عن جيش القلاع المدد الذى كان به قوامهم .

ولما ولى بنوه من بعده واتصلت الفتن بينهم أهملوا أمر هؤلاء العبيد ولم يلتفتوا اليهم فضعفت مادتهم وتلاشى أمرهم ، وانتشروا فى القبائل التى كانوا مجاورين لها للتكسب على أنفسهم وأولادهم ، ولما أعروا تلك القلاع التى كانوا مقيمين بها امتدت اليها أيدى القبائل من العرب والبربر بالنهب والتخريب واقتلعوا أبوابها وخشبها وما راق منها وتركوها خاوية على .

عروشها لم يبق بها الا الجدرات قائمة ،وهكذا كان مآل محلة مشرع الرملة فانه لما ارتحل العبيد عنها الى مكناسة أيام السلطان المولى عبد الله خلفهم بنو حسن فيها بالنهب والتخريب ، وكل من عثروا عليه متأخرا بها نهبوه واستلبوا ما معه وأخذوا كل ما تركوه مما ثقل عليهم حتى يرجعوا اليه اذ كان العبيد يظنون انهم سيرجعون الى مشرع الرملة ، ثم تجاوزت بنو حسن ذلك الى تخريب الدور والقصور وحمل أبوابها وخشبها الى سلا فكانت تباع بها بالبخس ، فقد كان بهذه المحلة دوروقصور ليست بالحواضر ، وكان كل قائد منهم يفتخر على نظيره ببناء أعظم من بنائه وتشييد فوق تشييده وتنميق أحسن من تنميقه وتزويق أبدع من تزويقه فأتى بنو حسن على ذلك كله وانتسفوه ، وطمسوا أعلامه فى أسرع من لحس الكلب أنفه ولم يتركوا الا الجدرات قائمة الا أن خربوها بعد ذلك شيئا فشيئا ، بل صاروا يبعثرون الارض على الدفائن التى بها فعثروا من ذلك على شيء كثير .

ثم أن العبيد الذين رحلوا الى مكناسة لم يصل منهم اليها الا دون النصف اذ تفرقوا فى القبائل وقت رحيلهم فكل من كان أصله من قبيلة قصدها وكل من كان له مدشر عاد اليه . ثم الذين وصلوا الى مكناسة لم يستقر بهم قرار لقلة ذات اليد وغلاء الاسعار ، وكان الوقت وقت مجاعات وفتن ، فلم يبق بها الا القواد أهل اليسار وأهل الحرف الذين يتعيشون بحرفهم ، ومع ذلك فقد ضاقت بهم السكنى بها من أجل غلبة البربر الذين كانوا يغيرون عليهم ويتخطفون أولادهم من البحائر والجنات المرة بعد المرة ، فتسلل جلهم للمعاش بالقرى والقبائل ونسوا أمر الجندية والتمرس بالقنا والقنابل ، وتفرق منهم ذلك الجمهور . ولله عاقبة الامور .

ولما وقعت الزلزلة بمكناسة سنة تسع وستين ومائة وألف حسبما نذكره فى الاحداث هلك من العبيد فحسب نحو خمسة آلاف وهكذا لم يزالوا فى تلاش واضمحلال وتناثر واختلال الى أن كانت دولة السلطان الاعظم المولى محمد بن عبد الله رحمه الله فأدرك منهم صبابة يسيرة وعصابة حقيرة ، فاعتنى بهم وجمعهم من القبائل بعد الانتشار ، وأحيا رسمهم بعد

الاندثار ، وأظهرهم بعد الخمول ، وأركبهم المسومة من الخيول ، ورفع لهم الاعلام والبنود ، وصيرهم من أعز الجنود ، وهو الذى جدد هذه الدولة الاسماعيلية بعد تلاشيها ، وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزيق حواشيها ، بحسن سيرته ويمن نقيبته رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وهنا انتهى بنا الكلام على السادة الاشراف أولاد المولى اسمعيل رحم الله الجميع بمنه. قال أكنسوس : والحق الذى لاشك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة السلطان المولى عبد الله فانما هو ثائر عليه لا امامة له وانما يكون لخبره مسوقا من جملة اخبار دولة المولى عبد الله .

قلت : ومثله يقال فى السلطان المولى أحمد بن اسمعيل فهو الامام المعتبر والمولى عبد الملك خارج عليه وقد علم من مذهب الاشعرية أن طرو الفسق لا يعزل الامام . والله تعالى اعلم واحكم .

انعطاف الى سياقة الخبر عن خلافة سيدى محمد بن عبد الله بمراكش من مبتدئها الى منتهاها



قد تقدم لنا ان السلطان المولى عبد الله كان قد خرج سنة سبع وخمسين والف فى طلب أخيه المولى المستضىء الى أن شرده عن بلاد مسفيوة وانه قدم عليه هنالك أهل مراكش ورغبوا اليه أن يدخل حضرتهم ولم يساعده الوقت ، فلما عزم على القفول الى بلاد الغرب بعث ولده الاكبر المولى احمد الى رباط الفتح نائبا عنه بها ، وأضاف اليه قبائل الشاوية وبنى حسن ، وما بينهما ، وبعث ولده الاصغر سيدى محمدا مع اهل مراكش نائبا عنه فيها فكان ذلك اول انغراس شجرة الملك العلوى بمراكش واتخاذها كرسيا لهم ، ولما وصل سيدى محمد رحمه الله الى مراكش نزل بقصبتها وهى يومئذ خراب ليس بها الا آثار السعديين والموحدين قبلهم ، قد أخنى

عليها الدهر وعشش بها الصدا والبوم فضرب بها مضاربه ، ثم شرع رحمه الله في حفر أساس داره بالفضاء البعيد عن القصور الخربة بها من داخل السور ، ولما رأى عرب الرحامنة ذلك اتفقوا على منعه لانهم كانوا قد ألفوا العيث في أطراف مراكش فأخبوا ان لا تكون بها دولة تكبحهم عن ذلك ، فاجتمع طائفة من غوغائهم وتقدموا الى الخليفة سيدى محمد وجبهوه بالمنع واخرجوه عن القصبة به دان شرع في العمل ، فانتقل سيدى محمد رحمه الله عن مراكش الى آسفي .

واما المولى احمد صاحب العدوتين فانه قدم رباط الفتح ونزل بالقصبة منها وانضاف اليه عبيد القصبة واستمر خليفة بها الى أن سمع أهل العدوتين ما عامل به الرحامنة خليفة مراكش فجرى هؤلاء على سننهم واتفقوا على طرد المولى أحمد بن عبد الله عن بلادهم فتقدموا اليه بالحرب وحاصروه بالقصبة ومعه عبيد فلان الذين كانوا فيها ادالة من عهد السلطان المولى اسمعيل ، وقطعوا الميرة والماء الى أن مسهم الجهد وعضهم الحصار فطلبوا الامان أن يخرجوا بأنفسهم فأمنوهم ، وخرج المولى أحمد فسار الى أخيه سيدى محمد با سفي فنزل عليه ثم كان آخر امره أن توفي بفاس كما مر سنة أربع وستين ومائة وألف .

ولما خرج المولى احمد الى آسفي عمد أهل رباط الفتح الى عبيد القصبة فانزلوهم منها وفرقوهم بالمدينة حتى لا تبقى لهم شوكة ولا عصبية . هذا ما كان من خلافة المولى احمد .

واما خلافة سيدى محمد فانه لما خرج من مراكش قاصدا الى آسفي اعترضته قبائل عبدة وأحمر وضيفوه ببلادهم وأهدوا اليه ، وتسابقوا على الخيل ولعبوا بالبارود سرورا بمقدمه وتنويها بشأنه ، وصحبوه الى آسفي فدخلها ونزل بقصبتها ففرح أهل آسفي بمقدمه واغتبطوا به وكان مبارك الناصية أينما توجه ولما اطمأنت به الدار رفع اليه أهل آسفي هداياهم ، وتبعهم على ذلك تجار النصارى واليهود وتباروا في ذلك وتنافسوا فيه وعمر سوقه عرب عبدة برجالاتهم وأعيانهم ، وبذلوا له أولادهم لخدمته واوصلوه

بكل ما قدروا عليه ، وسرح للتجار وسق السلع بالمرسى فاهرعت اليه المراكب من بر النصارى بانواع سلعها ، وقصدها التجار بالبضائع من كل جهة يبيعون بها ويشترون ، وكثرت الخيرات ونمت البركات ، فاستركب واستلحق وعلا امره وطار صيته فى البلاد الحوزية ، ودخل الشياظمة وحاحة فى طاعته وتباروا فى خدمته ، فلم تمض عليه ستة اشهر حتى كان يركب فى نحو الالف ، فلما سمع الرحامنة ما صار اليه أمر عبدة وأحمر اقتالهم من تشرفهم بولائه وتقدمهم فى خدمته نفسوا ذلك عليهم وراجعوا بصائرهم فاجتمع طائفة من اعيانهم وقدموا عليه آسفى ، وقدموا بين يديهم هدية استرضوه بها . ولما دخلوا عليه اعتذروا اليه مما فرط منهم ونسبوا ذلك الى السفهاء وانهم لم يأمروا بشىء من ذلك ولا رضوه ، واقسموا له ان لا يبرحوا من بابه حتى يسير معهم الى مراكش ولو أقاموا هنالك سنة ، واسعفهم وسار معهم وصحبه من أعيان عبدة نحو ألف فارس ، وكان فى موكبه من أصحابه وحاشيته نحو الخمسمائة كلهم بالخيول المسومة والشارة الحسنة والشكة التامة .

ولما انتهى الى مراكش نزل بالقصبة وجاءه أهل مراكش بهداياهم وكذا قبائل الحوز ، ثم تلاحم قبائل الدير كله بهداياهم أيضا وجاء الرحامنة باولادهم للخدمة السلطانية منافسة لعبدة وأحمر فى ذلك ، وقفاهم فى ذلك سائر أهل الحوز ، وقدم عليه عبيد دكالة الذين كانوا بسلا فاجتمعوا اليه وحسنت منزلتهم عنده . ولما سمع بذلك عبيد مكناسة تسللوا اليه فرادى وأزواجا فاستعملهم فى خدمة البناء فبنوا بيوتهم واصلحوا شؤونهم ، واجتهد هذا الخليفة فى بناء داره الكبرى بقصبة مراكش الى أن اكملها وسكنها ، ثم شرع فى بناء ما تلاشى من اسوار القصبة وركب أبوابها وأفردها عن المدينة، ثم غرس بستانا عظيما متصلا بداره الكبرى على جهة الغرب سماه النيل ، وأسس قصرا آخر متصلا بغربى هذا البستان سماه القصر الاخضر ، ويسمى أيضا المنصور ، وجعل لهذا البستان أربعة أبواب فى زواياه الاربع كذا قيل والموجود اليوم ثلاثة أبواب فقط وجعل له بابين آخرين أحدهما للدار

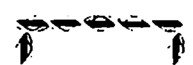
الكبرى شرقا والآخر للقصر الاخضر غربا ، وجعل في وسط هذا البستان قبة منتخبة يتصل بها من جهاتها الاربع مماشي تمضي الى قباب أخر منتخبة أيضا ، وطول هذا البستان ينيف على مائتي خطوة تقريبا وعرضه قريب من ذلك ، وهذا القدر هو مساحة ما بين القصرين أعني الدار الكبرى والقصر الاخضر ، ثم أصلح هذا الخليفة جامع المنصور الذى بالقصبة اذ كان متهدما يومئذ،ثم أسس مسجدا آخر للخطبة بجوار قصره وهوالمعروف اليوم بمسجد بريمة، وهو مسجد حافل بديع،وبنى مدرستين لطلبة العلم بالقصبة المذكورة، وبنى حماما ببريمة، وعمر مساجد غير ذلك للاحرار والعبيد ، وفرق الاموال على من انحاش اليه منهم لعمارة مساكنهم وبناء دورهم بعد أن كانت من الطين والقصب ، وكتب الكتائب وجند الاجناد فاجتمع لديه من العبيد ألف وخمسمائة كلهم فارس شاكي السلاح ، ومن عبدة وأحمر مثل ذلك ، ومن الرحامنة وأهل الحوز ألف فارس كذلك .

ولما خرج العبيد بمكناسة على والده وقدموا عليه بمراكش مبايعين له عاتبهم وقدم مكناسة واصلح بينهم وبين والده كما مر .

ولما كانت سنة تسع وستين ومائة والف غزا بلاد السوس ودوخها ومهد أقطارها وجبى أموالها وقرر الحامية بتارودانت منها ، ثم سار الى آكادير فقبض على الطالب صالح الثائر به والمستبد بمال مرساه فسجنه واستصفى أمواله التى استفادها من المرسى ورتب الحامية في آكادير أيضا ، ثم ان الطالب صالحا المذكور ذبح نفسه في السجن وأفضى الى ما قدم بعد أن ترك في القطر السوسي صيتا وذكرا ، وهو الذى يوجد طابعه على السلاح السوسي من مكحلة وسكين وخنجر الى الآن وهو سلاح منتخب عندهم .

وقفل الخليفة سيدى محمد رحمه الله الى مراكش مؤيدا منصورا فمكث فيها اياما يسيرة ثم خرج غازيا بلاد الشاوية في السنة نفسها لما ظهر منهم من الفساد وقطع الطرقات ونهب المارة ، فقتل من أعيانهم عددا وبعث الباقي في السلاسل الى مراكش .

ثم تقدم الى أرض سلا فبات برباط الفتح وخرج اليه أهلها بالمؤن والهدايا واستبشروا بمقدمه . واما أهل سلا فلم يخرج اليه منهم احد بل أغلق صاحبها عبد الحق بن عبد العزيز فنيش أبوابها فى وجهه ، فاعرض عنه سيدى محمد رحمه الله وتنكب المرور بسلا وعبر مشرع المجاز أسفل من العدوتين ، وسار الى قصر كتامة من بلاد الهبط ، فقدم عليه به عبيد مكناسة مع كبيرهم الباشا الزيانى ، وفى ذلك اليوم قتل العبيد باشاهم المذكور وقتلوا معه القائد يوسف السلاح لانهما كانا يمنعانهم من القدوم عليه الى مراكش ، فولى عليهم القائد سعيد بن العياشى . ومن الغد ارتحل الى تطاوين فتلقاه أهلها مع قائدهم محمد بن عمر الوقاش فقبض عليه وتهدده ثم أطلقه . ثم مضى الى جهة سبتة حتى أشرف عليها ، ثم سار منها الى طنجة ثم كر راجعا فمر بالعرائش ثم بسلا فلم يحفل به عبد الحق أبضا ، فطوى له سيدى محمد رحمه الله على البت . ثم سار الى مراكش فاستقر بها مؤيدا منصورا الى ان وافته الخلافة الكبرى بها بعد وفاة والده رحمه الله .



تم الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن وأوله

الخبر عن دولة امير المومنين سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام والقبائل

حرف « ب »

حرف «التاء»

حرف « س »

حرف « ش »

حرف « ص »

حرف « ط »

حرف « ع »

حرف النـون

حرف « هـ »

حرف « و »

حرف « ى »

فهرس الاماكن

حرف « ق »